حديث الشهر

مع مؤلف «عودة الروح» توفيق الحكيم

يقدمه: عبد الحليم عبد الله

من السهل جدا أن تقرأ لتوفيق الحكيم كتابا باللغة العربية أو الفرنسية .. ومن السهل أيضا أن تلتقى به ... على شرط أن ترتب المصادفة الموقف بينكما . وعندئذ يمكن أن تتكلم معه ساعة من الزمن . وفى أشياء كثيرة ...

لكن من الصعب جدا أن تقرأ لتوفيق الحكيم كتابا له عن طريق الاهداء وأن تتكلم معه طالما أنه يلمح فى يدك قلما على أهبة لتسجيل ما يقول ...

ولم يكن معه فى مكتبه فى جريدة الأهرام أحد حينما نهض ليحييني ... دخلت حجرة واسعة ذات طراز كلاسيكى . مستطيلة . فى صدرها مكتب جلس اليه . وفى الركن الأيمن مشجب علقت عليه « عصـا الحكيم » . والمكان جميل يوحى بالبساطة . لكن رائحة « الفكر » تفوح فى أرجائه

ونظرت الى الرجل ذى الشعر الفضى الهادئ المتواضع البعيد الأغوار ...

ان توفيق الحكيم قادر على أن يشـعرك وأنت أمامه بانك من أهم الناس وأكثرهم معرفة فى الوقت الذى يكون هو فيه قد اغرقك بمعلوماته . لا يحملق فيك . كانه يتلقى كل ما يقول من وجه يطل عليه من فوق . وأحيانا يلقى اليـك بانصاف كلمات ويتركك تكمل . انه يخاف منك ... وعليك ... وعلى نفسه . شديد الاحساس بذاته وذوات الآخرين . فهو يرى أن خدش ثمرة فى حديقة جاره تعنى خدش ثمـار فى حديقة داره . لذلك فعفة العبـارة والاشارة والنظرة أبرز صـفاته

قد لا يمد لك يد المعونة ، لكنه يواسيك . ويضفى على تجاربه الشخصية قدسية مبالغا فيها .

من الممكن أن يكتب طه حسين مذكراته وقد كتب بعضها بطريق غير مباشر . وكذلك فعل العقاد بعض الشيء . لكنى لا أسـتطيع أن أتصور توفيق الحكيم « معترفا » .

ولكي تتكلم مع الدكتور طه عن ذكرياته العامة فاجذب فقط طرف الخيط . ولكي تتكلم مع الحكيم عن ذكرياته العامة فابحث عن مهارة النشال .

وكان العقاد رحمه الله ممن يفيضـــون ويعترفون اذا ما أثرت غضبه . فطه حسين يقول ما يريد . والعقاد يقول أكثر مما يريد . والحكيم يقول أقل مما يريد ... قطرة ! !

***

يبدو ان توفيق الحكيم قضى الليلة السـابقة لحـديثي معه ، في الكتابة او القراءة . كان على وجهه أشـــعاعات مختلفة عن كل عمل مقدس . كان هادىء الصوت أكثر من المألوف . لين النظرة . ذا ابتسامة مخطوفة .

ودق الجرس يطلب لي القهوة فحدثته عن نظامى الصحى فنظر الى مستغربا كانه يستكثر على ذلك وأكد لى انه كثيرا ما يكسر النظام . وبعين «نائب فى الأرياف» لمح ورقة فى يدى . ورأيت أنا بعين الريفى الأصلى دلائل عدم الارتياح فى عينيه .

كانت فى الورقة أسئلة موجهة اليه . وكانت المقـابلة بميعاد سابق . وكان الحكيم يعرف كل ذلك . لكنى شممت منه رائحة الهرب فأخذت فى محايلته .

كان لابد ان يثق بى . فلما اقترح ان اترك له الأسئلة ليجيب عنها بأناة لأنه لا يحب الارتجال قلت له بتفاؤل الصياد وبساطة الريفى : « أمرك . المســألة سهلة . لك ما تريد . لكن ... ليست القضية سؤالا وجوابا انها مطارحة أفكار . وعلى كل حال أنا لست صحفيا من ذلك النوع الذى يثير المتـاعب بين الناس . ومجلة « القصة » فنية وليست جريدة يومية . »

وتظاهرت بأنى موشك ان انصرف . فوضع الحكيم ورقة الأسئلة أمامه . وليس على ملامحه اى تعبير . ووضع عليها كفيه مبسوطتين واطرق .

وجعلت أتأمل ملامحه الصامتة وأصابعه الطويلة ذات العقد الواضحة وانتظر اللحظة التى يســـتتب الأمن فيها فى نفسه ليجيب عن اســـئلتى وبعد لحظات بدأ يتـــكلم :

ـ تسالنى عن الارهاصات التى سبقت كتابة قصة « عودة الروح » ؟ ... فماذا تعنى ؟ !

قلت :

ـ ان التذكير يبعث الذكرى فلو اننى مثلا طلبت اليك ان تحاول تذكر اسماء ناس عرفتهم فى كوم حمادة وانت وكيل نيابة ـ لتذكرت ، وكذلك اريد ان تتذكر كيف كتبت الورقة الأولى من قصة عودة الروح ؟ فقال :

ـ لست ادرى هل من الشـــعور الطبيعى للانسان ان يتوهج فيه الحنين لوطنه كلما زاد بعده عنه ... كل الذى اعرفه اننى لم اعش داخل بلدى بحرارة

وقوة وحب للوطن مثلما عشت فى الوقت الذى كنت فيه بعيدا ... هناك فى باريس . حوالى سنة ١٩٢٦ — ١٩٢٧ .

كنت فى هذه الفترة لا أكاد انفصل وجدانيا عن صورة مصر . فكنت ابحث عن كل شئ مصرى زاهى اللون . لذلك وجدت نفسى فى هذه الفترة أكتب قصة قصيرة او صورة ذات لون . ذات لون مصرى فاقع وكانت عن « العوالم » وقد نشرت سنة ١٩٣٤ بعنوان « أهل الفن »

وحوالى هذا التاريخ أيضا — أى سنة ١٩٢٧ — ادى بى التفكير الى استعادة أعنف ما مر بى منذ ثمانى سنوات . أى فكرت فى ثورة مصر سنة ١٩١٩ . عادت الى وانا فى الغربة بكل عنف مشاعرها ... بكل ما فيها من ذكريات ... بكل ما حاطها من ظروف وملابسات . وفى الغربة — حيث يصبح كل شئ مجسما والمشاعر اشد احتداما والحنين فى أعلى درجة حرارة — هناك بدات اجسد هذه المشاعر الوطنية تجسيدا فنيا واقعيا . وكان هذا هو مبدأ عملى فى « عودة الروح »

واعتقد أننى لو كنت فى مصر ابان ذلك الوقت ، ربما لم أكن كتبتها . ربما كنت ظللت سائرا فى الطريق الذى سلكته أيام مسرح عكاشة . لأن القوة الشعورية او الشحنة الوجدانية التى تدفع الكاتب لأن يكتب عن بلاده لا يمكن ان تكون أشد توهجا مما تكون عليه فى الغربة كما قلت لك . عندما نصبح بعيدين نازحين عن اهلنا واصحابنا ... بل وقلوبنا !!

وسكت الحكيم وسرح كانه راجع الى باريس .. الى أحد مقاهى الشانزليزيه او متحف او مكتبة . وكاد صمته يطول . وكانت كفه مبسوطة على الورقة التى ما زالت امامه . فتأملت أصابعه الطويلة مرة اخرى وهتفت به استحثه على الكلام :

— عظيم ... عظيم جدا . لكن الذى حدثتنى عنه منصب على الموقف الشعورى للحوادث . بقى اذن أن تحدث قراء القصة لماذا اخترت قالب الرواية لهذه الأحداث . لماذا — مثلا — لم تجنح الى صب هذه الأحداث فى مسرحية أو أقاصيص ؟!

وبدأ الحكيم يتكلم بحماسة :

— الغربة أيضا هى التى جعلتنى أصب هذه المشاعر فى قالب الرواية دون سواها من الأنواع الأخرى ! !

واعتقد ان العجب قد بدا على وجهى لهذه الاجابة لأن توفيق الحكيم استطرد فى ابتسام من يبرر موقفا :

— هل تذكر الضرورة التى أحس بها من قبلى الدكتور هيكل مؤلف قصة زينب وهو فى فرنسا ؟ هذه الضرورة الفنية الحت على أنا كذلك واحسست بها . فقد وجد كل منا قالب الرواية شيئا مهما جدا فى الآداب العالمية . ولم يكن فى ادبنا

العربى أهم من الشعر والمقالة . وذلك حدا بالدكتور هيـــكل أن يغار على بلده ويحاول ان يمنح أدبنا قالب الرواية عندما كتب « زينب » ... هكذا احسست . عاودنى نفس الشعور . شعرت كذلك أننى منـــدوب لمهمة وان على واجبا قوميا ووطنيا وهو أن أساهم فى خلق البداية التى تحتاج الى المؤازرة والتدعيم .

كان حقل الرواية مقفرا ـ باستثناء هيكل والمازنى والأيام لطه حسين التى واكبت هذه الدفعة ـ وثلاث روايات ليست بالشيء الكثير اذا كنا نطلب أساسا للرواية العربية ونبحث عن خلق نهضة روائية ... أليس كذلك ؟

قلت : بلى ! ! وكأنما يخيل الى أنك كنت (ملتزما) مرتين . مرة باختيـــار الموضوع الوطنى ومرة باختيار القالب الفنى . فأنت باختيـــار الموضوع الوطنى قد أعطيتنا قصـــة وطنية كانت أنموذجا للجيل اللاحق وباختيار النوع الأدبى قد دعمت مطالب احتياجنا الفنى فى أدبنا الى « الشتلة » الجديدة التى كان لابد لها من الرعاية والســـعى لـكى تنهض دوحة جنب دوحة الشـــعر المقالة . تلك هى شجرة القصة .

فقال : نعم . قلت :

ـ العمل الروائى والعمل المسرحى يختلفان فى طبيعة تكوينهما . وهما أيضا يتطلبان طبيعة معينة فى كاتب كل منهما . وبما انكم قدمتم فى هذين النوعين أعمالا فذة فحدثنا عن طبيعة المعاناة الفنية فى كتابة الرواية وكتابة المسرح .

ـ بدات بالقالب المسرحى لاعتبـــار يتعلق بى . هذا الاعتبار هو أنى أحب دائما (للأشخاص) أن يصوروا نفسهم بنفسهم . بل انى اجد مشقة وضيقا فى أن أصورهم انا بنفسى . والفرق بين الكاتب المسرحى والكاتب الروائى هو أن الروائى يحدثنا عن شخصياته واصفا اياهم بالمحيط أو الجو أو الملامح ... ملامح الوجه أو البدن .. فهو اذن خالقهم وخالق اجوائهم ومنازلهم وتفصيلات حياتهم بحيث اننا نكاد لا نعرف كيف كان يمكن ان يعيشوا لو لم يتدخل الروائى فى حياة هؤلاء الأبطال فيحركهم ويعريهم ويلبسهم ويصنع لهم سماءهم وأرضهم ... بل وطعامهم وشرابهم .

ضـــحكت مع توفيق الحكيم وقلت : هو اذن خالقهم وحائكهم وطبـــاخهم وساقيهم ؟ !

واستطرد الحكيم ضاحكا : بل وربما ولدهم وراقب أولادهم واحفـــادهم وانشغل باله بمصايرهم جميعا . فالروائى فى الواقع بالنسبة لابطاله (قاضى لهم) .

واعتقد ان كل روائى كريم ســـخى بفطرته . فتحت يده كمية من الورق والزمن لا يحاسبه عليهما احد . كلمات واسطر يستطيع أن ينفق منها بلا رقيب . أما المسرحى فهو بطبيعته (مقتصد) .. جدا .. ويمكن ان اقول : الى حد البخل. فهو لا يستطيع ان يترك اشخاصه يتكلمون الا بحساب . وبالفعل ... انا يريحنى

كثيرا ان اترك اشخاصى يتكلمون هم ويعبرون عما يريدون ولا احاول ان اعاونهم بشىء الى درجة انى فى مسرحياتى كلها لا اثبت (تعليمات) تدل على وصفهم بالدقة او اعمارهم أو ملابسهم . كل هذا اتركه للمخرجين يوضـــحونه اذا ارادوا فاذا نسوا لا اذكرهم به .

ــ شيئا من الايضاح أيضا لو سمحت عن مدى علاقتك بأبطال مسرحياتك ؟

ــ كل همى معهم أن الاحظ عدم ثرثرتهم أو طغيان أحـدهم على الآخر . ولابد أن أذكرهم بأن (الزمن محدد) وبأنه (باقى من الزمن كذا) ...

ثم ألقى توفيق الحكيم نظرة على الحجرة الواسعة كأنما اراد أن يســتريح قليلا قبل أن يلقى ببصره الى السؤال التالى :

ــ فى الاحاديث التى قدمتها القصـــة للدكتور طه حسين والعقـــاد ــ ذكر كلاهما انه كان ممكنا أن يحظى النقد منكم بمجهود مخلص ، بصفتك خلاقا واسع الاطلاع ــ فما الموانع التى حجبت ذلك عنا ؟ !

ضحك توفيق الحكيم ... هل تعرف الضحكة التى ترفض طلبا ما ؟ ! . وتبادلنا النظرات ... وابتسم ثانيا ، وتحول الى شخصية (محقق) ترك كرسى السائل الى كرسى المسئول .

انه ــ كما قلت ــ لا يحب أن يخدش ثمرة فى حديقة جاره لأن ذلك يعنى خدش ثمار فى حديقة داره . لكنه ما لبث أن هز رأسه وقال :

ــ طيب ... اه ... النقد لم يأخذ منى فعلا عناية كافية لأنى اعتقد أن هناك نوعين من النقد : النقد الصحفى السريع للأعمال المعاصرة أو غيرها مما يمكن أن ينشر فى صحيفة يومية أو اسبوعية ، للتعريف بالأعمال الأدبية فى أدبنا أو آداب غيرنا ــ وهذا قد وجدته متوافرا وممارسا على خير الأيدى من أدباء يحتلون أماكن دائمة فى الصحف والمجلات .

وكنت فى فترة كبيرة من حياتى غير متصل اتصالا دائما بالصحف فوجدت انه من الأنفع أن اكرس جهودى لأعمالى الفنية .

أما الجانب الآخر من النقد وهو الدراسات الجادة فانها تحتـاج الى حياة كاملة واوقات واسعة وعمل متخصص ومجالها فى رأيى لأساتذة الجامعات المتفرغين لهذا النوع وهذا يخرج أيضا عن دائرة عمل الفن .

اذن كل ما استطعت أن أفعله هو ما يسمى بالنقد الانطباعى الشخصى الذى يصور آرائى الخاصة فيما اقرأ وما أحب أن أعلق عليه من الآثار الفنية عموما فى الأدب أو الموسيقى أو الفنون التشكيلية . وتجد امثلة منه فى كتبى : « تحت شمس الفكر » و « فن الأدب » و « ادب الحياة » وربما أيضا « زهرة العمر » .

وبهذا التواضع والزهد تكلم الحكيم عن النقد ... مع أنه من أشد الأنواع

الأدبية استحوذا على قلوب الناس .. من كل سن .. لأن الناقد قاض لا تعينه الدولة ولا تعزله ...

ورأيت بعد ذلك أن أسال الحكيم سؤالا عاطفيا أدبيا فى وقت واحد . وكان السؤال — كما قلت — مكتوبا أمامه .

— حياتنا الأدبية بلا « عباس محمود العقاد » فى رأيكم .

وظل الحكيم صامتا . وعبثت يده بالورقة . وحولت بصرى عنه فرأيت على يسارى مصباحا كبيرا منطفئا .. كان ملاصقا لكتفى اليسرى وموضوعا على المكتب . وعدت أنظر الى الحكيم الذى كان محملقا فى فضاء الحجرة بنظرات يملؤها الأسى .. وأخذت بشرة وجهه لونا شديد الحمرة .. كان يرثى العقاد فى صمت بليغ . من ذلك الصمت الناطق الذى يتغلغل فى أعماق العصب كما يتغلغل أعلى صوت . وكدت أقول له : لنترك هذا السؤال لأنه — فيما يبدو — كان شديد الوطأة على قلبه . لكن توفيق الحكيم تكلم فى هذه اللحظة بصوت خافت فيه شرخة لا تكاد تحس ... كان صوته كأنه ينبعث من خلال جهاز شديد الذبذبة . وكان ذقنه ملامسا صدره فرأيت جبهته تحت (البيريه) الكحلى التقليدى الذى عكس فى وضاءة فضية شعره . وبدأت أكتب ما يقول :

— أخشى أن تفقد حياتنا الأدبية بفقد العقاد روحها المنشط .. حياتنا هذه التى اعتادت أن تلتمس عند العقاد هذه الحيوية الدافقة كلما أحست شيئا من الركود . لكن ... حسبنا أن روحه فى كتبه وآثاره ستظل دائما باقية .

ثم رفع الحكيم رأسه فجأة كأنه فرغ من صلاة . وبدأت علامات الأسى تتراجع شيئا فشيئا عن ملامحه ثم انتقل الى السؤال التالى :

— كتبت مسرحيات ذهنية ومسرحيات واقعية ومسرحيات ربما تمثل مدرسة اللامعقول . فهل ترى أن يعبر الكاتب ثم ينتمى الى مدرسة أو ترى العكس ؟ !

— من الطبيعى ... أو من المعتاد على الأقل فى كثير من الآداب أن ينتمى الكاتب الى مدرسة . أما فيما يختص بى أنا ... فانا لا أستطيع الانتماء الى مدرسة واحدة بعينها لأنى أتلقى كل أنواع الفنون بـ .. بـ ..

وسكت وقال بعينيه واشاراته « بوعى » ثم استطرد فى ابتسامة :

تمر هذه الأشياء (بطاحونتى) ولا أدرى بعد ذلك ما الذى يحدث . ولذلك فانه من الصعب جدا — أحيانا — أن تضع لافتة دقيقة على نوع مسرحية أكتبها الا اذا كان ذلك على وجه التقريب . فنقول : انها تجنح الى الذهنية أو الى الواقعية أو الى اللامعقول . ولكن اذا أمعنت النظر بدقة فى هذه المسرحيات فانك لن تجدها منطبقة تماما على قواعد أى مدرسة تنسبها اليها كما تعرف هذه المدرسة عند (نقادها) لأن الذى يحدث ويجب أن يوضع موضع الاعتبار هو أن كل أنواع الفن

عندما تمر فى هذا (الجهاز) الذى نسميه (فلانا) فانها تخضع لتحولات مختلفة تتصل بالطبيعة الخاصة لهذا الجهاز بحكم بيئته وظروف حياته ودرجة حرارة ارضه ووطنيته ومشاعره ... اليس هذا طبيعيا ؟ !

قلت : ذلك طبيعى لكن هل من الممكن أن نعرف رأى النقاد الأجانب فى هذه الأعمال عندما ترجمت للغات أخرى . وهل يطابق رأيهم رأيكم فى هذا الصدد ؟

فقال الحكيم :

اقول بعد تجربة انى كنت اعتقد أنى متأثر بمدرسة ابسن او ماترلنك فى المسرح او وايلد مثلا . ولكن عندما ترجمت بعض أعمالى عجبت من ان النقاد فى انجلترا او فرنسا لم يذكروا كلمة او اشارة لتأثرى بهؤلاء الذين كنت أعتقد — ولا أزال — أننى تأثرت بهم .

واخذت أفكر فى السبب الذى جعلهم ينظرون الى هذه الأعمال كما لو كانت بعيدة عن هذه المدارس . كما قال الناقد الفرنسى الكبير « روبير كمب » عضو الأكاديمية الفرنسية — قال :

« انه لا يستطيع أن يضع لافتة معينة تحدد الى أى مدرسة أدبية تنتمى اليها مسرحية مثل (شهرزاد) » . وقال « جان جوتييه » ناقد الفيجارو عن شهرزاد نفسها : « لعلها تنتمى الى نوع من الشعر والشعور الشرقى البحت »

كل هذا ادهشنى لأنهم لم يتحدثوا عن رمزية ماترلنك او اوسكار وايلد فى مثل هذه المسرحية . فما تعليل ذلك ؟

واستطرد الحكيم :

— لابد اذن أن (الجهاز) الذى له ظروفه السابق ذكرها قد أجرى تحولات كيميائية جعلت العمل الفنى ينتمى فى الجانب الأكبر منه الى (ذات الجهاز) بصرف النظر عن المؤثرات الخارجية الأجنبية التى لابد أن (يتغذى) بها كل جهاز .

من ذلك كله أريد أن أخلص الى شىء عام لا يتعلق بشخصى وهو انه لا يجوز مطلقا أن نهمل ذلك الذى أسميه الجهاز الخاص لكل فنان

قلت : ليس أى فنان . بل لابد ان يكون فنانا أصيلا مثلك .

فابتسم وكأنه لم يسمع كلمتى . واستطرد : لابد أن تذكر هذا عندما نتحدث عن المدارس الأدبية التى تأثر بها الفنان . ان التأثر بالمدارس الأدبية شىء طبيعى جدا بل ان التأثر بأى شىء هو وظيفة كل فنان لأن الفنان ما هو الا (احساس يتأثر) .

لكن يبقى بعد ذلك أن نتساءل : ما الذى يجرى لهذا التأثر ... هـذا هو المهم .

الذى يجرى للتأثر هو نفس ما يجرى عنـدما نجمع القطن من الحقل كمادة خام ثم ندخله المكابس والمصانع . لا شك أن المصانع قد استوعبت القطن . ولكن ليس المهم ان نقول : ان المصنع قد استوعب القطن . بل المهم ان نقول : ما الذى فعله هذا المصنع بهذا القطن ؟ !

هذا هو جوهر الموضوع . وهنا سيكون الجواب :

ــ ان طبيعة هذه الأجهزة فى المصنع قد حولت القطن بألوانه المختلفة واشكاله من تيلة قصيرة الى متوسطة الى طويلة ومن مصرى الى أمريكى الى هندى ــ قد حولته الى ملابس مختلفة الألوان والانواع .

لذلك تجـدنى دائما احب ان امتحن نفسى ... أعنى اجهزتى ... او مصنعى ... فأرى ماذا يستطيع ان يفعل عندما ألقى فيه بالخامات . مجرد حب استطلاع . وان شئت سمه عدم ثقة فى الجهاز فأنا دائما أضعه موضع الامتحان. فألقى فيه (بالمدارس المختلفة) التقليدية والجديدة والتجريبية وارهقة واقول له : « أرنى الآن ما الذى سيخرج منك »

وعندما يخرج شيئا ما أكون أنا أول المسترييين بقيمته لأننى ممتحن شكاك . ولذلك كن على ثقة بأنى لن أخصص هذا الجهاز لنوع واحد على مدى الانتاج . فلا التقليدى ولا الجديد ولا اللامعقول سيكون هو صاحب السلطان الدائم على هذا المصنع .

المهم . ان هذا الجهاز سيظل موضع امتحانى الى ان تقف تروسه .

نظرت الى الحكيم وأنا ريان بكل ما قال . وجعلتنى كلمته الأخيرة أنتفض فى خوف على الكنز . فقلت : أستغفر الله ! ! ... ان جيلنا يحبكم كثيرا . انه يرى فى الذين مهدوا له الطريق أوصافا جميلة لا تحصى ... منها أنهم منارات . ومنها .. أنهم ثروة قومية .. ومنها أنهم مصنع أفكار ... ان جيلنا يحب آباءه ويدعو بطول العمر للذين تعبوا فى جلب الطعام ... لأرواحنا !!

كان الوقت يتقدم والساعة تدلف نحو الثالثة وخفت ان اكون قد أفسدت عليه مواعيد يومه فألقيت اليه بسؤال لم يكن مكتوبا :

ــ ماذا تقترح أن تقدم مجلة « القصة » لقرائها ؟

ــ أرجو أن تكون مجلة القصة « مرصدا » لمناخ القصة العربية أى انها تتنبأ باتجاهاتها ... بما تراه من الموجات او المنخفضات بتعبير محطات الأرصاد .

فتقول مثلا : اننا نرى موجة واقعية معتدلة او منحسرة . أو تقول : ان هناك

انخفاضا جويا فى مستوى الرواية العاطفية او الاجتماعية . أو أننا نعيش فى درجة حرارة عالية من التيار التحليلى النفسى ... وهكذا .

فضلا على انها موجهة فى نفس الوقت . ترشد الكتاب كما ترشد المنارات السفن الى الشاطىء .

واحب ان اقول بهذه المناسبة : يجب ان تتجه القصة على أيدى الشبان الجدد الى ما أسميه (التوثيق) أى ان تكون القصة وثيقة يعتد بها لتجربة نفسية او اجتماعية او بيئية او قومية . فلا تكون مجرد قصة متخيلة بلا عمل مستمدا من خبرة الأديب الفنان الشخصية .

ونحن لا يهمنا نوع الخبرة . فالمعول على صدق التجربة النابعة من شخص لا يمكن لأحد غيره أن يمنحها . ونتيجة ذلك أن تكون القصة الريفية ناتجة من ريفى حقيقى . والتى تصور المصنع من كاتب عايش حياة المصنع لا تخيلها فقط . وهذا هو ما أسميه بالوثيقة .

قلت للحكيم : زدنا ...

فقال : نحن ينقصنا الأدب (المتحرك) أو (المتجول) أى الأديب الذى يخرج عن حدود بلده ليرتاد جهات مجهولة فى وطننا او بلاد غيره . يدرس ويكتب . كما يفعل اليوم « جراهام جرين » وغيره فى انحاء العالم .

ويجب أن نبدا بمسح أرض بلدنا . يجب اولا ان يكون عندنا لنا اعمال فنية حقيقية كالوثائق الصادقة . مثل الحياة فى سينا او الواحات .

تصور معى رواية يكون اطارها الواحات واشخاصها من أهاليها ... بما فيها من جمال طبيعى وعواطف عجيبة . لا شك أن هذا شىء ممتع . لكن .. لابد أن يكون كاتبها قد عاش بالفعل حياة عميقة طويلة هناك الى الحد الذى يستطيع معه أن يستخرج عملا له جذور . أما النوع السريع فلا فرق بينه وبين الريبورتاج الصحفى . ولن يكون هذا هو المطلوب .

عندما هممت بالنهوض خيل الى بأن الحكيم يستبقينى . لكن ذهنى كان قد كل وهو يتابع وثباته الوضاءة .

لم أحس بالجوع ... فهل كان ذلك نتيجة لغذاء نفسى ؟ !

ووقف يودعنى عند الباب .. وادعا .. متواضعا .. ويحذرنى فى رفق ورقة من أن اكتب شيئا لم يقله ..

هذا الرجل الذى يرى أن خدش ثمرة فى حديقة جاره تعنى خدش ثمار فى حديقة داره ــ ملىء بالفن والرقة والحساسية .

ونزلت درجات سلم « دار الاهرام » وأنا أتمنى أن أعود اليه .

مكتبة القصة

"ادجار ألن بو" دراسة ونماذج من قصصه

للدكتور أمين روفائيل

نقد بقلم : محمود تيمور

من مطالعة وافية لما أنتج « بو » خلال حياته القصيرة الخصبة ، ومن احاطة شاملة بما كتب المؤرخون فى سيرته ، وما تناول به الناقدون أدبه وفنه ، وفى ضوء كفاية متخصصة قادرة على فهم جوانب الموضوع ، لا تعوزها أسباب الموازنة والترجيح وفى أسارب متزن ، تتوافر له السلاسة والنصوع ، الى الاصالة فى انتقاء الالفاظ المعبرة ، والمواضعات النقدية الواضحة — قدم لنا الأستاذ الدكتور « أمين روفائيل» دراسة مستفيضة لأديب يعد صائغ القصة القصيرة فى شكلها الحديث ، وأول من نظر اليها على انهـا لون مســـتقل من الوان الأدب ، هو القـــاص الأمريكى : « ادجار ألان بو » ، وكذلك قدم المؤلف مع الدراسة ترجمة ثلاث قصص نموذجية .

وليس هذا الكتاب من طراز كتب التراجم التى تتبع مراحل الحياة الشخصية تتبعا يقوم على أحداث تاريخية مجردة ، ويعول على أرقام وأسانيد ، وفيه تتزاحم نقول وشواهد ، ولكنه بحث أدبى رفيع ، وجهد موضوعى عميق ، ينفذ الى الصميم من عمل « بو » ، فيكشف عن خصائصه ، ويستخلص حقائقه ، ويستبطن أسراره ، ويجلو ذلك كله فى صورة جميلة سهرت على تنسيقها خطة مدروسة فى احكام ودقة ، هدفها ألا تعرض حياة الأديب فى مراحلها الماضية ، بقدر ماتعرض فنه موضوعات حية نابضة باقية .

والاستاذ الدكتور « أمين روفائيل » أديب يحب « بو » ولكنه لا يحابيه ، فقد التزم الأمانة فى العرض ، والعدالة فى الحكم . انكر على المؤرخ الأول لسيرة « بو » أنه أسرف فى اتهامه ، وشط فى التنديد بأخلاقه وشـــيمه ، وأراد التشـــهير به والتشنيع عليه . بيد أن مؤلفنا مع انكاره ذلك عرض ماكان «لبو» من أخلاق وشيم ، فى منحى لا يجنح الى شنعة وتسوىء سمعة ، واجتنب فى الوصف والتقرير كل تعبير فيه حموضة او غضاضة ، ورد كل خليقة الى مناشئها من ملابسات الحياة ، ووقف بها عند حدودها فى غير اسراف ولا عدوان .

ينقل لنا المؤلف أن ذلك المؤرخ الأول لسيرة « بو » رسم له صورة مشوهة بالافتراء ، منوثة بالمثالب ، رماه بالحسد ، ونكران الجميل ، والضيق بمن يخالفه .

والاستعلاء والغرور وعداوة الناس ، الرغبة فى الظهور والامتياز ، وبأنه سكير فاجر لا حظ له فى صلاته بالنساء من حياء أو احتشام · ولا يحفل بما يمليه الشرف والضمير ··· فاذا مضى بنا المؤلف فى تحليل حياة « بو » وتعليل ماقيها قال فى مواضع شتى من كتابه : « ان صدره كان يحتدم بالسخط لشعوره بأنه لم ينل من الجزاء ماكان يستحقه ، وأن الشدائد التى لاقاها روت بذور علله النفسية التى بذرت فى طفولته ، وقد ظهرت أعراض هذه العلل فى خصاله وأخلاقه ، فهو قلق ، تدفعه شدة حساسيته الى المشادة والخصام ، منقسم على نفسه ، متقلب المزاج ، عطوف رقيق الشمائل، صلف متهور سريع الغضب، منهوك الأعصاب قليل الأصدقاء ، سيء الظن بالناس ، يتسلط عليه ارتياب مرضى بهم ، وقد بدد قواه بانسياقه للشراب فى الحالات الوضـيـعة · وجعل يتنقل بحبه من امرأة الى اخرى · احب شـاعرة متزوجة ، ثم أحب من عنيت به بعد موت زوجته ، وتوله بشاعرة تكبره ، وفى الوقت نفسه كان شديد الكلف بامرأة أخرى ، ثم جدد آخر الأمر علاقته بحبيبة صباه · وان قصته «وبليام ويلسون» التى تصور ضمير الاثم مصدرا للقلق والعذاب وليست فى حقيقة أمرها الا صفحات من حياته النفسية ، فهو لم يكتبها على أنها قصة ، ولكنها اعترافات فى صورة رمزية ··· »

وهكذا لم يغفل باحثنا الأديب من سلوك « بو » ماقد يشينه ، حين تناول طرفا من حياته ، ولم يهمل من فنه مايؤخذ عليه ، وهو يحلل أعماله · ومع ذلك وفق كل التوفيق فى أن يحملنا ــ فيما قدم من تحرير سيرته ، وتقويم فنه ــ على أن نقدر الرجل قدره ، ونستشعر له فيما امتحن به الرثاء والاشفاق ·

افتتح المؤلف كتابه بطرف من سيرة « بو » ثم أجمل نظريته فى الشعر ومانظم منه ، وعرض بعد ذلك تحوله الى القصة ونظريته فيها ، ثم عقد فصلا فى صناعة بو للقصة ، ولكن يستغرق بهذه النواحى جميعا الا نحو النصف من الكتاب ، واستقل النصف الآخر بعرض وتحليل لبعض القصص فى جوانبها المتعددة : التعذيب والانتقام ، والحالات المرضـيـة ، وتأثير الاثم فى النفس ، والموت ، والكشـف عن مشكلات مستغلقة ·

ويلخص المؤلف نظرية « بو » فى الشعر بأن التعبير الموسيقى خاصة أساسية فيه ، وأن غايته المتعة غير المحددة ، اى المتعة التى ليس مصدرها التصريح والمعانى الواضحة، فالشعر قوامه التلميح والايماء · واذا كان العقل غايته الحقيقة، والضمير شغله الواجب ، فالشعر لا يتصل بالتعليم والأخلاق ، بل يتصل بالروح التواقة الى الجمال ، والمقصود بالجمال هو الجمال السماوى المثالى الذى يحسه المرء فى نشوة من عالم أكثر بهاء وروننقا من العـــالم المرئى · ولما كانت المنظومة مهمتها أن تهيج الروح ، لزم أن تكون محدودة ، لأن ألوان الاهتياج الرفيع قصيرة عابرة · والعمل الأدبى ليس فيض العبقرية ، بل هو عمل منظم مروى فيه ، فالشاعر ليس برجل ملهم ، بل هو صانع ذكى ، من صـــفاته التروى واحتمال الجهـــد ويقظة الفكر · ويصارحنا المؤلف بأن « بو » صاغ نظريته فى الشعر متأثرا بما نظم منه ، فالمنظومية

الغنائية القصيرة هى التى برع فيها ، والموضوعات التى ينادى بها هى الموضوعات التى كان بها مشغوفا .

ثم يبسط المؤلف نظرية « بو » فى القصة القصيرة ، فهى تقوم على مبادىء وأسس جمالية ، أهمها : أنه يكره لها أن تكون أداة لتقويم الاخلاق والعقول ، أو أن تطابق الواقع ، فانها لا تحمل رسالة اجتماعية أو مغزى أخلاقيا ، ولا تقدم شرائح من الحياة ولكن غرضها أن تترك فى نفس القارىء أثرا محددا ، فمعيار العمل الفنى هو الهدف الذى يحققه ، والأثر الذى يطبعه ، بما يثيره من شعور الخوف والاستشباع أو مايشبه ذلك من مشاعر . وعناصر تهيئة الأثر عنده هى الأحداث المفزعة . والشخوص ، والأمكنة بما حوت من ابنية ومناظر والوان واضواء واستار ، والوسيلة الى انفاذ ذلك ليس الاستلهام من الملأ الأعلى ، بل اتقان الصنعة ، والتاليف بين العناصر . وحصر الانتباه لغرض والرسم الواضح المتماسك للعمل الفنى .

ويشرح لنا المؤلف كيف أن صاحبه « بو » قد التزم ذلك كله فى قصصه فنجح فى بناء الجو ، وحقق التكامل بين العناصر ، واوتى قدرة على اضفاء مسحة الحقيقة على التجارب الغريبة ، حتى لنصدق المحال حين يقدمه . وتميز اسلوبه القصصى باستهلال له ما لرنين جرس يبعث الانتباه ، كما تميز بحرص على التركيز . وقيد نفسه فى الشخوص بعدد محدود ، وفى الأمكنة بأضيقها ، وفى الأحداث بما هو قليل .

ويقول المؤلف فى التعليق على نظرية « بو » فى القصة فى صفحة ٧٥ : « انه لم يكتف باستنان قواعد نظرية ، بل ذهب وراء هذا الى التزامها ، على عسرها ، فى عدة قصص أثبت فيها صحة تلك القواعد ... » وهذا القول يشعر بأن استنان القواعد سابق على تاليف القصص ، ولا أحسب ذلك صحيحا على اطلاقه ، والمؤلف يشير فى غير موضع من كتابه الى أن « بو » متأثر فيما قعد للشعر ، وفيما شرع للقصة ، بما نظم وما كتب ، وأنه كان مهيأ بطبعه وأحداث حياته ، وبميوله ومنازعه ، لما جرى به قلمه . وقد رأينا المؤلف فى شرح نظرية « بو » فى الشعر ينادى بأنه صاغها متأثرا بما نظم منه . أفليس من الحق أيضا أنه صاغ نظريته فى القصة متأثرا بما كتب من ألوانها ؟

وقد وصف لنا المؤلف عالم « بو » فى أهم أنواع قصصه ، وهو نوع « القصص القوطية » ، فقال فى ص ٦٥ :

« أنشأ فيما كتب منه عالما غريبا موحشا حزينا ، لا تهب فيه نسمات الحياة ، ولا تكاد أشعة الشمس تسطع عليه ، فلا تراه فى معظم الأحيان الا فى جوف الليل البهيم ، أو عصر يوم من أيام الشتاء ، أو خلال يوم ساكن فى الخريف تحت سماء ملبدة بالغيوم — عالم تتوارد فيه أحداث خارقة ، تتحدى العقل وسنن الطبيعة ، فنسمع هتافات من وراء الغيب ، ونشهد موتى يبعثون من القبور ، وأرواحا تحل فى غير أجسادها وتقع فيه أفعال بالغة القسوة ، بعيدة عن تجاربنا اليومية ، تشبه تلك

التى تتفزع منها فى كابوس ثقيل ، وهو عالم تستعر فيه روح الانتقام ، ويؤرقه وخز الضمير ، ويتفاقم فيه المرض : مرض الجسد والروح والعقل ، ويجوس شبح الموت ... »

وهذا الوصف يسم فن « بو » بميسم خاص ، يبعد به عن أن يكون فنا طليقا شاملا صادقا على الحياة والأحياء ، فى المستوى العام . ولكنه مع ذلك يبقى مستقلا متميزا بما فيه من جوهر انسانى صحيح . وقد أحسن المؤلف حين ألمع الى هذا الجوهر بقوله فى خاتمة كتابه ص ٢٣٥ :

ينثر فى قصصه ما يدور فى رأسه من خواطر وتأملات جادة حول الحيـــاة ، تصورها ـ بما فيها من بؤس وألم وتغير واضطراب ـ مأساة من جميع وجوههـــا ويصور فى الناس الأنانية والمخادعة ، والقسوة والعوج والالتواء .

ويبدو أن حرص المؤلف على دقة القوالب التى أفرغ فيها فصول كتابه ، اضطره الى ادماج خطوط عريضة من البحث فى مجراها الطبيعى ، ولو أفرد لها مكانا مستقلا لوجد فيه للقول مجالا أوسع ، ومن ذلك استطراده الى خاصة الرمز فى شعر « بو » ونثره ، وذلك فى عرض التحليل لقصة «سقوط بيت أشر » . وكذلك استطراده الى تصوير « بو » لنسائه متشابهات غير متنوعات ، وتعليل هواة علم النفس لهذا فى ضوء منهج «فرويد» ، وذلك فى عرض تحليل ما كتب « بو » من قصص الموت .

ولعل قارئنا العربى كان يرتقب أن يتجه المؤلف بجانب من بحثه الى تأثر «بو» بتراث الشرق فى الأدب والثقافة ، فقد كانت القصص والأساطير الشرقية مصـــدر الهام وايحاء له فى مثل قصة «الموعد» التى تنقل لنا الجو الواضح لقصر من قصور «ألف ليلة وليلة» ، وان كثيرا من الصور والمشاهد والتشابيه التى حفلت بها قصصه المستوحى من مصادر عربية بخاصة أو شرقية بوجه عام ، ولا يفوت قارىء أن يلمح الصلة بين تمثيل نور الله فى آيات من «القرآن» وتصوير «بو» لتلك التى سـماها «هيلانة» ووصفها فى احدى قصائده بأنها من عالم قدسى ، تمثال فى مشكاة متألقة ، بيده مصباح ، رمز للحسن الكامل ، حسن الاهة من عالم آخر ، تحف بها هالة من الجمال والاشراق السماوى .

واما ترجمة الدكتور امين روفائيل للنماذج الثلاثة من قصص « بو » : الموعد ولايجيا ، ووليام ويلسون ، فهى على نحو ما عهدناه منه فى المجموعة القصصية التى أخرجها قديما : «شجرة التفاح» والمجموعة التى أخرجها حديثـــا : «سبع قصص» يلتزم جاهدا أن يقدم لك الاصل فى دقة الناقل الامين ، ولكنه مع ذلك يمتعك بأداء عربى مبين .

محمود تيمور

الينبوع

بقلم

ابراهيم المصري

كان الشيخ « آني » رجلا ورعا تقيا، مشهورا في مدينة طيبة بالعلم والحكمة كما كان مشهورا في صناعة تلوين القماش . وكان يعيش في قرية نائية ، ويسكن بيتا متواضعا صغيرا ، وينفق سحابة نهاره في مطالعة الاسفار القديمة، أو الكتابة على ورق البردى ، أو مزاولة مهنته التي يحبها ، والتي كافاته بنت فرعون على تفوقه فيها بان منحته قلادة ذهبية تحمل رسم الاله آمون .

وكان اذ يعكف على عمله ، يبدا بتنظيف قطع القماش ، ثم يغمسها في مواد ممتصة معينة ، ثم يلقى بها في مرجل ، فتخرج القطع بعد فترة وجيزة ملونة تلوينا رائعا .

والعجيب في أمره انه كان لا يضع في المرجل غير لون واحد فقط . ومع ذلك فالاقمشة كانت تخرج مختلفة الالوان بفعل المواد الممتصة التي استخدمها .

والحق انه كان يهوى الحكمة بقدر ما يهوى فن تلوين القماش ، وكان يرى في فن تلوين القماش رمزا لاختلاف صور الحياة وتنوع أحداث الزمن . لذلك كان يعشق فنه ، ويمعن في اجادته ، ولا يفضى أبدا بأسراره الا لطائفة مختارة من أصفيائه ومريديه .

ففى ذلك المساء الصيفى الرقيق الذى تضوعت نسماته كالعطر وانتشرت في مدينة طيبة ذات المائة باب ، كان الشيخ آنى قد فرغ من عمله ، وتربع على حصيرته ، ومضى يقلب في اهتمام أسفاره وكتبه ...

وانهمك في البحث والمطالعة فترة ، ثم رفع رأسه الاشيب ، وحدق بعينيه المستديرتين الحادتين الى صفيه ومريده المفضل الشاب « انوبيس » الذى كان يتطلع اليه ملهوفا ويلهث ..

واتأد الشيخ وتسارعت دقات قلبه ولكنه ابتسم . ابتسم ابتسامة متهللة وظافرة، ثم مال الى الشاب فجأة، وقال في صوت واضح المخارج باتر النبرات:

ـ أنا واثق ... واثق يا بنى مما ذكرته لك ! .. الكتب القديمة التي وضعها أسلافنا لا يمكن أن تكذب . ولقد قرأتها جميعا . قرأتها بامعان . ولقد كان في وسع غيرى أن يهتدى الى مااهتديت اليه أنا . ولكن الناس لاصبر لهم على العلم . وهم يتعجلون المعرفة ، ويؤثرون الأخذبالرأى الشائع على البحث

عن حقيقة جديدة فذة يتفوقون بها على أنفسهم، ويفرضون بوساطتها سلطانهم البشرى على هذه الحياة .. وأنا يابنى أشعر أبلغ شعور وأعمقه ان أوزيريس قد رضى عنى، وان العلم قد استجاب لصبرى، وانى قد كشفت النقاب عن سر عظيم، وأصبح فى مقدورى ان أفرض سلطانى على حياتى، وان أصوغ من جوهرها مادة فرح ونعيم ! .. ولكنى يا بنى شيخ فى السبعين، انهك العلم بدنى، واستنفدت الايام عصارتى، ولم يعد فى جعبة قواى سهم واحد أصوبه الى هدفى وأحقق به الكشف العظيم الذى اهتديت اليه ! .. فاليك أنت، أنت تلميذى ومريدى وأحب الناس الى، أفضى بدخيلة نفسى، وأميط النقاب عن سرى، وآمل أن يتحقق حلمى يوما على يديك ! ..

فانحنى الشاب أمام أستاذه فى احترام، وتناول طرف ثوبه الابيض وقبله، ثم صاح وهو يرتجف :

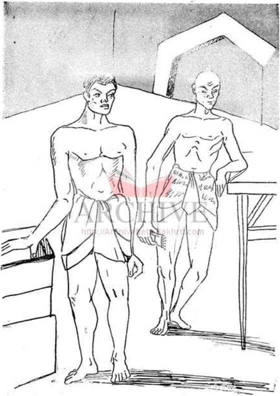
— تكلم ... تكلم يا مولاى .. وثق أن ارادتى لن تنفصل أبدا عن عقلى، وان هذه الارادة التى أذكيتها أنت بنار فكرك، ستظل وفية لوحيك، تتبعك وتطيعك، وتؤمن بان الحقيقة الكبرى تصدر عنك وتتمثل فيك !

فحدق اليه الشيخ مرة ثانية، ولمعت عيناه، وتماوجت الغضون الكثيفة فى وجهه المشرق . فلم يتمالك نفسه وطوق الشاب بذراعه وهمس فى أذنه وهو يختلج :

— يا انوبيس الحبيب ... انصت ... لقد اهتديت ... اهتديت الى سر السعادة .

ففغر الشاب فاه ولم يفهم . فاستطرد الشيخ :

— أقول انى اهتديت الى سر السعادة ... كشفت لى عنه كتب أسلافنا ... سر السعادة .. أتفهم ؟ ... السعادة الارضية التى ينشدها الجميع ويتهافت الكل عبثا عليها ... فأرهف السمع يا انوبيس واجعل من أذنك فما ظامئا ومحموما .. لقد عثرت ... عثرت على كتاب قديم .. قديم وفريد .. كتاب يقول صاحبه ويؤكد ان فى مدينتنا .. فى مدينتنا هذه ... فى طيبة الكبيرة المقدسة .. ينبوع ماء .. ينبوعا صغيرا .. خفيا .. يكمن فوق ربوة صخرية عالية مندلعة كالسهم، ينهض بجوارها كوخ مهدم ... هذا الينبوع ياانوبيس يتفجر بماء قراح .. ماء سحرى باركته الآلهة .. ماء لو شرب منه الانسان ولو رشفة واحدة، لم يعرف الرغبة الجامحة، ولاالشهوة العاتية، ولا الطمع القاسى، ولا ذل الفقر، وخيبة الحب، وحسرة المرض، ولوعة الفراق ساعة الموت ! .. رشفة واحدة من ذلك الينبوع يا انوبيس تغمر العقل حكمة، والبدن صحة، والقلب راحة، والنفس ايمانا وصفاء ونشوة ! ... هذا هو الكشف العظيم الذى اهتديت اليه ... وأنا لم أفض به اليك أنت، أنت يا انوبيس، الا حبا فيك، وايثارا لك، وثقة فى ارادتك، ويقينا من ولعك بالتفوق والاستعلاء والبحث عن كل حقيقة فذة اينما وجدت ! .. فاذا كنت حقا ذلك المريد الذى وضعت فيه أملى، واصطفيته ابنا لفكرى وروحى، فاحزم أمرك يا انوبيس منذ الساعة واذهب ... غادر قريتنا ولا تلتفت الى الوراء ... لاتفكر فى أهلك الذين يحبونك ولا فى



خطيئتك التي تحبها .. ضع الهـدف العظيم نصب عينيك واذهب .. اضرب على الفور في احشاء المدينة وأطرافها ، وابحث عن الينبـوع واشرب منه ... اشرب من مائه القراح ، وعش، وتفوق، وكن سعيدا ! ..

فذهل الشاب وتولته رعدة • لبث لحظة ساهما شاردا مأخوذا ، يتفرس في أستاذه الشيخ تارة ، وينعم النظر في كلامه أخرى ويتأمل ..

وخلبته روعـة الكشـف العظيم • فتمثل الربوة العالية ، والكوخ المهدم ، والينبوع الصغير • وتصور نفسه وقد عب في ذلك المـاء السحرى المقـدس ، انسانا لاتزعجه الغرائز ، ولا تنال منه الكوارث ، ولا يقوى عليه قانون الحياة• انسانا فـذا خارقا ، صافيا محلقا ، راتعا في سـعادة كسـعادة الأرباب • فاستبدت به اللهفة ، وأخذته الجرأة ، وملكته حماسة الشباب • فلم يتردد ، ونهض واثبا وهتف :

ـ سأجوب المـدينة كلها ! .. لن يقر لي قرار حتى أتغلغل في كل ضاحية، وانفذ الى كل قرية ، وأخترق كل درب وكل زقاق ! .. فامنحني بركتـك يا أبت ، واتل صلاتك اليوم من أجلي • ابتهل الى الآلهة جيعا عساها ان تكلأني بعين عنايتها وتقويني وتنصرني !

فبسط الشيخ ذراعه على رأس مريده وقال :

ـ أيها الثعبان « أباب » يا رمـز الفطرة الضـعيفة ، والخـوف والتردد والشر وجميـع النقـائص المتأصلة في أعماق الجسـد ، انعقد على نفسـك ، وانكمش في حسرة عجزك ، وانسـحق

تحت قـدمي انوبيس ، ومت قبـل أن تصيبه باي أذى ! ..

فتهلل وجه الشاب ، وعانق أستاذه في صمت • ثم تقبل منه البركة وهـو يرتعش ، ثم لثم يديه وأطـراف ثوبه وفتح الباب وخرج ..

***

خـرج وهو مبهـوت • خـرج وهو منجذب وتائه ... وكان يحب أهله ، ويقـدس بل يعبـد خطيبته الحسـناء « تايا » ، ذات الرقة الشائقة ، والملاحة الفاتنة ، والخفر العذب الآسر الخلاب • فنازعته نفسه أن يعصى أمر أستاذه ، وأن يذهب أولا فيـودع أهله ويـودع الفتاة • ولكنه خاف من عواطف القربى، وارتعد فرقا من حنان الحب • أحس انه لو أبصر أهله فلا بد أن يتردد ، ولو التقى بتايا الجميلة فلا بد أن يبـكى ويعدل عن الرحيل• فلم يشأ أن يضعف ويخيب أمل أستاذه فيه • فلاذ مسرعا باللهفة التي كانت مستحوذة عليه وطفق يحدق .. يحدق الى حلمه الخارق فقط ... وكان حلم السعادة يبهر عقله ، وطيف الينبوع يحتل فكره ، وخيـال الصفاء الرائع المنشود يضرم في بدنه وقدة الحمى ، ويحمله على أجنحة من نار ونور ..

وأبى أن يرى أحـدا ، أو يخاطب أحدا ، أو يفكر في أحد •

وبدل أن يسـلك طريقه اليومي ، ذلك الطـريق الشرقي المؤدي الى داره ودار خطيبته ، غالب نفسه مااستطاع ، وأهاب بارادته وعزمه ، وسلك الطريق الغربي المعـارض المفضي الى قلب مدينة طيبة ذات المائة باب • وهناك تنكر في

زى درويش خشـــية آن يعـرفه أهله وصحبه، ثم تزود بشىء من الخبز والجبن والفاكهة ، وحمل جعبتـه على ظهره ، وانطلق يضرب فى ارجاء المدينة ٠٠

شرع يسـتفسر ويبحـث ويتغلغـل ويجوب ٠٠

شـده المجهول الى جـواده الذهبى الجـامح ، ثم أحاله الى طائر من تلك الطيور النازحة التى لاتعرف فى هجرتها الوناء ٠ أسـكرته الحـرية ، وفتنـه التشرد ، وملك عليـه قلبه وحواســه تعقب السر ومطاردة الحلم ٠٠

كان يقف تجـاه الشـمس الساطعة ويهتف بهـــا قائلا : « ان اوزيريس العظيم هو انت يا خالقة الحياة والسرور ويا سيدة الارباب ٠ فهل استطاع أن أسير كما تسيرين بدون توقف ؟ ٠٠٠ وهل فى وسعى آن أخترق الفضاء مثلك فى لحظة ؟ ٠٠٠ أعيفينى أيتها القوة الدائمة الوجود واشفقى على! ٠٠٠ »

ومضى يتضرع الى الشمس المعبودة ويمشى٠٠ لم يترك ضاحية الا وهبطها، ولا قرية الا وسلكها ، وزقاقا أودربا الا وارتمى فيه٠ ولكنه لم يعثر على الينبوع

لم يعثر على الينبوع ولم ييأس فى الوقت نفســه من العثور عليه ٠ كان يعلم ان الجهاد يجب أن يكون على قدر الغاية ٠ فعاد يضرب فى المدينة كأنه لم يعرفها ، وعاد ينبش بطنها العامر واحشاءها المثقلة، معللا نفسه باستحالة الفشل بعد طول الجهاد ٠

وظل يبحث ويستفسر ويمشى ٠٠٠ ظل يقـاوم ويكافح ويخاطب الشمس ويستصرخ اوزيريس ٠٠٠

ولـكن الايام تعاقبت ، والاشـــهر ترادفت ، والسنين انصرمت ، وانوبيس كان مايزال يمشى ٠٠٠

لم يضـق ذرعا بصبره ٠ لم يتبرم فترة بجهاده ٠ كان يشتغل تارة حمالا ، وتارة حطابا ، وأخرى فلاحا أجيرا أو حارسا على المذاود أو صوامع الغلال ٠

وكان يتعطـل الاسابيع بطولها فـلا يتململ ، بل يشد حزامه على بطنه ، ويظل متنقلا من شارع الى شارع ، ومن ضاحية الى أخرى ، هائما على وجهه ، ممعنا فى طوافه ، يستفسر مرة بعـــد مـرات ، ولا يفتـأ يستفسر ويبحث ويمشى ٠٠

وقاسى مرارة الفقر والجوع والذل ، ثم أعياه البحث وأضناه الطواف ، فرزح تحت وطأة الزمن وهو لا يدرى ٠٠

ابيض شعره، وهزل بدنه، واحدودب ظهره ، واستقطر منـه حلمه الغاشـم عصارة القوة والشباب ٠

أحس ان الحظ قد خانه ، وان الزمن قد أكله ، وانه قد استحال من قناص الى فريسة ٠ فهاله أمله الخائب ، وصباه الضـائع ، وجهاده الباطل ، وانتابته ضربة من الحسرة المخامرة أوشـكت أن تبتليه بمس من خبال ٠٠٠

أيقن ان أستاذه الشيخ قد مات وهو ينتظره ٠ فاسودت الدنيا فى عينيه ، وتخبط وانهار عزمه ، وفكر مكرها فى الخضوع والتسليم ٠

أراد أن يرى تايا حبيبته ٠٠ ان يكر راجعا الى بيته ٠٠٠ ان يقبع ساكنا فى ظلمة جحره وآن يقر هونا ويستريح ٠ ولكنه لم يستطع ٠ عز عليه أن يتقهقر٠ كبر عليه أن ينهزم بعد أن أراق دم العمر كله فى الجهـاد ٠ فاستمسـك

بكبره ، وتشبث بعزمه ، وعاد يجوب أنحاء المدينة ، ويبحث ويستفسر ، حتى ضج الناس منه ، واسترابو بعقله ، وأوصدوا أبوابهم فى وجهه ، وشرعوا يذيعون انه مجذوب ومجنون ٠

وخشى بالفعل أن يجن ٠ فارتعدت فرائصه ذعرا ٠ فطوى قلبه على حلمه مقهورا ، وطاطأ الرأس صاغرا ، ثم تحامل على نفسه ذات مساء ، وودع المدينة الكبيرة الغادرة ، واتجه نحو قريته ، وسلك الطريق القديم ٠٠٠ الطريق الشرقى ٠٠ الطريق المؤدى الى بيته وبيت تايا ٠٠٠

وظل يمشى الساعات الطوال، متوكئا على عصاه ، حاملا جعبته على ظهره ، يستجدى ربات البيوت بعض كسرات من الخبز ، ويفكر فى تايا الجميلة ، ويذكر أهله وصحبه ، ولا يدرى من منهم قد بقى حيا ، ومن منهم قد تعب وتضجر ومات ٠٠٠

وأناخ عليه الليل وهو يمشى ٠ فأحس انه مجهد منهوك ٠ فأراد أن يحط رحاله تحت شجرة ٠ ولكن الليلة كانت صافية ، والنجوم لامعة ، والنسيم عذبا رخيا ٠ فأنعشه الجو وأثمله ٠ فاندفع واستطرد المسير ٠

وشيئا فشيئا ، وعلى ضوء القمر الساطع ، لاحت أمامه القرية التى نشأ فيها ، والبيوت التى عرفها ، والحقول والبساتين التى شاهدت فجر حياته ٠ فخفق قلبه وأنعم النظر أيضا ٠ فلمح بيته ٠٠٠ داره ٠٠٠ داره العزيزة الصغيرة الأليفة ٠٠ وبالقرب منها الدار الفسيحة الاخرى ٠٠٠ بيت الفتاة الشائقة الحسن تايا، التى كانت بالامس خطيبته وأصبحت اليوم ولا ريب زوجة رجل سواه ٠٠

وشخص الى الدار الفسيحة لحظة وغمغم : « أتراها ماتزال هنا أم انها ذهبت لتعيش فى كنف زوجها ؟ ٠٠٠ كيف هى الآن ، وكيف هم أولادها ، أولادها الذين كان يمكن آن يكونوا اليوم أولادى أنا ؟! ٠٠٠ »

وانهمر الدمع من عينيه٠ ولأول مرة، لأول مرة منذ طفولته السحيقة النائية ، تشجع وانسل الى البستان الصغير الفاصل بين بيته وبيت الفتاة ٠ ثم دنا من بيتها ، ودار حوله ، واقتحم الارض الفضاء حيث ينهض الجناح النسوى الذى كانت تعيش فيه تايا وأمها وأخواتها ، والذى كان محرما عليه وعلى أى غريب ان يدنو منه ٠

اقتحم تلك الرقعة من الارض الفضاء التى غابت معالمها عن ذهنه والتى لم يرها الا وهو طفل ، ثم اتجه نحو الجناح النسوى ، وأشرأب بعنقه الى احدى نوافذه ٠ فألفاها مفتوحة ٠ فتطلع اليها وملأ نفسه الأمل فى أن تكون حبيبته هنا ، وان تكون مستيقظة ٠ فيستطيع أن يلمحها قبل أن يتحول ويدخل داره ٠

واذ ذاك ، وبينما هو جاثم فى تلك الرقعة المحرمة ، يتطلع الى النافذة المفتوحة ويلتقط أنفاسه ويرتجف ، سمع صوتا بعيدا ٠٠ صوتا خفيفا ٠٠ صوتا غريبا رتيبا لم يسمعه أبدا ٠٠٠ صوتا ترامى اليه من أقصى الارض الفضاء التى لم يعرفها ، وصافح أذنيه فى غمغمة تشبه الهمس أو الوسوسة أو الانين ٠٠٠ فانصت لحظة وهو يرتعش، ثم أرهف السمع أيضا وقلبه يخفق ،

ثم تراجع بغتة مسلوب العقل طائر اللب ، اذ تأكد ان الصوت البعيد القريب هو صوت خرير ماء ٠٠٠

ولم يكد يتأكد حتى أسرع وتحول عن النافذة ثم استدار واندفع كمعتوه ٠ ضرب في الارض الفضاء ، واتجه نحو منطلق الصوت ، وطفق يعدو في ضوء القمر الساطع ، مجتازا حقلا صغيرا لم تطأه قدماه ، ومخترقا أشجار كثيفة لم يكن يعلم بوجودها فى تلك الناحية ، ومتعقبا جهده مرمى الصوت الرتيب الخفيض الذى كان ما يفتأ يوسوس له كأنه يدعوه ٠

وفجأة ، وعلى ضوء القمر ، وفى هدأة الليل الزافر ، أبصر نفسه فى مكان غريب ، مكان موحش مهجور ، مكان تنبثق فى زاوية منه ربوة ٠٠٠ ربوة صخرية عالية٠٠ ربوة مندلعة كالسهم، ينهض بجوارها كوخ مهدم ! ٠٠ فحدق انوبيس الى الربوة وجمد ٠ حدق اليها وصعق ٠ لمح الينبوع ٠٠٠ لمح الينبوع يهدر فى قمتها ويتفجر منه الماء ٠ فجحظت عيناه دهشة وذهولا ، وانفطر قلبه فرحا ولوعة ، وأيقن وهو يرجف ان هذه الربوة هى التى حدثه عنها أستاذه، وان الينبوع، ينبوع السعادة، الينبوع الذى قضى العمر كله فى البحث عنه ، كان هنا ٠٠٠ على مقربة منه ٠٠ فى متناول يده ٠٠ بجوار بيته وبيت حبيبته تايا ٠٠٠ ومع ذلك فقد اختبل عقله ولم يفهم ٠٠ لم يشأ أن يفهم ٠٠٠ عز عليه أن يفكر ويفهم ٠٠٠ ثار غضبه واستنكاره وحنقه ٠ وبكل ما أوتى من قوى الحسرة ، بكل ما أوتى من قوى الكمد واللوعة وارادة الثأر لعار اليأس وذل الهزيمة ، صرخ وهو يتحفز : « أعنى يا اوزيريس ! ٠٠٠ »

وارتمى على الربوة كوحش كاسر وشرع يتسلقها ٠

وأنشب أصابعه فى الرمل والصخر وهو يزمجر ٠ فأعمى الرمل عينيه ، ومزق الصخر يديه وركبتيه وقدميه ٠ ولكنه صعد ٠٠٠ صعد وهو يلهث ٠٠٠ صعد وهو يجأر ٠٠٠ صعد وأبصر الماء ٠٠٠ أبصر الماء السحرى المقدس يتفجر هادرا من قلب الينبوع ٠ فمد يده ، يد الكهل الضامرة ، يد الكهل المرتعشة الدامية ، وحاول ان يمس الماء ٠٠ وفى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة المنشودة المروعة ، وقبل أن يستشعر طراوة الماء الحى ويهم بأن يغترف منه ليشرب ، ماج الكون فى عينيه ، وطوح به دوار مظلم ٠ فتشبث بالصخر جهده ٠ ولكن الدوار استغرقه وختم على بصره ٠ فتصدع فترة وترنح ، ثم خارت قواه ، وانفرط الرمل تحت قدميه ٠ فأرسل صرخة ممزقة ، وهوى من حالق ، وسقط على الارض يتخبط فى دمه ! ٠

وظل يحدق الى الربوة لحظة ثم حول بصره الى الفضاء الاصم الجامد ، ثم رفت عيناه البائستان المقهورتان، واختلج اختلاجا عنيفا وأسلم الروح ٠

واذ ذاك ، وقع شىء عجيب ، شىء خارق ، شىء لم يكن فى الحسبان أبدا ٠٠٠ خفت صوت الينبوع ، ثم اختنق هديره، ثم تحول ماؤه فجأة عن مجراه ٠ وطفق الماء يتسلل ويتلاقى ، وينسكب خيوطا فضية رقيقة على جثة البطل الصريع ٠٠٠

قروية من بيت صفافا

بقلم : د . اسحاق موسى الحسيني

لقد حاولت ألف مرة ان أمحو صورتها من ذهني فلم أستطع ، لا لأنها صورة بشعة ، ولكن لأنها تثير في نفسي مشاعر عجيبة . ترى لو كنت عرفتها كما عرفتها أنا أتستطيع أن تنساها ؟ .

كانت قروية من (بيت صفافا) القرية القريبة من بيتي . كنت أراها كل صباح تحمل على رأسها جفنة كبيرة مثقلة بالخضرة والفواكه ، تدور بها على البيوت المجاورة في حي (البقعة التحتا) ، بائعة متجولة وتلك عادة القرويات الفلسطينيات اللواتي يقطن القرى المجاورة للمدن . الرجل يفلح الأرض والمرأة تبيع الثمار .

وكانت ذات قامة فارعة ، وجسم مكتنز باللحم ، ووجه مستطيل ترتسم عليه أخاديد عميقة ، ويدين كبيرتين خشنتين ، وثوب أزرق طويل ، وحذاءين قديمين أحاطت بهما الرقع من كل جانب .

واعتدت كل صباح أن أنهض مبكرا أعلف الدجاج والحمام وأسقي الأزهار في الحديقة . كان لي بين هذه المخلوقات الصامتة أصدقاء كثيرون . كنت أتفاهم معها دون أن يتكلم أحد منا . كنت أتفاهم مع الدجاجة بعينيها . وربما تعجب اذا قلت ان حديثا طويلا كان يدور بيننا دون أن ينطلق من أحدنا صوت . هل حاولت أن تتأمل عيني دجاجة في أثناء حياتها ؟ حاول ذلك . سترى في عينيها حديثا . تأملها وهي تقبل عليك لتتناول الحب من يدك ، وهي تنقر الحب . وتأملها وهي تدعو فراخها . تأملها وهي تدور حولها . تأملها وهي تدور هنا وهناك قبل أن تلقي بيضها . واذا كنت لا تفهم حديثها ، فأنت الملوم لا هي .

وكنت أفهم حديث الوردة وهي ترفع رأسها رويدا رويدا في الصباح ، وهي تزيد احمرارا كل يوم ، وهي تمتص الماء من التراب ، وهي تتمخض عن بنيات حولها ، وهي تحني رأسها قبيل الغروب وهي تستر وجهها بالأوراق قبل أن تنام .

في الطبيعة أصدقاء كثيرون . ولافرق بينهم وبين الأصدقاء الآدميين الا النطق ولا اكتمك اني أحب الصمت ، وأحبه كثيرا جدا . وأوثره على النطق . وربما كان هذا هو سبب صداقتي للقروية ، أو من جملة الأسباب التي ربطتني بها .

كانت تضع أمامي الجفنة وتقول لي :

اختر ما تشاء • ثم تصمت • ولا تعود الى الكلام الا حين أسألها عن الثمن •

ولكن مع الأيام زاد عدد كلماتها • وفهمت منها بعد أشهر أنها تربى ولدين يتيمين خلفهما لها زوجها الذى مات فى ذروة شبابه دون أن يترك شيئا سوى رقعة صغيرة من الأرض وبيت صغير مؤلف من حجرتين ، احداهما للنوم ، والثانية لتخزين الحنطة والشعير والبصل وما اليها مما تنبته الأرض •

وتركزت حياتها كلها فى شيئين اثنين لا ثالث لهما • استثمار الأرض بأوسع ما يمكن الاستثمار ، وتربية الولدين ليصبحا رجلين يملآن عينيها وقلبها بعد الفراغ الذى تركه زوجها •

وكانت تكافح فى صمت • تخرج كل يوم بخضرها وفاكهتها ، وتعودظهرا أو قبيل الظهر حاملة بعض حاجياتها من السوق •

ولم أحاول أن أتتبع حياتها فى القرية • ولكنى أستطيع أن أتخيل كيف تقضى أيامها ولياليها • فحياة القرية بسيطة • وهى نسخة مكررة من كتاب واحد • واذا قرأته مرة لم تعد محتاجا الى قراءته ثانية •

ودارت الأيام وصب اليهود النار على القرية ليمحوها من الوجود ، كما محوا عددا من القرى العربية الآمنة • و (بيت صفافا) مجاورة لمستعمرة يهودية صغيرة اسمها (نيكور حاييم) • بل ان بعض بيوت القرية متداخلة فى المستعمرة وبالعكس •

ولم يحترم سكان المستعمرة حرمة الجوار التى يحترمها جميع الخلق • ألم يرد فى كتابهم : « •• وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما » ؟ ألم يسميهم غلاظا آثمين حين قال : « اذكر عبيدك ابراهيم واسحق ويعقوب • لا تلتفت الى غلاظة هذا الشعب واثمه وخطيئته » ؟

وكنت أسمع من بيتى أصوات المدافع الصغيرة والبندقيات ، وأشاهد لهيب النار • وكان من الطبيعى أن أفكر فى هذه القروية وولديها • ترى ماذا أصابهم ؟ هل هم أحياء ؟ وكيف يعيشون بعد أن انقطعت المواصلات بين القرية الوديعة والمدينة ؟ •

وفى فجر أحد الأيام قرع باب بيتى قرعا عنيفا • فهرعت الى النافذة استطلع الخبر فاذا القروية بقامتها الفارعة ووجهها المستطيل ذى الأخاديد • ففتحت الباب واذا هى لا تحمل شيئا • واسترعى نظرى ، بدل الجفنة التى اعتدت رؤيتها ، ثوب جديد وحذاءان جديدان •

ظننت أنها زوجت ولديها • فقد كانت تحدثنى عن قرب زواجهما فى المدة الأخيرة ، وعن سرورها لبلوغهما سن الرجولة ، وعن اعدادها للزواج ، وعن ترك البيت للولدين يسكن كل منهما حجرة ، وتنام هى فى الصيف على السطح ، وفى الشتاء فى حجرة صغيرة استطاعت أن تبنيها مع ولديها ، وتضع فيها دجاجتها والشاة الوحيدة التى تملكها •

وبادرتنى القروية بصوت أجش عميق •

ــ أتعرف قائد المنطقة المسئول عن المجاهدين فيها ؟ •



ـ نعم ، أعرفه ٠

ـ أتستطيع أن ترشدني اليه ؟ ٠

ـ أفي هذه الساعة ، وكل من حولنا وما حولنا نائم ، حتى الطيور والأزهار؟

وتأملت وجهها مستطلعا خبرها ٠فلم يكن من عادتها المبادرة بالكلام ٠ وحين صمتت قلت لها :

ـ وماذا تريدين من القائد ؟

ولمع في عينيهـــا بريق كالشرر ٠ وأطرقت برأسها ولم تتكلم ٠ وحينئـــذ قلت :

ـ أليس من حقى أن أعرف السبب في هذه الظروف ؟ ٠

ـ أرسلنى اليه بعض المجاهدين في القرية برسالة عاجلة ٠

ـ وما الرسالة ؟ ٠

ـ يؤسفنى ألا أستطيع أن أزيد ٠

ـ وكيف وصلت الى هنا ؟ ٠

ـ تســـللت من وسط الأشـــجار وزحفت على يدى بعض الطريق ٠

ثم صمتت ٠ وأدركت أن من العبث اســـتدراجها ٠ فاخرجت ورقة وكتبت عليها عبارة موجزة للقائد الذى كان ينام في منزل طبيب بالقـــــرب من منزلى ٠ ودفعتها اليها ٠ فذهبت مهرولة ، ولمعان الثـــــوب والحـــــذاء ين يخطف بصرى ويدهشنى ٠

ومرت ثلاثة أيام واطلاق النار متصل والقرية العربية المجاهدة تقابل النـــــار بالمثـــــل ٠ ولم أكن أخرج الا نادرا ٠ وكانت حوانيت الحى تفتح بضع ساعات ليتسوق السكان ثم تقفل ، ويغشى الحى صمت رهيب ٠ ثم تستيقظ ألسنة النار كأنها شياطين هاربة ، ويدوى صـــوت الرصاص متتابعا حينا ومتقطعا حينـــا آخر ٠ ويضع كل انسان يده على قلبـــه متسائلا : ترى كم شهيدا حصد اليوم؟ وفي مساء أحد الايام قرع البـــاب واذا بقائد المنطقة ٠ فادخلته وجلسنا نحتسى كوبا من الشاى ٠ ورأيته صامتا على غير عادته ٠ ووددت أن أســــمع منه خبر القروية قبل كل شيء ٠ولكنه لم يذكرها واضطررت الى سؤاله :

ـ هل وصلتك رسالتى مع القروية ؟

وصمت وأطرق برأسه ٠ ففهمت أن شيئا محزنا قد حدث ٠ ترى أهو من الأسرار الحربية ؟ وأخيرا فتح فمه ٠

ـ أتعرفها من قبل ؟ ٠

ـ نعم ٠

ـ منذ كم سنة ؟ ٠

ـ منذ سنوات ٠

ـ أتعرف ولديها ؟ ٠

ـ لا ٠٠ ولكنى سمعت منهـــا بعض أخبارهما ٠

ووقف القائد ونظر من النـــــافذة وقال :

ـ أترى تلك البقعة من الارض ؟ هنا يرقد الولدان وأمهما ٠

ثم صمت ٠٠ وتولانى ذهول وصمت

ـ وكيف ؟

ـ كانا يقـــــاتلان دفاعا عن القرية ببندقيتهما واستشهدا في وقت واحد٠ وأخذ زملاؤهما البندقيتين وأحضروهما لى ٠ وجاءت أمهما من قبلك تطـــــالب

بالبندقيتين باعتبارهما ملكا لها • وأعطيتهما لها • ولم يدر فى خلدى شيء مطلقا • فمن عادة القرى ـ كما تعرف ـ أن تحتفظ بسلاحها ولا تفرط •

وتوقف قليلا ثم أتم •

ـ أتعرف ماذا حدث بعد ذلك ؟ حملت البندقيتين وتوجهت الى البقعة التى سقط فيها ولداها ، ونامت على الارض ، وأخذت تطلق النار وحدها ، تتصيد الآثمين المعتدين ، واستطاعت أن تسقط حارس البرج ، فقد رأيناه يهوى • اذ لم يكن يتوقع المفاجأة بعد أن توقف القتال وشرع كل فريق يجمع قتلاه وجرحاه • وظلت تطلق النار حتى قتلت فوق جثتى ولديها • انهم جميعا هناك • انهم خمسة • شابان وأم وبندقيتان •

ونظر القائد الى البقعة ثم التفت الى وقال :

ـ لو روينا هذه الحادثة لظنها الناس قصة خيالية • أليس كذلك ؟ •

ووقف الكلام فى حلقى كقطعة من صخر • واستمر هو :

ـ لقد محى بيت من بيوت القرية • وهذا ما يبغون • لأنهم لا يقاتلون كى يحكموا • ولكنهم يقاتلون كى يمحوا أمة من الوجود ليضعوا مكانها أمة أخرى • لو أن القروية أخبرتنى بنيتها لكنت أعددت معركة انتقامية • ولكنها لم تصبر • كان الدم يغلى فى جسمها كما يغلى الماء على النار •

وصمت القائد وضغط فكيه ثم عاد ببصره الى البقعة ونظر نظرة طويلة ثم التفت الى فوجدنى أحملق ، أسبح فى خيالى لا بداية له ولا نهاية ، وقال :

ـ ماذا يدور فى رأسك ؟ •

وايقظنى سؤاله من حالة تمزق قلبى تمزيقا ، وقلت :

ـ فى رأسى سؤال كبير •• ولكن ليس هذا وقت سؤاله •• أريد أن أعرف منك لم كانت تلبس الثوب الجديد والحذاءين الجديدين فى ذلك الصباح ؟ لم تلبسهما قبلا •

ـ وماذا تظن ؟ •

ـ الذى أعرفه أنها كانت مقبلة على ترويج ولديها • ثم فقدتهما ولباسها الجديد بعد فقدهما يحيرنى •

ـ وأطرق القائد ثم قال :

ـ أرادت أن تحتفل باستشهادهما • كانت أعدت الثوب والحذاءين للعرس • فاستعملتها فيما هو شبيه بالعرس عند القرويين • أليست هذه عادة العرب أيضا ؟ •

واستولى علينا صمت طويل •

نجم معين

متولى

للكاتبة الامريكية
بيرل بك
ترجمة
عمر فاروق حسنى

استيقظ فى فجر ذلك اليوم من أيام عيد الميلاد ، ولفترة وجيزة لم يستطع أن يتذكر آين كان ثم زحفت حرارة الطفولة الى ذهنه النعسان • لقد كان هنا فى مزرعته ، فى منزله القديم ، وفوق رأسه سقف غرفته القديمة بكتله الخشبية المهشمة • لقد كان بالأمس وبالأمس فقط ، حينما أصر على العودة الى البيت على هذا الوجه ولقد نفذ عزمه على الرغم من الثورة الاجماعية المكبوتة من جانب أسرته ، فقد صاحت ابنته آن « ولكن يا أبى ، أتذهب للمزرعة الآن ؟ فى ليلة عيد الميلاد ؟ » •

وقد كان احتجاجها مصحوبا بغضب متطاير الشرر فقابلها بغضب مثله قائلا « لقد مرت سنين عديدة دون أن أطلب أى شىء منكم » •

ونطق ابنه قائلا « عندى موعد يا أبى » •

فأجابه فى حزم « سوف تلغى موعدك يا هال » •

واستدار عن ولديه الصامتين ، الغاضبين الى زوجته هيلين وقال لها : « لقد ذهب عيد الميلاد عن هذا المنزل » •

فابتسمت فى صبر وقالت : « لقد اعتدت على تصريحاتك الكبيرة، ياعزيزى •• وبقيت الأمور على ما هى عليه تقريبا منذ انتهاء الحرب ، لكن كل شى قد تغير ، وهذا ما لا مفر منه » •

فقال فى اصرار « ان الأساسات لا لا تتغير ، ونحن يجب أن نعود الى كياننا كعائلة وسوف أعد السيارة فى ظرف ساعة » • وكانت صيغة الأمر ظاهرة فى نبرات صوته • فقد تعود على تولى القيادة أثناء الحرب • ولم يكن شأنه الآن أقل من ذلك فى هذه السنين التى تجرى فيها أبحاث الذرة على وجه مستمر • فقد كان معتادا على الطاعة فى معمله الكبير من جانب العلماء ولم يمكث ليسمع المزيد من الاحتجاج فى منزله • واذا كانوا يعلمون تمسكه بالمواظبة الدقيقة فقد تجمعوا فى ظرف ساعة ، وفى سكون تام ، استعدادا للرحلة الطويلة الى المزرعة •

حسنا ، لقد أطاعوه على الأقل • وها هم هنا معا ، بعيدين أميالا عديدة عن مواطن الرقص الى ساعة متأخرة والشرب الكثير • وعما يمقته من ألوان العبث المتلافة • ولقد كان ذلك يوم عيد الميلاد • وخلال هذا اليوم سوف

يستعيدهم الى جانبه مرة أخرى بالتأكيد، لأنه كان قد فقدهم بطريقة ما خلال هذه الأعوام التى كان منقطعا فيها الى عمله ٠



ان اسمه وشهرته، أرنولد ويليامس، العالم فى أبحاث الذرة ، أحد الثلاثة الأعلام فى العالم ، تلك الحقيقة تغلبت عليهم ــ بل تغلبت عليه الى حد ما ٠ فان علماء من كل البلاد كانوا يتجهون اليه طلبا للنصيحة والاقتناع ، وازاء سرعة ازدياد نمو العلم فقد اضطر الى تكريس كل وجوده لأبحاثه ٠

كان هذا واجبه طبعا ، أثناء الحرب عندما كانت تجاربه ملكا لحكومته ، ولكن الخط الفاصل بين الواجب ونشوة سرور النجاح فى العمل لم يكن بهذه الدرجة من الوضوح بعد انتهاء الحرب ٠

وبينما كان يواصل السير فى طريقه على حدة كان أولاده قد كبروا ، ومن المحقق أن هيلين أصبحت أكبر سنا مما كان ينبغى ، فولت البهجة القديمة المتبادلة بينهما ٠ وأمس ، فى منزله القائم على بعد مسافة يسيرة من معمله فى الجامعة ، أدرك فجأة أنه يكون من شأن مايجرى حوله ، وبالرغم من المشتريات التى تمت فى آخر لحظة ومن وجود شجرة صناعية ، لم يكن الجو جو عيد الميلاد ٠٠٠

لقد تذكر أن ، ابنته ، البالغة الجمال الدافقة الحيوية بعيدة عن المرح تندفع نحو التليفون ، ليخيب أملها على الدوام فانه لم يكن أبدا الصوت المنشود ٠٠٠ ولكن فلمن كان الصوت الذى تنصت لسماعه ؟ آه ، يا آن ، أيتها الابنة المحبوبة ، لقد كان من أجلها كل شىء ما أراده من العزلة اليوم مع عائلته ٠

وماذا عن النجم ؟ فى صباح أيام عيد الميلاد • عندما كان صبيا ينام فى هذا السرير ، كان هناك نجم معين يبـدو مرتفعا فوق مخزن الغلال • وكان يراه دائما عندما يستيقظ مبكرا عن عادته ، لكى يستطيع الاشراف على الانتهاء من عملية حلب اللبن قبـل أن يفتحـوا الابواب الى البهو الذى تنتصب فيـه شجرة عيد الميلاد • نجم عيد الميلاد . عندما فكر فى ذلك طوح بالغطاء وقفز من الفراش، يرجع أن يكون ذلك هراء ، فمن الجائز ألا يكون النجم هناك الآن •

وعندما كان يبحث عن ملابسه القديمة فى المخدع ، خطر له أنه (الى حد ما) كان ذلك النجم هو المسئول عن توجيه حياته ، فلقد أرشده الى السموات •

« ماذا تريد فى عيد الميلاد يا بنى ؟ » كان هذا هو السؤال الذى وجهه اليه أبوه عندما كان فى الرابعة عشرة من عمره •

فأجاب « اننى أريد منظـارا مكبرا (تليسكوب) » •

فحملق فيه أبوه ، فى حدة وفضول تنطق بهما عيناه الزرقاوان الصغيرتان القائمتان فوق لحيته الشعثاء •

وقال « ولأى غـرض » • فأجاب « لكى أنظر به الى النجوم » •

فتمتم أبوه ، بدون ارتياح كما كان يبدو ولكن فى صباح عيد الميلاد كان يوجد تحت الشجرة طلب لشراء منظار مكبر عن طريق البريد • وهـذه هى الهدية الوحيدة التى كان يريدها • ومع تلهفه على حلول الليل اضطر الى الانتظار حتى خيم الظلام • وعندئذ رفع منظاره الى عينيه وأمعن النظـر الى النجم •

ويالخيبة الأمل • لقد كان أكبر ، وأكثر لمعانا ، الا أنه مازال بعيدا كما كان على الدوام •

وفى اليوم التالى تطلع الى الشمس من قبيل التجربة المحضة ، ولدهشته رأى بقعا فوقها ، وأدى هـذا الى شراء كتاب ، للتعرف الى أسرار السمـاء ، وهكذا بدأ اهتمامه بالاشعة الكونية •

وها هو الآن يرتدى سروال التزحلق على الثلج ، وسترة من جلد الخـراف وحـذاء مبطنـا بالفراء وعنـد مغادرته الغرفة صفق الباب وراءه ، حينئذ بدا عليه الجزع ، وتمنى أن تكون هيلين قـد ظلت نائمة • ولو أنه أيقظهـا ، فلسوف تقابله بالحلم كما كان شانها معه فى الواقع منذ أن بدأت جولاته الغامضة (وهى التى بدأت منذ زمن طويل لأن نوبات الهامه المعروفة كانت تأتيه بالليل كما كانت تأتيه بالنهار) وجعلت محتوما عليه أن ينام بمفرده فانه لم يكن يطيق أية مقاطعة أثنـاء انشغاله بنظرية جديدة ولا يهدأ له بال حتى يفرغ من متابعتها • وفى اليـوم الذى تمت خطبتـه لهيلين قال لهـا « عندما تتزوجيننى ، فانت لن تتزوجى رجلا ، بل نوعا من •• من الوحوش » • وعندئذ ضحكت ولم ترد ، ثم حدث فى أحد الأيام أثناء الحرب ، عندما كانوا يقيمون فى احدى ثكنات لوس ألاموس ، أنها نظـرت اليه فى تفكير ، فسألها « ماذا تعنى هذه النظرة ؟ »

فقالت « من المحتمل أن تكون نوعا من الوحوش » •

ولكنه ضحك اذ ذاك ، ولكن الكلمات عادت اليه الآن وهو يخطو خارج باب المطبخ • وكان البرد حادا قارسا ، وزاد

من شدة وطأته أن المنزل كان دافئا ، اذ كان قد وضع به مدفأة بترولية منذ عدة سنوات عندما كان الأطفال صغارا ، ولكن عندما كان صبيا لم تكن سوى صفوف ضخمة من الخشب • وهى مازالت هناك ، على سبيل الذكرى ••

وفى أثناء سيره فى اتجاه مخزن الغلال كان الجليد يتهشم تحت أقدامه• وكانت السماء صحوا، والنجوم المتلألئة تلمع خلال الهواء الثلجى • ونظر الى أعلى ، منقبا بنظره فى السماء • هاهو نجمه يبدو بوضوح • فهاهو معلق فوق حافة سقف المخزن ، ليس بالضخامة التى كان يتصورها • ولكنه هو بالذات دون أى ريب •

لقد صورته الأعوام أشد ضخامة وأكثر رونقا مما هو عليه الآن • أو لعله كان كذلك بعين خياله فى عهد الطفولة • الا أنه كان هناك يتألق حقيقة فى ثبات ، كما كان يتذكره •

ووجدت قدماه الأخدود المألوف فى الممر تحت الثلج • وبينما كان واقفا فى الهواء الراكد غمره الاعجاب القديم ، الاعجاب بالكون • لقد عرفه منذ سنوات خلت ، من طريق النجم الوحيد • لقد فقده فى أثناء عجلة وثورة شبابه فى السنين التى كان يعمل فيها من أجل عيشه نهارا فى معمل خاص بصناعة كبيرة ، وفى أثناء عمله فى معمله الصغير ليلا • درس أسرار أشعة الشمس المتفجرة ، وكان ينتهز فرصة أجازته الشحيحة ليقوم برحلاته التى كان يحج فيها الى أينشتاين فى ألمانيا وزاذرفورد فى انجلترا • وبين التردد والاقدام ، جال بعيدا عن هذا المكان المتواضع الذى يقف فيه الآن ليحملق مرة أخرى فى النجم فى صباح عيد الميلاد • ولقد كان رجلا معتدا بنفسه محبا للجدال الى اليوم الذى أصابه فيه الرعب وحلت به مذلة جديدة عندما تكشفت له نواة الذرة فى مكان خفى فى الصحراء • طاقة لا حد لها تجمعت فى شكل فى منتهى الصغر لدرجة أن الأعين لاتستطيع رؤيتها • نعم ان هذا النجم الذى حملق فيه الآن تولى هدايته فى حياته •••• وماذا بعد ذلك ؟ أين سينتهى به الطريق بعد صباح هذا العيد ؟

وفجأة ارتجف وتذكر أنه كان واقفا فى الثلج حتى منتصف ساقه • فقد سقط أثناء الليل هذا المسحوق الناعم الذى كان يكسو كل الفروع والأغصان، وكان الهواء الذى يهب من البحيرة باردا ثلجيا • واستدار فى تردد وعاد أدراجه الى المنزل ودخل الى المطبخ •

كان النور مضاء عندما فتح الباب وكانت هيلين واقفة أمام موقد الجاز ملتفة فى رداء الحمام الصوفى الأحمر تعد القهوة •

وقال وهو يقبلها فى وجنتها « عيد ميلاد سعيد » • وسألها «هل أيقظتك؟» فقالت وهى تدلك خدها « انك بارد كرجل الثلج ، انك لم توقظنى فانى لم أستطع النوم » •

هل استغرق عيدالميلاد كل حواسك؟

هزت رأسها قائلة : « اننى لا أنام جيدا كما اعتدت من قبل » •

وأحضرت قدحين الى المائدة وصبت فيهما القهوة ، وسألته « هل تريد تناول طعام الافطار الآن ؟ » •

قال « كلا ، ولكنى سأتناول القهوة الآن » •

وجلسا ، وأخذت ترتشف قهوتها ببطء في حين أنه ابتلع جرعة ساخنة .

وقال : « ما أطيب هذا ـ لقد كنت أشعر بالبرد طوال الطريق » .

وسألته « ماذا كنت تفعل في الخارج في مثل هذه الساعة ؟ » .

فأجابها « ماذا تقولين لو علمت بأنني خرجت لمشاهدة نجم ؟ » ..

فقالت « لقد مضى زمن طويل منذ كنت تهتم بالنجوم » .

ونظر اليها ، ورآها تبدو متعبة تعبا بالغا هذه الزوجة الرقيقة وقال « قد كان من الأفضل لو لم نحضر للمزرعة . فلعله كان في ذلك مشقة أكثر مما تحتملين، ألا تشعرين بأنك على مايرام يا هيلين ؟ »

فأجابته « أنا بخير ـ ولكن الأمر لا يعدو التقدم في السن على ماأظن » .

ـ « هذا هراء . أنت قلقة بشأن شيء ما » .

ونهضت لكي تحضر المزيد من القهوة وقالت « لقد سمعت آن تبكي في أثناء الليل » .

فنظر اليها بذهول وقال « وماذا يستوجب البكاء من آن ؟ » .

فأجابته قائلة « انهما لا يقولان أي شيء . أنت تعلم أنهما الآن لا يتفوهان بأي كلمة . فلا يدري الواحد ماذا يجرى في خاطر أي شخص » .

والقت عليه نظرة حزينة غريبة لم يدر كنهها .

فقال مذكرا اياها « لقد بدت آن راغبة في الحضور الى هنا أمس ، بل لقد كانت راغبة في ذلك أكثر من هال ـ الذي كان مرتبطا بموعد رقص أو بشيء من هذا القبيل » .

فأخذت تحرك قهوتها وهي تفكر وقالت « انه ليس من شيمة آن أن تسلم بمثل هذه السهولة ـ الا اذا كانت تريد شيئا ما » . فقال : هذا صحيح . فقالت :

ـ لم يحدث قط أن سلمت آن بسهولة عندما كانت ترغب رغبة شديدة في الحصول على شيء ما ولذلك فان من الواضح أنه لم تكن لديها البارحة الرغبة في شيء ما .

فقال متذمرا « أرجو أن تكون راغبة في الاسورة التي ابتعتها لها في مناسبة عيد الميلاد، لقد تكلفت مافيه الكفاية » .

فقالت : « لم أعد أدرى ماذا يريدان .. فكل فرد قد تغير على نحو ما » .. ونهضت وأخذت ترتشف قهوتها مرة أخرى ممسكة بقدحها بكلتي يديها كما لو كانتا باردتين .

وتفحص وجهها الذي كان لايزال جميلا بالرغم من شحوبه . لقد مضى زمن طويل منذ كان يراها في الصباح قبل أن تزين وجهها ، فانه كان يبدأ عمله مبكرا في حين أنها كانت تنام الى وقت متأخر .

فعاد يسألها : هل أنت بخير ؟

فقالت : « اني متعبة ، ولعل هذا يرجع الى المرحلة التي أمر بها من عمري » .

فقال : « أي تقهقر للمراة » . ونهض وقبلها في وجنتها قائلا : « هل تذكرين كيف تعودت على تسلق جبل

« الون بلان » معى عندما كنا نقيس الأشعة الكونية ؟ ان هذا لم يكن منذ زمن طويل » ·

وابتسمت ابتسامة باهتة ولم تجب· فعبث بشعرها محاولا مداعبتها ، فأمسكت بيده وضربت عليها برفق قائلة : « اننى أراهن على أن هداياك لعيد الميلاد غير مغلفة » ·

فقال : « انك مخطئة · لقد حرصت على أن يقوم « تيفانى » بتغليفها » ·

فبدت عليها صدمة الدهشة وقالت : « هل أحضرت كل شىء من هناك ؟ » ·

فأجابها : « كل شىء ، وعندما قلت : اننى أريد تغليفها بغلاف الهدايا ، قال العامل بحدة ان تغليف التيفانى العادى انما هو تغليف الهدايا » ·

فكان فى ذلك ماأضحكها مما جعله يشعر بالانتصار ·

وقال : « أما الآن ، فسأصعد لغرفة السطح لاحضار لفافاتى الثمينة كى نضعها حول شجرة الميلاد » ·

وسألته : « ولماذا بحق السماء وضعتها هناك ؟ » فان الأولاد لن ينقبوا عنها ـ لقد نسيت أنهم كبروا » ·

فقال :« انها العادة ، مساء أمس كنت فى غرفة السطح أضع لفافاتى الغالية فى نفس الركن الذى كنا نضع فيه منزل عرائس آن ودراجة هال ··· كم عاما مضت منذ أن أمضينا عيد الميلاد هنا ؟ » ·

فقالت : « لم نفعل ذلك منذ أن وقعت فى حب نواة الذرة » · وبدت فى عينيها الزرقاوين ومضة من الخبث القديم وقالت : « كم أود أن أعلم مافى الذرة من سحر وجاذبية » ·

فأجاب فى اصرار : « نعم ، يا له من سحر ·

وتركها حينئذ وصعد الدرج الى غرفة السطح ووجد هداياه فى الحقيبة الورقية البنية اللون حيث أخفاها بالأمس · وعند هبوطه الى منتصف الدرج الى الطابق الثانى سمع صوت آن فى الردهة العليا وهى تتحدث الى شخص ما ـ الى رجل·ما بطبيعة الحال ـ وهى تقول : وما الفائدة من حضورى الى المدينة الليلة ؟ ··· نعم ، انى أستطيع القدوم مع هال ـ فان لديه موعدا ـ ولكن ماهى الفائدة ؟ لن يكون قبل منتصف الليل عندما تستطيع أن تترك عائلتكوسيكون لدينا خمس عشرة دقيقة ، حسنا ، نصف ساعة اذن ـ وتكون ـ قلقا طول الوقت ، فأى خير فى هذا ؟ ·

لقد سمع الألم وحدة العاطفة واعتصر الألم قلبه فجأة ، اذ رآها هناك عند التليفون · كانت مازالت فى قميص النوم الصوفى الوردى اللون ، وشعرها الأصفر معقوصا فوق رأسها ، انها طفلة بالرغم من أعوامها العشرين ، وما من رجل يحق له أن يؤذى هذ الطفلة التى أنجبها ··· كيف يستطيع حملها على الافضاء اليه باسمه حتى يستطيع الدفاع عنها من هذا المخلوق ؟ ·

وصاح : « يا آن ··· » ·

وفى التو أغلقت التليفون ، ثم استدارت ونظرت·اليه بعينيها الزرقاوين الواسعتين المذعورتين ·

وسألها : « انه لوقت مبكر للاستيقاظ فى صبيحة عيد الميلاد أليس كذلك ؟ » ·

فقالت : « لم أستطع النوم ، ان البرد لشديد هنا بجوار البحيرة » ·

فقال : « على أى حال حسن أنك استيقظت ، اذ يجب أن نقطع الشجرة أنا وهال ثم نشذبها ونتناول طعام العشاء جميعا كما كنا اعتدنا ان نفعل ·· وسوف أحضر لك بعض الأغصان لتزين المنزل بها ــ ربما بعض الصنوبر ــ فماذا تقولين ؟ » ·

ووضع الحقيبة الورقية البنية فوق الدرج وتقدم نحوها ·

وعبرت آن الردهة لمقابلته على أطراف أصابعها وقبلته قائلة « لقد جاشت بصدرك العواطف يا سانت كلوز أليس الأمر كذلك ؟ » ثم أضافت فجاة : « انك لطيف أيها العجوز » · فاجابها شاكرا : شكرا ، حتى هذا لم أسمعه منذ زمن طويل » ·

وقالت موافقة : « لم أقل لك أى شيء منذ زمن طويل فعلا » فقد كنت بعيدا فى كل مكان ما خلال هذه السنوات العشر ، أليس كذلك ؟ » وكانت تدور حول حواجبه بأطراف أناملها الرقيقة ·

وقال ممسكا بأناملها : « انك أنت التى كبرت بدون اذنى ·

وكان يفكر ، لو لم يكن قد أصر على أن يكونوا هنا اليوم لما كان هناك هذا الحوار · وكانت ستكون نائمة فى سريرها ، مرهقة من الرقص ··· وهلم جرا ــ ومالت برأسها على صدره بدون توقع ·

وقالت هامسة : « اننى أتمنى لو عدت صغيرة مرة أخرى ، أتمنى لو أنى لم أكبر قط ·· »

وضغط شعرها الناعم قائلا : « لماذا يا آن ؟ ــ لماذا يا آن ؟ »

فقالت : « سخافة ، أليس كذلك ؟ ورفعت رأسها ونفضت الدموع من عينيها اللتين تطلعتا اليه فى ابتسام ثم هرولت الى حجرتها وأغلقت الباب دونه ·

فصاح فى أثرها : « عيد ميلاد سعيد » · ولكنها لم تجب ·

وحينئذ فتح باب غرفة هال · وهناك كان يرقد ممددا فوق السرير ولده العزيز الوحيد فى الثمانية عشرة ، يبلغ من الطول ستة أقدام ، وسيم ، ذكى ــ شخص غريب عنه كلية ، وسار على أطراف أقدامه عبر الغرفة وتطلع الى ابنه النائم · رجل هذا الصبى ــ صبى هذا الرجل · طويل ، رفيع ، يافع ، ذو عظام ضخمة وجلد نضر وشعر داكن بالغ الطول ــ لقد كان هال هو الذى يتلهف للحضور الى البحيرة فى الصيف ، للسباحة والصيد والنزهة فى القوارب ، لقد أوشك على الغرق مرتين فى المياه العميقة الساكنة · ففى المرة الاولى كان قد سبح الى أبعد مما احتملت قواه · وفى المرة الثانية عندما اصطدمت رأسه أثناء غوصه · ولقد أنقذ مرتين ، وفى كلتا المرتين كانت النجاة على يدى أبيه · فقد رزق بحياة هذا الولد ثلاث مرات اذن ، وكانت المرة الاولى عندما خرج من بطن أمه ·

والآن أصبح الغريب الذى يقود سيارته بجنون خلال الليل ، والذى يرقص رقصات مجنونة مع أشخاص غير معروفين ، ويعود الى المنزل ثملا فى بعض الأحيان ، محطما قلوب والديه ، فكيف يمكن انقاذ ابنه؟ لأن بداخله هذه الجمجمة النبيلة عقلا يستحق الانقاذ ، وقد كتب له أستاذه القديم بجامعة هارفارد عن هال قائلا: « اذا استطعت انتشاله من هذه النوبة من غرور الشباب وهذا الجنون بالسبق ، فانه سيكون لديك رجلا » ·

وفجأة فتح هال عينيه ونظر اليه وقال : « هل حان وقت النهوض ؟ » •

فاجابه : « علينا أن نقطع الشجرة بعد الافطار » •

فاستدار هال وغاص في وسادته قائلا: « حسن ، حسن » •

ثم وقف برهة أطول مخفيا ما حل به من نفاد الصبر • عيد الميلاد ، والصبي يريد أن ينام • وتذكر أياما أخرى عندما جاء هال الى غرفته في الفجر متشوقا لكي يبدأ اليوم • وكان يقطع نومه القصير وينهض من فراشه لكي يسعد ابنه •

واستدار فجأة وترك الحجرة ، وأغلق الباب ، وكاد يصفقه • صبرا • لقد تعب من محاولة التمسك بالصبر • اذ كان هال لا يتسم بشيء من ضبط النفس • وتساءل ••• لماذا يرزق الرجال بأولاد ؟ •

وذهب الى غرفته الخاصة ووقف بجوار النافذة ، كان الثلج يتساقط مرة أخرى بكثرة من السماء الملبدة بالسحب الرمادية ، ولقد اختفى النجم •

كان الجو صافيا من جديد عندما ذهب هو وهال يخوضان الجليد بعد الافطار ، وارتفعت روحه المعنوية بالرغم منه ، والآن وقد امتلأ جوفه بالطعام بالدافيء المغذى وقد شجعه منظر جمال احمرار خدود هيلين ، بالرغم من أنها قد لاتكون لسبب أكثر من حرارة الموقد الخشبي الذى أصر على ايقاده تكريما لهذا اليوم ، وتحت تأثير نوبات الحنان التى تبديها آن لان قلبه من جديد نحو هذا الشاب الطويل الصامت الذى هو ابنه •

وقال : « عندما كنت طفلا، كنا ننعم بعيد ميلاد أبيض ، واعتدنا أن يكون ذلك أمرا مسلما به • وأعتقد أنك وآن كنتما على الدوام تريان في الثلج أمرا مسلما في السنوات التى كنا نحضر فيها هنا لقضاء عطلة أعياد الميلاد • اذ ليس الثلج بمثل هذه الأهمية في المدينة • وسمع خلفه وطء أقدام هال ولكن لم يتلق أية اجابة على حديثه القصير ، فتطلع وراءه فوق كتفه ورأى وجه هال الخالى من أى تعبير • لم يكن الصبي يستمع له • ثم التقط نظرة أبيه الحادة •

وسأل : « هل قلت شيئا ياأبى ؟ »

فقال مقتضبا : «ليس بالشيء المهم»•

واستمروا في مشيتهم • وسأل نفسه: لماذا أتحدثلهذا الابن الذى لايسمعنى؟

وكان عنده الكثير مما يود قوله لابنه ••• والكثير فعلا •

كان يتلهف لمشاركة هال شيئا من حياته الخاصة ، نشوة أن يكون المرء عالما من علماء الطبيعة في عصر الذرة ، حينما أصبح عالم الطبيعة فجأة أهم رجل في العالم •

وفي الماضي عندما كان العالم يعمل بمفرده في عزلة في المعمل ، وكثيرا ما يقوم بتجارب على غير هدى وعادة بدون جدوى كان العالم لا يكاد يكون من بني الانسان بل ساحرا ، أو رجلا شاذا ، أما الآن بعد معرفة ما في قلب الكون من طاقة في ذلك الحيز البالغ الضآلة أصبح العالم موضع الاحترام وموضع الرهبة ••• فهل كان هال يحلم بمثل هذه الأشياء ؟ لم يكن هناك من سبيل لمعرفة ذلك ، فليس ثمة تجاوب بين الأب والابن •

وتوقف لكي يتأمل الغابات الخضراء التى كانا يقفان فيها ، كانت الاشجار قد نمت الى حد بالغ في الطول ، فيجب

عليهما البحث فيما وراءها عن بعض الأشجار الصغيرة ·

وتساءل هال: الى أين تريد الذهاب؟

فقال يجب أن نجد شجرة فى حجم مناسب ، ولذا سوف نذهب الى حافة الغابة ·

فقال هال : اننا نستطيع أن نقطع الجزء العلوى من أية شجرة ·

فهز رأسه قائلا: اننى لأشد احتراما لأصول قطع الأشجار من أن أفعل ذلك، ان شبح أبى سوف يظهر صائحا بى · أنقضى على شجرة بأكملها من أجل قمتها ؟

فألح عليه هال قائلا : لقد بدأ الوقت يتأخر ···

ـ وفيم تعجلك ؟

فوقف هال وسط الجليد قائلا : يا أبى اننى أريد العودة الى المدينة فى الساعة الثامنة مساء ·

فاستدار ووقف مواجها ابنه وقال : لقد طلبت من عائلتى شيئا واحدا بمناسبة هذا العيد، وهو الهدية الوحيدة التى أريدها حقيقة ـ وهو أن نقضى اليوم معا هنا ، واليوم يشمل المساء وسوف تحل الساعة السادسة قبل أن نكون قد انتهينا من تناول العشاء · ثم سيكون أمامنا الاجتماع حول الشجرة ·

ورأى نظرة غريبة فى عينى هال ، رأى تمردا مكبوتا ، اذ كان الصبى يخالجه مثل هذا الاحساس ، فلماذا لا يعلن غضبه ؟ لقد حدث مرة عندما كان هو نفسه فى الثامنة عشرة من عمره أنه تشاجر مع أبيه بالكلام فى مبدأ الأمر ، ثم بالايدى، لقد كان ذلك بسبب أحد الايام وكان من أيام الصيف عندما أراد الذهاب الى المعرض الاقليمى ، ومنعه أبوه من ذلك · اذ قال له أبوه بخشونة أن العلف صالح للقطع ، فلن يذهب أحد الى أى مكان · فقال اننى ذاهب · وصاح أبوه فلتحاول ذلك · وحملق كل منهما فى وجه الآخر وعلى حين فجأة زمجر أبوه قائلا : اذا كنت تشعر فى نفسك بما يدل عليه مظهرك فلنتصارع ولنرى من هو أقوى باسا · ولقد تماسكا وتصارعا كالثيران، الشاب والكهل ، وطرح أباه أرضا · ووقف يرقب أباه أثناء نهوضه على قدميه ، والكبرياء والخجل يتقاسمان قلبه · وقال أبوه باكتئاب : حسن · سوف أقوم بالعمل بمفردى فقال : « اننى سوف لا أذهب » · وعمل الاثنان معا جنبا الى جنب خلال الساعات الطويلة الى الغروب ···

أجل لقد كان هذا الصبى ـ هو نفسه ـ شخصا يستطيع أن يفهمه · فلماذا لم يقدم هال على تحديه ؟

أما هال فقال: « انك الرئيس المطاع، واعتقد أنك ستكون الرئيس على الدوام » ·

فحدق فى وجه ابنه الساخط وقال : « بحق الشيطان ماذا تعنى بذلك ؟ »

فأجابه : ليس سوى ما قلته الآن ـ انك الرئيس ، لقد كنت الرئيس الكبير منذ الحرب ، ألم تكن كذلك ؟ قاتل ذرى ··

فاخذ يحملق فى هذا الشاب العملاق الذى كان ينظر اليه شزرا ، ثم سرى الغضب فى بدنه سريان النار ، ولطم ابنه على فكه لطمة فنية متقنة أثارت دهشته وفى نفس اللحظة تبين احساسه بالكبرياء ··· كبرياء وضيع أصابه بالذهول وهبطت يده · وصاح متلعثما « اننى لم أقصد ذلك ياهال ولست أعلم ما الذى دهانى ، ولكنك ناديتنى باسم

شرير • ومع هـذا ما كان ينبغى لى أن أفعل ذلك » •

وجذب هال منديله من جيبه وجفف وجهه •

وسأله : هل تنزف ؟ فأجابه : نعم قليلا ••

فقال الأب : حقا • انه كدم بالغ •• وما الذى حملك على أن تدعونى بهذا الاسم يا بنى ؟

ـ انه حقيقة ما أنت عليه ، ألست كذلك ؟ نوع ممتاز من المتفننين فى القتل ••• فصاح : « كلا » •

وفحص هال المنديل الملوث بالدم ، وأطبقه ثم أعاده الى جيبه ، وقال : « حسن ••• لنقطع شجرة عيد الميلاد » •

فقال : « هال ، اننى لا أستطيع أن أترك ذلك عند هذا الحد » •

فصاح : « لقد قلت حسنا • حسنا •

فأجابه : حسنا اذن ••

وعاوده الغضب ، فتجهم وجهه ومضى يسير بخطوات واسعة متقدما ابنه حتى قطع خمسين خطوة • ثم وقف أمام شجرة صغيرة رشيقة ، وقال : « ها هى شجرتنا » •

فقال هال : « سأقوم بقطعها » • ورفع الفأس وهوى بها ثلاث مرات على جذع الشجرة ، ولكنه فى كل مرة كان يخطىء المكان الذى هوت عليه فى المرة الاولى ثم ألقى بالفأس وقال : « اننى أشعر بدوار يا أبى » •

فقال له : « دعنى أرى وجهك » ووضع يده تحت ذقن ابنه وأخذ يفحص الكدم الذى بدأ يزداد لونه سوادا وقال فجأة : أود أن أسألك الصفح عن تصرف كهذا فى يوم عيد الميلاد •

فأجابه هال : « ليس ثمة ما يدعو الى ذلك فقد وجهت اليك اهانة » •

فأجابه فى اصرار : وهو ما لا استحقه ولكن فلنسترح ••• وسأقطع الشجرة بنفسى • وبأربع ضربات متقنة سقطت الشجرة وصدر عنها صوت يشير الى الأنين الطويل •

ورفع مؤخرة الجذع ، فى حين أن هال أخذ بطرف قمتها • وحملاها فى صمت مترسمين خطاهما عائدين عبر المرج الى الشرفة الامامية للمنزل •

وقال هال : « سوف أزيل الثلج عنها » •

فقال أبوه : « لندخل المنزل لننال قسطا من الدفء أولا » •

وقادهما الطريق الى المطبخ ، وكانت الحجرة دافئة يملأها عبير نبات «المريمين» ورائحة شواء الديك • وهتفت هيلين فى ابتهاج : أهلا بكما • وكانت منصرفة الى وضع الزبد على الديك فى الفرن موردة الوجه ، وقد تهدلت خصلات شعرها الفضية • واستمرت فى الكلام قائلة : « لايوجد موقد مثل هذا ، واننى لأعجب كيف صح عزمنا على هجر موقد الحشب » •

فصاح : « انتظرى حتى يكون لديك موقد ذرى • ففى دقيقتين اثنتين يكون ديكك قد نضج ، وما علينا سوى الجلوس الى المائدة والضغط على أحد الأزرار • وبعد تبادل حديث قصير المدى يكون الوقت قد مضى واذا بالطير معدا للتقطيع » •

ولم ينطق أحد بكلمة ردا عليه وكان اذ ذاك يخلع حذاءه ، فلم يلاحظ الصمت • وكانت آن منصرفة الى تنظيف أوانى المزرعة القديمة الفضية •

وسأل هال : « أما من مكالمات تليفونية ؟ » فأجابته آن : كلا • ثم نظرت اليه وصرخت قائلة : « ماذا حدث لوجهك ؟ ؟

ورددت هيلين قائلة : « وجهك ••» وأغلقت باب الفرن قائلة : « ماذا جرى؟ انه لمخيف » •

وقال أرنولد بخشونة : « لقد ضربته » •

ووقف وملأ قدحا وشربه •

وقال هال : « لقد أهنت أبى » •

وجلست آن على مقعد المطبخ قائلة : « يا الهى ، يا الهى • ماذا حدث لنا » •

فقالت آن : « هدية عيد الميلاد » وضحكت فى عصبية وأخفت وجهها بين يديها •

فصاح بها : « اسكتى يا آن ، أوقفى هذا الضحك • انى أقول لك أوقفيه »•

وأمسك بكتفها وهزها • فرفعت وجهها ناظرة اليه يتنازعها الضحك والبكاء ولم يعرف أيهما كان يغلب عليها• فقالت له :

ـ « هل ستضربنى أنا أيضا يا أبى؟ هل أصبحت الآن من هذا الصنف من الرجال ؟ »

فتراجع الى الخلف متسائلا : ماذا تعنين ؟ وتطلع اليهم من وجه الى آخر قائلا : « ماذا يعنى أى واحد منكم ؟ »

وتولت آن الاجابة ، فقد كانت هى الضاربة ، الصغيرة الضاربة التى هاجمته وعضته يوما عندما كانت فى السابعة من عمرها وبكل عدل كان مرغما على تأديبها بالضرب لتجاوزها الحد فى عبثها لأنها رسمت بعض صور الأغنام والزهور على أوراق معادلاته الرياضية • ولبرهة وجيزة ظلت آثار أسنانها الصغيرة ماثلة على ابهامه •

وقالت آن فى تؤدة : « اننا نعرفك ، فلقد تغيرت ، ولقد أصبحت غريبا عنا » •

وأخذ يتأمل فى هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم • ولبرهة وجيزة شعر بأنه عديم الحيلة والنصير وأنه ليس أمامه سوى البحث عن مهرب ، ففكر فى أن يطير الى أى مكان لكى يهرب من أمامهم • ولماذا ترك ما كان ينعم به من راحة فى معمله؟ الا أنه لا يستطيع الهرب منهم ، أينما كان• فقد كان يحبهم ، يحب كل واحد منهم على وجه يختلف عن الآخر ويحبهم جميعا فوق الطاقة••• والآن يتعين عليه أن يواجههم كما سبق أن واجه ما فى حياة عالم الطبيعة من قرارات مرعبة •

هل ينبغى أن يتابع هذه المعلومات أيضا الى أقصى غاياتها • كما سبق له أن تابع البحث الخاص بالطاقة الكامنة فى نواة الذرة ؟ لقد مرت به أوقات كان يتوق فيها الى الهرب مما تنتهى اليه هذه المعلومات الا أنه كان قاسيا مع نفسه ولم يكن ثمة من مهرب لرجل العلم •

وحتى أثناء معرفته أن طاقة خفية تستطيع أن تفنى العالم ، فانه تعقب المعرفة كواجب يتعين عليه أداؤه ففى وسعها اذا استعملت استعمالا صحيحا أن تؤدى الى الحياة بدلا من الموت • وعلى نحو غريب كان الحب شبيها بذلك ، قوة للشر أو للخير ، فكل شىء يتوقف على المخلوق البشرى ••• لذلك كيف يكون هؤلاء الثلاثة غرباء عنه الآن فى حين أنه كان يحبهم الى هذا الحد ؟••

فى صباح هذا اليوم ، يوم عيد الميلاد ، كان لايشعر الابالحب دون سواه • فماذا يستطيع أن يقوله ليحملهم على ادراك ذلك ؟

وجلس الى مائدة المطبخ وآخذ ينظر من وجه الى آخر · لقد كانوا يراقبونه فجعل نفسه يبدو لطيفا أمامهم · وفى النهاية ، وقع اختياره على وجه آن من بين الثلاثة وقال : « يا آن أنت صادقة مثل نجم عيد الميلاد ، وانى لأقدر ذلك، وأنت تقولين اننى غريب عنكم ، عن عائلتى ··· فى حين أنى طول الوقت كنت أفكر فى أنكم أنتم الغرباء ، أنت وهال ، وحتى أنت يا هيلين · لقد شعرت بالضياع هنا ، ولكننى شعرت بالضياع لمدة طويلة ـ فى منزلى » ·

فارتبكت آن ورأى ذلك فيجب عليه أن يكون أشد تمهلا وقالت : « لقد كنت مشغولا يا أبى » ·

ووافقها قائلا : « طبعا كنت مشغولا وابتعدت عنكم أكثر مما ينبغى وشغلت أكثر ما ينبغى بما كنت أظنه واجبى العمل المنوط بى · ولكننى لا أستطيع العيش بدونكم يا أعزائى ، مهما يكن شأنى » ·

وكان تواقا لأن يفهموه ، ولكنه اذ تفحص وجوههم ، رآهم ما زالوا على حذر ··· اذ لم يعرفوه كما كان يبدو الآن · فثمة ذكريات أخرى كانت تزحم عقولهم ، وكان فى وسعه أن يحزر ما يجول بخاطرهم وهو أنه يعمل على اظهار حبه لهم محاولا اكتسابهم مرة أخرى اليه، بالتدليل على أنه مازال الأب المرح الرقيق القلب والزوج والحبيب المشبوب العاطفة ·

ولكنه لن يلجأ الى الدفاع عن نفسه، فوجه خطابه الى آن مرة أخرى قائلا « استمرى فى الكلام بصراحة وصدق·· لماذا تشعرين بأننى غريب ؟ »

ولكن وجهها الجميل الصغير بدا محكم الاغلاق دونه وقالت : « ان الناس يسألوننى عن شعورى ازاء أب هو ·· هو الذى صنع القنبلة الذرية · ويسألوننى عما تصنعه الآن · وأجيب بأننى لا أعرف ، لأنى لا أعلم ، فانك لا تخبرنا عن شىء على الاطلاق » ·

وتدخل هال قائلا : « لا تلومى أبى بشأن القنبلة · فمهما يكن ما قام به فى هذا الشأن فانا أعتقد أنه كان يتعين عليه أن يقوم به ، وفضلا عن ذلك لقد انتهى وتم هذا منذ زمن طويل » ·

وتكاثفت فى المطبخ الكبير ، الدافىء، الروائح اللذيذة لأغصان الصنوبر ولشى الديك · أما فى الخارج فقد تغير الجو ، اذ بدت السماء تكفهر مرة أخرى وبدأ الثلج يتساقط فى الهواء الساكن ندفا كبيرة ناعمة · فكان المنظر يبدو فى المظهر التقليدى لعيد الميلاد شأنه شأن الديك الموجود فى الفرن، والشجرة الظريفة التى ما زالت تنتظر فى الشرفة ·

ولقد ذكر أنه منذ طفولته كان المظهر يبدو كما هو بعينه فى كل عيد ميلاد الا أنه كان يوجد اليوم بالمنزل شىء لم يكن له وجود قط من قبل · لقد حل نوع من الخوف وأسفر عن نفسه ، خوف بشرى من مستقبل ـ مخيف ولكنه محتمل الوقوع ـ وما ذلك الا بسبب ما قام به هو وزملاؤه العلماء ·

واذا كان الخوف قد حل هنا ، أفلم يكن قد حل فى كل منزل آخر ، وفى كل قلب آخر ، كسر مكتوم وشبح غامض وهو الذى وصل الى اكتشاف معجزة قد عجز عن اشراك من يحبهم فى أمرها ، فهم لم يعرفوا سوى الخوف ·

ورفع رأسه قائلا : « دعونى أحاول، دعونى أحاول أن أوضح حقيقة أمرى

فانى أعتقد بأنى أدرك السبب فى خوفكم منى » ٠

ولم تستطع آن أن تتحمل ذلك فقالت : « يا أبى ، اننا لسنا خائفين منك فعلا ، ولكن لم يعد أحد يشعر بالأمان الآن ٠ ولهذا فاننا نهيم على وجوهنا ـ اننا لانريد التفكير فى الأمر ، ما من أحد منا يفعل ذلك ٠٠٠ ولذلك نمضى فى انطلاقنا فحسب دون تفكير» ٠

وأخذت وزجته الشفقة به فقالت : « اننى أعلم يا أرنولد أنك لا تملك من الأمر شيئا » ٠

وقال فى النهاية : « اننى أنا أيضا أشعر بالخوف، فالخوف الذى تستشعرونه هو خوف أشارككم اياه » ٠ وكانوا يستمعون اليه باهتمام لم يكن باديا فى استماعهم من قبل ٠ فقد كان يقول شيئا جديدا ٠

وسألت آن : « هل أنت خائف من نفسك ؟ »

فقال فى عزم وقوة : « كلا ، فاننى أعرف نفسى ٠ نعم انى تغيرت ، ولكن ليس كما تظنون ٠ فما من أحد يستطع اكتشاف الأشياء التى اكتشفتها دون أن يتغير ، ولكنى رجل متواضع الى حد لم أبلغه من قبل ٠ فأنا أؤمن بالله ٠٠٠

ونطق بالكلمات فى بساطة وهو يدرك دلالتها ٠ فهو لم يسبق له أن نطق باسم الله من قبل على الاطلاق، بل كان يزهو بالالحاد ومشايعة الدهريين ٠

ومضى فى كلامه محاولا الايضاح دون اثارة العواطف : « قد لا يكون الله الذى كان يعبده آبائى ، ولكن أجل ، أنا أؤمن بالخالق الأبدى خالق السماء والارض ٠ وكيف أستطع ألا أؤمن ؟ لقد واجهت الخليقة وهى تأخذ مجراها فى قلب الذرة ـ غير مرئية ، ولكنها مكتملة الأغراض ، ولها من القوة والطاقة ما لا سبيل الى قياسه ٠٠٠ وأنا أؤمن بما لا أستطيع أن أراه » ٠

وكانوا لا يبدون حراكا حتى لكأنهم كانوا لا يتنفسون ٠ وخطر له اذ ذاك أنه لم يتحدث اليهم مطلقا من قبل عن أفكاره فى المسائل الجدية ٠ فقد مرت أيام السنين التى قضوها معا وهى لاتعدو الشئون السطحية للحياة ، ويحتمل أنه كان أشد خجلا مما ينبغى لكى يكشف الحقائق المستورة فى حين أنهم كانوا ينشدون الحقيقة ٠ كانوا ينصتون اليه فى ارتياح واسترخاء ، آن جالسة على الأرض ويداها متشابكتان فوق ركبتيها، فى حين أن هال كان واقفا مستندا الى الباب ، ويداه فى جيبه ، وكانت هيلين جالسة الى جانب المائدة مطاطئة الرأس ٠ كان يعرف أنها تستمع اليه ولكن فى ارتياب ٠ هل يحتمل ذلك ؟ يحتمل أنهم جميعا فى ريبة منه ٠

ثم تردد وحاول أن يضحك قائلا : « تبدو أقوالا خطيرة أليس كذلك ؟ قد أكون مخادعا لنفسى ٠٠٠ » وترك الكلمات تتعثر ٠

وقالت هيلين فجأة : « يجب أن أزود الديك بالدهن مرة أخرى » ٠

وخامره الشك ، من النظرة التى علت وجهها فى أن الموقف كان أكثر مما تقوى على احتماله ٠ وانتظروا ريثما فتحت الباب الحديدى للفرن ، وراقبوها عندما غمست ملعقة كبيرة فى الدهن السائل وصبتها على الطير الكبير ٠ فدار فى خاطره أنه على هذا المنوال أصبحت اليوم الأمور الكبيرة والصغيرة تختلط بحياتهم بحجم عيد الميلاد والمخاوف الذرية ٠

وملأت كوبا من الماء البارد وشربته

ثم جلست من جديد الى المائدة . وقالت آن : « استمر يا أبى » .

فقال بحدة « اننى لا أعرف كيف استمر الآن ، حقا اننى كنت بعيدا لمدة سنين وحتى على الرغم من أننى أنام وآكل فى المنزل وفى معظم الأوقات — الا أننى كأنى فى مكان آخر . وقد لا أستطيع العودة . وقد لا نلتقى أبدا مرة أخرى لقاء حقيقيا . أنتم الثلاثة وأنا .. انه لمن الموحش أن يكون المرء عالما .. حياة موحشة . فاننا لا نقوم بأى اتصال الا فيما بين الواحد والآخر فى عالمنا الخاص . ولهذا فاننا نواصل الذهاب الى المؤتمرات لمحاولة العثور على قوم يتحدثون بلغتنا — على من نستطيع التفاهم معهم بلغة المعادلات ... عليكم أنتم الثلاثة أن تقابلونى فى منتصف الطريق » .

فقالت آن فى صوت منخفض : « ولنفرض أننا لا نستطيع ذلك » .

فقال فى كآبة : « حينئذ أظن أنه سوف يتحتم على أن أمضى فى طريقى وحيدا » . وعندها قامت هيلين واتجهت نحو النافذة ووقفت هناك تراقب الثلج المتساقط ثم قالت : « اننا جميعا نعيش فى العصر الذرى معا ، وكل ما فى الأمر أنك أدركته قبلنا » .

فقال شاكرا : « ان هذا الادراك مرهف من جانبك يا عزيزتى » .

ودق جرس التليفون ، فخرج هال الى الردهة ليجيب عليه ، ولبثوا ينتظرنه وسمعوه يقول : « انى لا أعرف ما اذا كنت قادما ، وسوف لا أعرف لفترة أطول من ذلك .. سوف يتأخر حضورى اذا كنت سأحضر ... » .

وعاد الى الحجرة ، وألقى بنفسه فوق السجادة ذات الصوت الخشن الطويل الموضوعة أمام موقد المطبخ ، وعقد يديه تحت رأسه محملقا فى السقف . وقال : « استمر يا أبى » .

فقال لابنه : « اننى لا أستطيع الاستمرار ، انكم يجب أن تقبلونى عن ايمان وثقة بى . فان لكم أن تثقوا بى مهما أفعل كما أن لكم ألا تثقوا وكل ما أستطيع أن أقوله هو أننى رأيت رؤيا ، صادقة وشأنى فى ذلك شأن الرجال الأقدمين الذين تتبعوا النجم — أولئك الرجال العقلاء . ولقد آمنوا بأن طفلا سوف يأتى بعهد جديد أفضل سبيلا ... وهذا ما أؤمن به » .

فقالت هيلين : « ولكن كثيرا من الناس كانوا فى خوف من ذلك العهد الجديد أيضا » .

فقال شاكرا مرة أخرى : « أنت على صواب مرة أخرى » .

وكانت اذ ذاك تطل خارج النافذة وعندها ذهبت الى صندوق الخبز ووجدت كسرة جافة فأخذت تفتتها ثم فتحت النافذة ووضعت الفتات على اطارها الخارجى وقالت : « اننى أرى طائرا مغردا من طيور الغابة وقد تأخر عن أوانه » واذا بأن تذكر القصة القديمة فتقول : « لقد حاول هيرود أن يقتل الطفل فهل تذكر ذلك ؟ » .

فاستدار اليها وقال : « لقد أراد أن يوقف سير العهد الجديد . ولكن ما من أحد يستطيع ذلك — ما من أحد وما من شىء — لم يستطع هيرود أن يقتل الطفل .. ونحن لانستطيع تدمير النواة الثلاثة للذرة . انها خالدة ، انها موجودة . وعلينا أن نتعلم كيف نستخدمها — للخير والخير فحسب » .

ونهض واقفا فى قلق وأخذ يسير فى الحجرة روحة وجيئة بين النافذة الجنوبية والنافذة الشمالية فى حين أن الثلج

الأبيض كانت تدفعه الريح الى الألواح الزجاجية ، وكان المطبخ الكبير القديم يمتد بعرض المنزل المتين البنيان • وشرع يفكر بصوت عال قائلا ••• كم أود لو أن الامر بدا بطريقة مختلفة — أثناء السلام بدلا من أثناء الحرب • أود لو أنى استطعت اضاءة المدن وتدفئة المنازل وأن أصل الى اتقان اعداد وقود لآلات مدهشة حتى ولو لم تكن قد ابتكرت الى الآن ••• ولكن يبدو ، انه لم يكن فى الاستطاعة أن يبدأ الأمر على هذا الوجه فقد كان علينا قبل كل شيء أن نمنع رجلا أحط من النوع الانسانى من أن يقوم بتدمير العالم

وتوقف ثم نظر اليهم وقال : « هل تفهموننى ؟ كان من شأن هتلر أن يقضى علينا • فقد كان يسعى وراء القنبلة أيضا • ولم نسبقه الا بعدة شهور لا غير » •

وعاد يذرع أرض الحجرة روحة وجيئة قائلا : « ان الشيء الوحيد الذى يخيفنى فى الحياة هو الصنف المنحط عن النوع الانسانى • اننى أثق فى الطاقة الكامنة فى الذرة ، وبوسعكم أن تعرفوها وتتعلموا استخدامها ، وهذا أمر يمكن التنبؤ بوقوعه • وأنا أثق فى جيل طيب تقى بالله • وأما المنحط عن النوع الانسانى فلا • انه العدو الوحيد أمامنا • وهو قد يكون قابعا بجوارنا فضلا عن وجوده عبر البحار بل انه قد يكون حيا فى شخص واحد منا — حتى فى شخصى أنا » •

وتوقف أمام آن ولكزها باصبعه الكبير قائلا : « وهذا هو السبب فى أنك تخافين منى » •

وسقطت يده وقال : « أما والله يا بنية — أنه ليجب أن تخافى منى • فقد كنت خائفا من نفسى هذا الصباح » • ثم التفت نحو هال وقال : « لماذا ضربتك يا بنى ؟ »

فقال هال بصوت مكتوم : « فلنتناس ذلك لأنى أيضا فقدت وعيى فى ثورتى عليك » •

فقال أبوه : « انى لا أستطيع أن أنسى ، فأنا كذلك أنطوى على شيء أحط من الصفة الانسانية » •

لقد كان يحدث نفسه بصوت عال ، معربا عن روحه بكلماته فى صباح هذا العيد للميلاد ولكنهم كانوا منصتين فقد كانوا يعرفون ما يتحدث عنه • حتى ولو كان فوق ما يحتملونه ومدت هيلين يدها اليه فامسك بها ، ووضعت آن رأسها على ركبتها وهى قاعدة القرفصاء ورأى جسدها يرتجف • فهل كانت تبكى ؟ لم يكن يدرى •

وقفز هال من مكانه على الأرض وربت على ظهره قائلا : « كفى كلاما • أظن باننا يفهم كل منا الآخر قليلا ، على أى حال ••• وخير لنا يا أبى أن نقوم بنصيب الشجرة • سأجرها الى غرفة الجلوس من الباب الخارجى » •

وقالت هيلين : « وأنا سأبحث عن زينات عيد الميلاد » •

وفى أثناء ذهابها توقفت وقبلته فى خده • ولكن آن ظلت جالسة القرفصاء على الارض محنية الرأس • فنظر اليها ثم ذهب الى النافذة وتطلع الى الخارج • وكان الثلج قد وقف نزوله فرأى خطوطا زرقاء تبدو من جديد خلال سماء الشتاء الداكنة • فقال فى نفسه أنه ليوم متقلب ، ولما يمض منه سوى نصفه كان قد بدأ يظهر عليه تأثير النهوض مبكرا ، حتى ولو كان ذلك لرؤية نجم • ثم كل هذه العوامل المضطربة فى محيط أسرته

ـ من يدرى الى أى عمق تغلغلت ؟ لقد أضاع من الزمن أكثر مما يستطيع استرداده فى يوم احد ٠

ثم رفعت آن رأسها وبدأت تتكلم : « لقد أردت منذ عدة أسابيع أن أقول لك ٠٠٠ اننى فى أقصى حالات التعاسة » ٠

فشعر بقلبه يقفز فى صدره ـ اذن فهو لم يفشل كل الفشل ٠ ـ وقال : « أخبرينى عن سبب تعاستك يا آن » ٠

فقالت: « لقد وقعت فى براثن الحب» ٠ فجذب الوسادة وجلس عليها ليكون فى متناول يدها اذا مدتها اليه ٠

وقال بصوت رقيق : « ولكن هذا رائع » ٠

فقالت : « ليس الأمر كذلك ، فلقد أحببت شخصا لا يحبنى » ٠

فقال حازما : « لا يمكن ذلك ، فاننى أعتقد أنه لا يوجد على وجه الأرض رجل لا يستطيع أن يحبك ٠ حتى لو كان أعمى لا يستطيع أن يرى طلعتك » ٠

فضحكت فى فتور ثم اعتمدت على يديها ونهضت متثاقلة حتى وقفت على قدميها وأقبلت نحوه فوضعت خدها على قمة رأسه بحيث لا يستطيع أن يرى وجهها ٠

وقالت: «انه لايحبنى بالقدر الكافى، بالقدر الكافى لكى يضحى بأى شىء من أجلى ـ دائما بالقدر الكافى لكى يقبلنى ـ ومالى ذلك » ٠

فقال مرددا : « وما الى ذلك ، ليس هذا بالقدر الكافى ، انى أتفق معك فى ذلك » ٠

فقالت : « كلا ، لأنى أحبه حبا بالغا، ولهذا يجب أن تكون النهاية كل شىء أو لا شىء ٠٠٠ انه متزوج يا أبى ولذا فالنهاية لا شىء » ٠

فأبدى موافقته فى تجهم قائلا : « هذا أمر كئيب ، هذا بالغ الكآبة » ٠

فانهارت تحت تأثير حنانه وصاحت وأخذت تبكى دون أن يصدر منها صوت كما هو شأن القلب المحطم حين يبكى ٠ كلا لم تكن طفلة ، فان الطفل يبكى بصوت مرتفع ٠٠٠

وضمها ، منتظرا ٠ ولم يستطع أن يلقى اليها ما يسرى عنها من العبارات المألوفة ٠

ـ أنت ما زلت فى العشرين من عمرك ـ هناك رجال آخرون يتسمون بالشباب والوسامة ـ هذا سوف يزول يا طفلتى، هذا سوف يزول ـ انه لن ينطق الا بالصدق ٠

ورفعت وجهها الحائر المشدوه قائلة : « هل سوف يتاح لى يا أبى أن أتغلب على ذلك ؟ »

فقال : « أبدا ، ان المرء لا ينسى أبدا هذه الأمور الكبيرة ٠ انها تبقى فى باطنك ٠ سوف تجىء أمور أخرى ٠٠ ظروف أخرى للحب ٠ وسوف تعيشين فيها أيضا ٠ فهذا محتوم علينا اذ لا سبيل الى الهرب من الحياة ٠

فسقط رأسها على كتفه مرة أخرى ولكنها لم تكن تبكى الآن٠ وشعر بالألم يسرى فى قلبها الا أن عقلها نشط للعمل ، وارادتها أخذت تستجمع قواها ثم جلست وأصلحت من شعرها٠

وسألته قائلة : « ماذا كان عساه أن يكون مصيرى لو لم تكن قد حملتنا على المجىء الى هنا لقضاء عيد الميلاد ؟

فأجاب : « أخبرينى أنت » ٠ قالت: « لقد أعددت خطة للهرب ـ معه ـ لقضاء عطلة نهاية الاسبوع ٠ وهذا الصباح لم أستطع ذلك ٠ فلقد سمعتك حين استيقظت وخرجت وذهبت الى النافذة

ورافبتك وأنت تخوض الثلج وتقف هناك عند مخزن الحبوب فترة طويلة » ·

فقال : « لقد كان على أن أرى النجم مرة أخرى » · فتساءلت : « النجم ؟ »

فأفضى اليها حينئذ بما كان لنجم عيد الميلاد من شأن ومكانة لديه حين كان طفلا في وقت ما هنا فى هذا المنزل القديم ، وكيف أنه بالأمس فى المدينة أحس بحنين لا يطاق الى العودة لكى يتزود مرة أخرى بتحديد اتجاهه بفضل النجم ·

فانزلقت عن ركبته ، واذا ، لم تعد طفلة اذ قالت : « هذا ما أحتاج اليه — أن أحدد اتجاهى » ·

فقال : « انها حاسة تقدير القيم ، التفرقة بين ما له أهمية وما ليست له أهمية ·

وكانت قد سارت الى النافذة أثناء كلامه ثم وقفت هى الاخرى تتطلع الى الخارج وتتأمل منظر الثلج واذا بها تقول : « لا تخبر أحدا بأمرى يا أبى »· فكان لقولها وقع الصدمة فى نفسه وقال : « كيف يسوغ لك التفكير فى أنى خليق بأن أفعل ذلك ؟ »

فقالت : « لقد ظننت أنك قد ترى أن تقول شيئا لأمى » · فسألها : « ألم تخبريها ؟ »

فقالت : « كلا ، فان لديها ما يكفيها مما يشغل بالها » ·

فقال : هل يتعلق ذلك بشىء لا أعلمه ؟

فقالت : « انها تعتقد أنه ليس ثمة من يعلم الأمر · ولكن الطبيب أخبرنى·

فأحس بالبرد يسرى فى بدنه وقال: « كان من الواجب أن أعرف فى الحال يا آن » ·

فقالت : « لم تكن تريد أخبارك أنت بالذات ، ولا أخبار أحد منا الى ما بعد انقضاء عيد الميلاد · ولهذا أخبرنى الطبيب ، فقد قال انه كان لا بد من أن يعرف بالأمر أحد ما » ·

فقال مرددا فى دهشة : « لم تكن تريد أخبارى ···· ولكن كان يجب على الطبيب ألا يذعن لرغبتها » ·

— « انها لم تسمح له حتى باجراء الاختبارات الا بعد انقضاء عيد الميلاد، ولهذا السبب أخبرنى ·· فى حالة ما اذا شعرت بشىء فى هذه الاثناء » ·

فابدى تألمه قائلا : « يا لكل هذه الأبواب المغلقة بيننا ·· » وعادت اليه ومدت يدها فأمسك بها ليستمد منها بعض العزاء · فقالت: « لقد فتحت اليوم بابا يا أبى· وان بابا واحدا مفتوحا فيه ما يساعد ، فبوسعنا الآن أن نكون على اتصال فيما بيننا » ·

فقال : « ولكن هل ستفعلين ذلك ؟

فقالت : « سأفعل··· انى أعد بذلك »·

وابتسمت له ابتسامة رزينة وحزينة· فان شيئا من نضارة الشباب كان قد ولى فعلا عن وجهها ·

فقال : « سوف يصلح حالك ، ليس مرة واحدة ، ولكن رويدا رويدا ، يوما بيوم » ·

فأجابت : « أجل ··· » ثم توقفت وأخذت تتشمم بقوة ثم صاحت : « أبى ··· الديك ·· » ·

وعدت بسرعة نحو الفرن ، فعلت وجهه ابتسامة عريضة وسار مبتعدا الى الخارج وفى الردهة صاح مناديا : « يا هيلين ، أين أنت ؟ »

ومن بعيد ، من خلف باب موصد ، أجابت بصوت غير واضح ·

وهتف هال من غرفة الجلوس : « انها بالطابق العلوى » ·

وكانت الشجرة قد نصبت وثبتت في مكانها وكان يدق المسمار الأخير فيها قائلا : « لقد صعدت لتحضر زينات الشجرة ، ولم تعد • ولعلها لم تتمكن من العثور بعد على الذى يزين القمة ، فانها كانت لا تستطيع أن تتذكر أين وضعته » •

ولم ينتظر حتى ينتهى هال ، بل صعد الدرج قفزا وأسرع الى بابها ، فوجده موصدا ، وحاول فتحه مرةأخرى ثم قال : « افتحى لى يا هيلين » •

فقالت : « دقيقة واحدة يا عزيزى»• كان يتبين الضعف فى صوتها وهو يخترق خشب الباب ، ولكن فى أقل من دقيقة أدارت المفتاح وفتحت الباب • فبدت فىضعف واضح، كما بدت عيناها فى اتساع كبير فى وجهها الابيض •

وصاح : « ما الخبر يا عزيزتى ؟ » وأخذها بين ذراعيه فالتصقت به دون أن تجيب •

فسألها : « لماذا صعدت هنا وحدك وأوصدت الباب ؟ »

فقالت فى همس بعد هنيهة : « اننى لا أريد الافضاء اليك ، فلست أريد أن أفسد احتفالنا بعيد الميلاد » •

فقال : « انه يوم الافضاء ، انه يوم الثقة » •

فقالت فى تردد : « لست بخير فان بى علة ما » • فالقى بنظرة على الوجه الحبيب الملتصق بصدره وكانت العينان مغلقتين • فقال : « لماذا لم تخبرينى ؟ »

فأجابت : « لم أستطع ذلك فقد كنت بعيدا بعدا ساحقا » •

فقال : « هل ذهبت الى الطبيب من تلقاء نفسك ؟ » فأجابت وهى تتنهد : « نعم » •

فسألها : « وماذا قال ؟ »

ـ لم تستوف الاختبارات •

ـ هل ما زلت بعيدا الآن ؟ فقالت : « كلا » • فقال :

ـ أبدا بعد الآن ؟ فقالت : « أبدا » فقال :

ـ سوف أذهب معك الى الطبيب غدا وسأبقى الى جانبك •

فرفعت اليه وجها قد أشرق بفتنة الضياء وهتفت : « أحقا يا أرنولد ، ستفعل ذلك ؟ »

فقال : « ومن المحتمل ألا تكون ثمة أية علة أو ألا يكون ثمة شىء لا يتيسر علاجه » •

ـ الآن فقط أستطيع الاعتقاد بأن هذا محتمل •

وتطلعت اليه وقد بدت فى عينيها دلائل تجدد الثقة فحنى رأسه مأخوذا بعاطفة أبعد غورا مما عهده منذ سنين• لقد عادا الى الاتصال الوثيق مرة أخرى •

وفى الطابق الاسفل كان هال يتحدث تليفونيا قائلا : « اسمعى يا صغيرتى لن أستطيع المجىء هناك الليلة ••• كلا حتى ولا فى وقت متأخر ••• سوف لا أحضر ، هل فهمت••• ان لدينا شجرتنا وكل شىء »

وأعيدت السماعة الى مكانها بعنف وصاح ينادى من فى الطابق العلوى : « يا أبى ـ يا أمى ـ أنتما الاثنان الموجودان فى الطابق العلوى ، هل لكما أن تنزلا ومعكما معدات عيد الميلاد ؟ ولا تنسيا النجم »

فافترقا وابتسما ، لقد كان من المستحيل ألا تمتلىء النفس بالأمل فى هذا اليوم ، يوم عيد الميلاد • فان هذا فى الواقع كان كل ما يرمز اليه النجم •

من أقاصيص الأولين

اختيار وتقديم

سامية زكي

دخل خالد بن صفوان التميمى يوما على أبى العباس السفاح فوجده وحده ـ وكان له نديما ـ فجلس اليه ثم قال :

يا أمير المؤمنين ، انى فكرت فى أمرك ، وسعة ملكك ، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة ، فان مرضت مرضت انت ، وان غابت غبت أنت وحرمت نفسك التلذذ بالجوارى الظريفات ، ومعرفة اخبار حالاتهن ، والتمتع بما تشتهى منهن .

ان منهن يا امير المؤمنين الطويلة التى تشتهى لجسدها فهى الغيداء .

وان منهن البضة البيضاء التى تحب لروعتها ، والسمراء اللعساء ، والصفراء العجزاء الذهبية ـ من مولدات المدينة والطائف واليمامة ـ ذوات الألسن العذبة والجواب الحاضر . ممن تفتن بمحادثتها ، وتلذ بخلوتها .

وأين أمير المؤمنين من بنات الأحرار والنظر الى ما عندهن وحسن الحديث منهن ؟ ولو رأيتهن يا أمير المؤمنين ورأيت حسن زيهن لرأيت شيئا حسنا .

قال أبو العباس : ويحك يا خالد ، ما سلك مسامعى كلام احسن من هذا، فاعد على كلامك فقد وقع منى موقعا.

فأعاد عليه خالد الكلام احسن مما ابتدأه ، ثم استأذنه فى الانصراف فأذن له .

وبقى ابو العباس مفكرا فيما سمع. ودخلت عليه امرأته ـ ام سلمه المخزوميه ـ فلما راته مطرقا ، مفكرا، مهموما ، قالت له :

انى أستغرب حالك يا أمير المؤمنين فهل حدث امر تكرهه ؟ او اتاك خبر فارتعت له ؟.

قال : لم يكن من ذلك شىء .

قالت : فما قصتك ؟

فجعل ينزوى عنها ، ويتفادى من الجواب . فلم تزل تستخبره حتى اخبرها بمقالة خالد بن صفوان .

قالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟

قال : سبحان الله ينصحنى وتشتمينه ؟

فخرجت من عنده مغضبة ، وارسلت الى خالد جماعة من الجند فى ايديهم

عصى غليظه ، وأمرتهم الا يتركوا منه عضوا صحيحا .



حدث خالد عن نفسه قال : انصرفت من مجلس السفاح الى منزلى ، وانا مسرور بما رايت منه واعجابه بما قلت، ولم اشك فى انه سيبعث الى بجائزة ثمينة، فلم البث طويلا حتى رايت جماعة من الجند ، وانا قاعد على باب دارى، ولما رايتهم قد اقبلوا نحوى ايقنت بالجائزة ، ثم وقفوا على فسألوا عنى .

قلت ها أنذا خالد بن صفوان .

فسبق الى واحد منهم وأهوى الى بخشبة ، فوثبت ، ودخلت منزلى ، واغلقت على نفسى الباب .

مكثت أياما ثلاثة على تلك الحال . ووقع فى نفسى أن أم سلمه هى التى سلطت على هؤلاء .

طلبنى ابو العباس السفاح طلبا شديدا ، فلم أشعر ذات يوم الا بقوم قد هجموا على ، وقالوا لى : اجب أمير المؤمنين .

ايقنت بالموت وقلت : انا لله وانا اليه راجعون . لم أر دم شيخ أضيع من دمى .

وركبت الى دار ابى العباس السفاح وليس على لحم ولا دم من الخوف . فلقيته منفردا ، ورايت فى المجلس بيتا عليه ستور رقيقة ، وسمعت حركة خلف هذه الستور ، وشعرت ان وراء الستور ام سلمه أو من تنقل لها الحديث

قال ابو العباس : لم ارك منذ ثلاث ليال ؟ .

قلت : كنت عليلا يا أمير المؤمنين.

قال : ويحك ، انك وصفت لى فى آخر دخلة من أمر النساء والجوارى ما لم يسلك مسامعى قط كلام احسن منه ، فاعده على .

قلت : نعم يا أمير المؤمنين . اعلمتك ان العرب اشتقت اسم الضره من الضرر، وأن احدا ما تزوج من النساء اكثر من واحدة الا ضر وتنغص .

قال : ويحك ، لم يكن هذا فى الحديث

قلت : بلى والله يا أمير المؤمنين ، واخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافى القدر يغلى عليهن .

قال : برئت من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان كنت سمعت هذا منك فى حديثك .

قلت ! واخبرتك أن الاربع من النساء شر مجموع لصاحبهن يشيبنه، ويهرمنه، ويسقمنه .

قال : والله ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا .

قلت : بلى والله .

قال : ويلك ، تكذبنى ؟

قلت: وتريد انتقتلنى ياأمير المؤمنين؟

قال : استمر فى حديثك .

قلت : واخبرتك ان أبكار الجوارى كالرجال .

هنا سمعت ضحكا من وراء الستر

فقلت : نعم ، واخبرتك أن بنى مخزوم ريحان قريش ، وانت عندك ريحانة من الرياحين ، وانت تطمع بعينك الى حرائر النساء وغيرهن من الاماء . وسمعت من وراء الستر قائلة تقول:

صدقت والله يا عماه وبررت بهذا حدثت أمير المؤمنين ، ولكنه بدل ، وغير ، ونطق عن لسانك .

قال السفاح : ما لك قاتلك الله واخزاك ، وفعل بك وفعل ؟

فتركته ، وخرجت منسلا ، وقد ايقنت بالحياة .

وما شعرت الا برسل أم سلمه قد صاروا الى ومعهم عشرة آلاف درهم ، وتخت ثياب ، وبر ذون .

عن الهيثم بن عدى أن رجلا أنشد مصعب بن الزبير قول جميل .

ما انس لا أنس منها نظرة سلفت
بالحجر يوم جلتها أم منظور

فقال : لوددت انى عرفت كيف جلتها فقيل له ان أم منظور هذه حية ، فكتب فى حملها اليه مكرمة . فحملت اليه . فقال لها اخبرينى عن قول جميل .

ما انس لا انس منها نظرة سلفت
بالحجر يوم جلتها أم منظور

كيف كانت هذه الجلوة ؟

قالت البستها قلادة بلح ، ومخنقة بلح واسطتها تفاحة ، وضفرت شعرها، وجعلت فى فرقها شيئا من الخلوف . ومر بنا جميل راكبا على ناقته فجعل ينظر اليها بمؤخر عينه ، ويلتفت اليها حتى غاب عنا .

فقال لها مصعب : فانى اقسم عليك الا جلوت عائشة بنت طلحه مثل ماجلوت بثينه . ففعلت . وركب مصعب ناقته، واقبل عليهما وجعل ينظر الى عائشة بمؤخر عينه ويسير حتى غاب عنهما ثم رجع .

بكاء



بقلم
أمين يوسف غراب

أحيانا ترى انسانا فيخيل اليك انك رايته من قبل وانك تعرفه معرفة جيدة فى حين ان شيئا من هذا لم يحدث ...

رايته فى المساء على رصـيف محطة اسوان وكان القطار يتأهب للرحيل بنا الى القاهرة ، وما أن وقعت عينى عليه حتى ظلت متعاقة به مشدودة اليه تتأمله وكانها تتأمل انسانا تعرفه معرفة جيدة. كان فى العقد الرابع وان كان لا يبدو عليه ذلك وكان انيقا ينم مظهـره على رخاء حال . وكان وسيما وطويلا طولا ملحوظا ووجهه ترتاح العين الى التطلع اليه.وان كانت قسماته جافة واشراقته باهتة ، كان وجهه فى مجموعه اشـبه بالمصباح الجميل الذى نضـب زيته ويوشك ان ينطفىء . وكان يحمل فى يده حقيبة صغيرة وسلسلة مفاتيح تدلت منها بعض القطع الذهبية الصغيرة لمحت على احداها اسم « الله » ولمحت على واحدة اخرى اشـبه ما يكون بالجنيه السعودى اسم « يارب » وبعض القطع الأخرى لم استطع ان اتبينها جيـدا . وكان يبدو عصـبيا الى حد كبير ، لأننى كنت ارى اصـابعه بين الحين والحين وهو يروح ويجىء على الرصيف تضغط على مقبض الحقيقبة وكأنهـا تريد أن تحطمه . ومع انه لاحظ جيدا اننى انظر اليه على غير العادة ، الا ان هـذا لم يشغله او يخرجه عن الدنيا التى يعيش فيها بينه وبين نفسه . وظل كذلك غير انه فجأةنظر الى وكانه اراد ان يكلمنى وفرحت لذلك ـ لماذا لا ادرى ؟ ـ غير انه فجاة عدل وبدل أن يلتفت الى التفت الىالقطار واستدار سريعا ودخل احدى عرباته وتوارى فىقلبها . فاسفت لأننى كنت اطمع فى ان اتعـرف على احد يعينى حديثه على هذه الرحلة الشاقة وعلى ثقل ظل هذا القطار الذى كان اشبه بثعبان ضـخم يزحف على بطنه فى الظلام فى قلب صحراء لا أول لها ولا آخر .

وكما فعل هو فعلت انا ودخلت احدى العربات ورحت أبحث عن مكانى فيهـا فلم اجده ، فاستعنت باحد الحمـالين الذى تنـاول منى التذكرة وقادنى الى عربة اخرى وما أن جلست حتى رأيت الرجل امامى وجها لوجه ينظر هو الى هذه المرة ويتأملنى جيدا كما كنت انا أتأمله تماما . وانتهزت انا هذه الفرصة وقلت له :

ـ كم الساعة الآن ؟

فنظر الى ساعة ذهبية غالية فى يده ولكن فى شيء من الضيق وقال :

— السادسة والنصف .

ولما احسست أن ضيقه لم اكن انا المتسبب فيه قلت :

— ومتى سيصل بنا هذا القطار الى القاهرة ؟

— حتى يأذن الله .

فقلت وانا اريد ان اواصل الحديث :

— هذا القطار مزعج الى حد كبير .

فقال وهو يثبت منظاره الاسود على عينيه اللتين لم اكن قد رأيتهما بعد :

— وماذا فى هذه الحياة غير مزعج ؟

فأحسست على الفور أن الرجل يعانى شيئاً فقلت :

— الحياة فيها أشياء جميلة .

— كلام فارغ .

نطقها الرجل فى ايمان فقلت :

— يبدو انك متشائم .

فقال وهو يشعل سيجارة من أخرى فى عصبية :

— بالعكس .. هذه هى الحقيقة .

— الحقيقة أن ليس فى الحياة جمال ؟؟

— الشيء الذى تدفعه فى الشيء الجميل فيها ، اغلى بكثير من الجمال نفسه .

لما لاحظ اننى لم افهم قال :

— مثلا لكى تذهب الى اسوان ونستمتع بشمسها ودفئها لأيام ، عليك ان تركب هذه الصعاب خمس عشرة ساعة متواصلة .

ثم لفظ نفساً طويلا من سيجارته وقال :

— وكلما وجدت ما هو أكثر امتاعا من اسوان وشمس اسوان ، وجدت ما هو أكثر شقاء من هذا القطار ومشاق السفر به .

واعجبنى حديثه واحسست بشيء من الراحة لأننى تعرفت على هذا الرجل وتحدثت اليه وشعرت بسعادة اكثر عندما عرفت وعرف هو ايضا مصادفة اننا سنبيت معا فى ديوان واحد ، اى اننا سننظل معا حتى نبلغ القاهرة .

وجاء الخادم وذكرنا بالعشاء وطلبت أن ننتقل الى مكان العشاء ولكنه لم يقبل ، ولما سألته هل سيبيت من غير عشاء : قال وهو يبتسم فى مرارة :

— اننى رجل ممعود ان معدتى كأيامى سواء بسواء تذيقنى المر دائما ، ولذلك انا لا آكل فى الليل سوى قطعة من الجبن أو بعض الفاكهة .

— اطلب ذلك .

فقال وهو يشير الى الحقيبة التى معه :

— فى هذه الحقيبة كل شيء الدواء والعشاء .. والشقاء أيضا .. اطمئن .

قال ذلك وهو يبتسم . فأحسست برغبة ملحة فى ان أعرف حقيقة هذا الرجل فقت له وانا انصرف الى عربة الطعام .

— اتريد ان تنام مبكرا ؟

فقال وكان لا يزال يبتسم نفس الابتسامة الساخرة المريرة :

ـــ مبكرا جدا . الرابعة صباحا على اقل تقدير كل ليلة ..

وتركته وانصرفت وتناولت عشائى سريعا ومن ثم عدت الى مكان النوم فوجدته قد ارتدى ثياب نومه وتمدد فوق الفراش ورأيت عينيه لاول مرة بعد ان نزع منظاره الاسود من عليها فرايتهما باون الدم فاشفقت عليه من قلبى وانا أسأله :

ـــ هل تعشيت ؟

ـــ الحمد لله تناولت برتقالة واصبعا من الموز وثلاث حبات من المنوم .

ـــ ثلاث حبات من المنوم ؟

وكانه لم يسمع لانه نهض واخرج من قلب الحقيقبة ترمسا صغيرا وقال وهو ينظر الى :

ـــ هل لك فى أن تشرب معى فنجانا من القهوة ؟

ـــ حتى القهوة معك ؟

فهز رسه وقال وتلك الابتسامة الساخرة على شفتيه :

ـــ كل شيء فى الوجود معى ، الا الشيء الذى اريده .

قال ذلك وهو يضحك ضحكات متقطعة هزت قلبى وجعلتنى اشفق عليه كما جعلتنى أومن بأنه يعانى شيئا حقيقة ، وكان قد عرف اسمى وعرفت أنا من هو وكيف اننى رايته قبل ذلك كثيرا فعلا ولكن فى الصور فهو فنان معروف . وكان قد صمت ، واحسست انه مرتاح لهذا الصمت فلم اشأ أن اقول له شيئا او اعكر عليه لحظات الصمت هذه ، وظلت صامتا انا ايضا الى انه فجاة التفت الى وقال ولكن وهو يحاول ان يخفى عينيه عنى :

ـــ هل تاذن لى فى شيء ، وارجو الا يضايقك ..

ـــ تفضل .. تفضل ..

ـــ اننى اريد ان ابكى ...

فقلت فى دهشة لاحد لها :

ـــ تبكى ؟؟

ـــ ان الدموع تريحنى كثيرا ، ان نقاطها احيانا تذيب بغض الأحزان التى تتجمد فوق القلب .

فصمت ولم أجب ورحت انظر اليه وهو يبكى والدموع تنساب دافئة على خديه ، وافكر فى هذا الرجل الذى امامى ممددا فوق الفراش فى بيجامته الحمراء الأنيقة والتى تخيلته فيها اشبه بقطعة من الجمر تحترق ولكن على مهل وفى صمت دون أن يشعر بها احد . ولذلك لم ازعجه ومكنت له من دموع كثيرة زرفتها عيناه فى مرارة وحرقة . وظل كذلك الى ان جفف دموعه وناولنى سيجارة واشعل له واحدة من اخرى كانت قد احترقت بين اصابعه وقال :

ـــ لا تؤاخذنى .

ـــ انك تعانى شيئا ..

ـــ منذ اربع سنوات كاملة وانا اعانى هذا الشيء .

فنظرت اليه فى اسي كبير وقلت :

— هل أنت مريض ؟

— مرض خبيث بكل أسف .

فارتعشت عيناى وانا انظر خوفا الى هذا الرجل المريض بمرض خبيث والذى سأنام معه فى مكان واحد وقلت :

— هل انت متأكد ؟

فتنهد تنهيدة طويلة وقال :

— تأكد من أننى أبيت معك فى مكان واحد ، ويجرنا قطار واحد .

فازددت خوفا ، وازددت ارتباكا وقلت :

— فى كثير من الاحيان يخطىء الطبيب فى التشخيص .

فأرسل تنهيدة أخرى كادت لفحاتها تلهب وجهى وقال :

— بكل أسف ان هذا الداء الذى أصابنى ويصيب غيرى من الناس لا يشخصه طبيب .

— من يشخصه اذن ؟!

نطقتها فى دهشة بالغة .. فقال :

— المريض به فقط بكل أسف .

فلم أفهم وقلت وانا انظر الى عينيه الحمرتين بلون الدم :

— قد يعجز الطب احيانا عن علاج بعض الأمراض ، ولكنه لا يعجز عن تشخيصها .

فانسابت من عينيه بعض الدموع ثانية وقال :

— هذا المرض الخبيث الذى أعانيه ، طبيبه هو الله فقط .

فأحسست باشفاق كبير على هذا الرجل الذى كنت اخافه من لحظة وقلت له فى حنان ارتاحت اليه نفسه بعض الشيء لأنه بدا ينظر الى ويتأملنى جيدا وان كانت الدموع التى مازالت تمتلىء بها عيناه تحول بينه وبين الرؤية الكاملة .

— اننا تعارفنا وعرف كل منا الآخر واظن انك تستطيع ان تطمئن الى .

فقال وهو يخرج منديلا نظيفا من حقيبته ويجففه به عرقه :

— وهل تعتقد ان الحديث فيه فائدة ؟

— بين اثنين متحابين يكون كالدموع التى قلت انت لى عنها من لحظة ان نقاطها تفتت احيانا بعض الاحزان المتجمدة فوق القلب .

فقال وهو يهز راسه فى أسى كبير .

— هذا كلام نقوله فى الروايات فقط .

— اعتقد انها حقيقة ...

فانفرجت اساريره وقال :

— هل احسست انت نعمة الدموع ؟

— واريد ان ابكى احيانا .

— وهل بكيت ؟

— احيانا قد تستعصى النعمة على كثير من الناس ...

فقال والتغضن يعود الى وجهه والأسى العميق يعود الى عينيه :

— فعلا الحديث ايضا نعمة .. انه بين اثنين متحابين كالثقوب فى القربة الممتلئة بالماء فوق كتفى رجل مرهق ، كلما تحدث تسرب منها الماء حتى تصبح شيئا هشا فوق كاهله .

ومن ثم راح يتحدث ويفضى الى بخبيئة نفسه ، ومكث اكثر من الثلاث ساعات يقص على مأساته ، وكنت انصت اليه وكأننى انصت الى نفسى .. فقد كنت أعانى نفس المرض الذى يعانيه هذا الرجل ..

قص على الرجل قصة حبه ومأساة هذا الحب الذى القى عليه قضاء وقدرا كما يلقى مثلا حجر على راسك وانت تسير فى الطريق وكل الفرق بين الحجرين ان هذا يكسر الراس ويحطم الجمجمة وذلك يذبح القلب ويفرى الجوانح . كل ذلك وانا انصت اليه بكل جارحة تنبض فى دمى — كنت انا وهو اشبه بجريحين يحدث كل منا الآخر عن آلام الجراح وحرقتها التى يعانيها كل منا . والغريب ان الحب مهما تعددت صفاته تجمعه دائما صفة واحدة هى هذه الجراح والدماء التى تنزفها . فقط يختلف حال جرح عن جرح . ولهذا كنت انا اهدأ حالا منه الى حد ما . كان جرحى ينزف بين الحين والحين أما هو فجرحه ينزف دائما . ومع ذلك كنت احسن بهذه الدماء وكثرتها وكانها تنزف منقلبى انا ، واحس بالنار التى تحرقه وكانها تحرقنى انا ، ودائما الذى يحترق بالنار مرة يكون هو الوحيد الذى يعرف مرارة حرقتها .

وطال بنا الحديث فى تلك الليلة ، قال لى كيف التقى بها فى الاسكندرية أول مرة . وكيف تعرف عليها بعد ذلك وكيف امتدت حياتهما الشقية بعد هذا أربع سنوات كاملة وكيف أن القدر لعب دوره الخطير بينهما وحال بينهما وهما متلاصقان ، فهى متزوجة وعندها أولاد ، وهو متزوج وعنده أولاد. والبيت الكريم والاصل الطيب والخلق النبيل والقلب الابى ، كل ذلك يمنع صاحبه من أن يهدم بيده عش من يحب .

ولما قص على كل شيء ولم اجد فيما قصه على شيئا يستحق أن يعذبه كل هذا العذاب سألته هذا السؤال .... قال وهو يتعذب أكثر من ذى قبل :

— وهل تريد عذابا أكثر من حياة لاهدف لها ، ماذا بعد هذا العذاب الذى اعيشه ؟ وانفرطت الدموع من عينيه وهو يسترسل فى الحديث دون أن يفطن الى انه يبكى ؟

— اننى لا اكل ولا اشرب ، ولا انام ، ولا استيقظ الا وهى فى خيالى وفى دمى وفى نظراتى الى الأشياء. تصور اننى قطعت رحلتى من اسوان وعدت اليوم الى القاهرة لاننى لم اقدر على ان احرم من رؤيتها ثلاثة ايام كاملة . وهى من .. ؟؟ كل وجودى فى حين لا وجود لها .. ان بيننا كل شيء .. وليس بيننا شيء .. هل تريد شقاء أكثر من هذا الشقاء ؟

وسألته :

— هل تلتقى بها كثيرا ؟

— ان لم التق بها فى الصباح ، التقى بها فى المساء ، وان لم ألتق بها السبت ، التقيت بها الاحد ، وان لم اسمع صوتها ثلاث مرات فى اليوم — على الاقل كان النوم حراما على عينى ..

— وهل تسمح لها ظروفها بذلك ؟

— الحب يذلل دائما العقبات .

— واين تلتقى بها ؟

— هل تلتقى على انفراد ؟

وفكرت قليلا وقلت :

— سواء فى الطريق او فى غرفة مغلقة .

وسألته سريعا :

— ومعنا ثالث دائما .

— ثالث .. ؟ من هو ؟

— اللـــه ..

فازدادت دهشتى وقلت :

وهل يوجد الله معكما دائما ؟

— دائمـا .

والذكر والانثى أين يكونان ؟

— عندما يوجد الحب يتلاشيلن .

ودون ان ادرى وجدتنى اسأله :

— هل هى تحبك ؟

— يكفى ان احبها انا .

واحسست اننى بدات امسك باول الخيط وقلت له :

— اننى اسألك عنها هل هى تحبك ؟

فانفرطت من عينيه دمعة وقال :

— ان حبها لى هو الذى علمنى كيف احبها انا كل هذا الحب .

ثم اشعل لفافة من أخرى ترتعش فى يده وقال :

— انها مخلوق غريب ، تعرف الله ، وتعرف الحب ، وتعرف الانسان ، تصور انها عندما تحدثنى فى الصباح .. كل صباح .. واسمع صوتها مختنقا يركبنى الرعب ، اخاف ان تكون مريضة ، اخاف ان اموت اذا عرفت انها مريضة ، فاذا بها مازالت نائمة ، مازالت تتثائب .. مازالت عينها مغمضة لم تفتحها الا على قرص التليفون تديره لى ، لتسمع صوتى .. لتطمئن على صحتى ..

ثم استدار فى جلسته كمن يستدير من جرح الى جرح ومد يده الى جيبه واخرج سلسلة مفاتيح ذهبية — التى كنت شاهدتها فى يده على الرصيف — وقال وكأنه يتحدث عن الهه :

— قلت لك أنها تعرف الله .. انظر .. انظر ..

ورايت القطع الذهبية التى تزيد على الست المعلقة فى السلسلة ، والتى كتب على بعضها اسم « الله » واسم « يارب » وآية الكرسي ، والفاتحة ، وبسم الله الرحمن الرحيم . وقلت له :

— ماهذا كله ؟

فقال :

— هى هى هى . ومع ذلك لست احدثك عن حبهالست احدثك عن الحب، ان الحب يعرف ولا يعرف ، ينظر ولا يرى ، يكون ولا يوجد ، يوجد ولا يكون .

— تقصد الاحساس به .

— لا الاحساس به قائم . موجود فهو مادة ، وانا لا احدثك عن الماديات وانما احدثك عن هذا الشيء او لاشيء الذى اعرفه لانه كالدم يجرى فى عروقى ولكن لا أعرف كيف احدثك عنه فكيف تسألنى هذا السؤال ، كيف تسألنى هل هى تحبنى او لا ، تماما كما لو سألتنى . هل انا احبها ام لا .. كل الذى ساقوله لك نعم ، ولكن هل نعم هذه تكفى ؟ هل نعم هذه تشعرك بالنار التى تحرقنى ؟ هل نعم هذه تجعلك ترى غور الجراح التى تنزف منها هذه الدماء .. نعم انها تحبنى ووالا كنت مجنونا حتى اتعذب هذا العذاب .

وصمت فقلت له :

— هل حبها لك هو الذى يجعلك تتعذب ؟

فعادت الدموع الى عينيه وقال :

— من غير شك هو الذى يجعلنى اتعذب ، ان العذاب الحقيقى هو دائما من اجل الآخرين ليس ابدا من اجل انفسنا .. انه اذا كان من اجلنا نحن اصبح انانية .

وتركته حينا يبكى ثم سألته وكانه هو الذى يسألنى وانا الذى اجاوب :

— هل هى جميلة ؟

فنظر الى كمن ينظر الى انسان ابله وقال :

— ليس للجمال اية علاقة بالحب ..

— اعرف ذلك ، ولكنى اعرف أيضة

ان الجمال احيانا يكون هو الغذاء لبذرة الحب التى تنبت فى القلب وتتغذى منه .

— كنت اقول انا أيضا هذا القول، وكانت لى نظرية فى الجمال وفى المراة وفى تكوينها بحيث اننى لو رأيت هذه المراة مئات المرات قبل أن احبها لأخطأتها عينى فى كل مرة وقد قلت لها ذلك يوما .

— قلت لها ماذا ؟

— كنت ذات مرة اتفحصها بعينى وكانت نظراتى تتحسس كل جارحة فيها من تحت الثياب ومن فوقها وفجأة وجدتنى اقول لها — عجيب أمرك أيتها المراة ، ان كل الذى كنت اكرهه فى المراة وجدته فيك احببته ، وكل الذى كنت احبه فى المراة ولم أجده فيك كرهته .

— وماذا قالت لك ؟

— كأنها كانت تعرف سلفا كل ما سأقول .

— لقد شوقتنى الى أن أرى هذه السيدة .

— وانا أيضا كم اود ذلك .

وفجأة رأيتنى أسأله هذا السؤال الغريب :

— هل تغار عليها ؟

— حتى من عينى .

ولما كان الرد مفحما صمت واستطرد هو :

— لو ركبت بجانبى فى السيارة ولحت عينى مصادفة جارحة من فخذها انحسر عنها الثوب مصادفة ثرت على عينى وخنقت عليها بل وتمنيت لهما العماء حتى لا تتغزل عينى مرة أخرى فى شاردة أو واردة من جسم من أحب .

— انك تحب حقيقة ايها الرجل .

وصمت هو . وصمت أنا أيضا ، وفجأة وجدتنى مرة أخرى اوجه اليه هذا السؤال الجارح وكأننى أريد أن أوجهه الى نفسي :

— ألا تشك فيها أبدا ؟

فبرقت عيناه وهو يسألنى :

— ماذا تقصد من كلمة اشك فيها ؟

— أنها تعرف غيرك مثلا ؟

فتجهم وجهه على الفور وقال فى غضب شديد وكأنه يفقد صوابه :

— لو أن غيرك سألنى هذا السؤال و . .

فقاطعته حتى لا يفقد صوابه فعلا وقلت :

— أقول مثلا مثلا . . .

وكأنه استرد صوابه فعلا لانه تمالك نفسه وقال وهو يريد أن يبتسم :

— لو مثلا كما تقول ، وقدر لى أن أتصور هذا حتى ولو كذبا . لتمنيت أن أكون فى لحظة تصوره فى طائرة ترتفع بى فوق السحاب ، أو فى قطار ينهب الارض كهذا القطار لكى القى بنفسي وأموت قبل أن أتصور هذا الذى تقول .

— مرة أخرى انك تحب حقيقة ايها الرجل . .

نطقتها فى صوت خافت هذه المرة لم يسمعه ، ولم أدر بعد ذلك ما الذى حدث فى تلك الليلة على وجه التحديد ، هل استغرقنا بعد ذلك فى نوم عميق ، أم ظللنا نتحدث ونحن نصغى الى صوت عجلات القطار وكأنها أصوات أقلام القدر تخط بها مصائر الناس على الارض ، وكل الذى أذكره أن الرحلة انتهت وبلغ القطار بنا القاهرة وافترقنا بعد أن

تواعدنا على اللقاء وبعد أن تبادل كل منا رقم تليفون الآخر وعنوانه . وفعلا التقينا بعد ذلك مرات ، والغريب أن كلا منا كان يحرص دائما على هذا اللقاء ، وكان يجد فيه لذة وامتاعا ، فقد كان كل منا يقص على صاحبه قصة من يحب الى أن حدث أننى انشغلت عنه عدة

وظلت به عدة أيام وبعد أن تماثلت الى الشفاء وزال الخطر وفرغ المستشفى من زحام الاهل والمعارف الذين كانوا يلازمونها ليل نهار ، ووجدت الفرصة لكى أزورها ، ذهبت الى مستشفى الشبراويشي فى الدقى احمل لها باقة جميلة من الورد المتفتح الذى كان كقلبى



أيام وانشغلت أيضا عن الدنيا بأسرها وقضيتها فى أسوأ حال يمكن أن يقضيه انسان على وجه هذه الارض ، فقد مرضت صاحبتى فجأة وكانت فى حالة خطيرة مما استدعى نقلها الى المستشفى

المتفتح لفرحة الشفاء وهنك سألت عن الغرفة ٤٧ وارشدنى اليها عامل المصعد وعند مادققت الباب ودخلت فوجئت بمفاجأة أذهلتنى ولم تكن أبدا لتخطر لى على بال . فقد رأيت ـــ كمال ـــ

وهذا هو اسم الصديق الذى تعرفت عليه فى القطار اذكره لأول مرة . رأيته بجانبها بجوار السرير يقدم لها كوبا من عصير البرتقال وكأنه يقدم لنفسه سعادة الدنيا بأسرها .

وأذهلتنى المفاجاة وارتبكت ارتباكا شديدا ، وانا أضع بيدى المرتعشة باقة الورد التى كنت لا ازال احملها بجوار باقة ورد أخرى كان هو قد احضرها اليها ايضا ، والوحيد الذى لم يدهش ولم يذهل هو — عزيزة — التى قالت على الفور وهى تبتسم وتخاطب كمال وتشير الى — فلان — صديق ماما وبابا . وصديق زوجى والعائلة جميعا. ثم قالت فى اقتضاب وهى تشير اليه هو — كمال بك —

والغريب أن المسكين صدق هذا كله، بل وسرله كثيرا لانه مد لى يده وصافحنى وهو يضغط على يدى ويغمز لى بعينيه وكأنه يشكر هذه المفاجاة التى اتاحت لى أن اراها كما كنت اقول له فى القطار .

ولما اطبق على شفتى وعلى قلبى أيضا انصرفت ، وانصرفت سريعا وانصرف هو معى ايضا وفى الطريق وجدت المسكين يقول لى وهو فى غاية السرور :

— لم اكن اظن انك صديق الاسرة ، وانك تعرفها ، ان هذه فرصة جميلة جدا ..

ثم امسك بذراعى وقال وكأنه طفل يريد أن ينتزع منك قطعة من الحلوى :

— قل .. قل لى ما رأيك أليست جديرة بكل هذا الحب .. أليست جديرة ب . ب . ب . وتلعثم قليلا ثم قال :

— لا تؤاخذنى اننى منذ ان مرضت كنت اشبه بمجنون . اننى لم أسترد قواى سوى امس فقط عند ما تماثلت للشفاء .. لاتؤاخذنى لاننى لم اتصل بك منذ ايام .. كنت أهذى .. كنت كمجنون .. كمجنون .. ولكن قل .. قل .. لماذا انت لا تتكلم ؟

كنت لا استطيع ان احرك شفتى.. كنت لا استطيع ان اتلفظ حتى انفاسي ، كنت لا استطيع أن انقل حتى قدمى .. ومع ذلك كنت اسير ، وكان هو يسير بجانبى ، وفجاة احسست باننى فى حاجة الى شيء . فقلت له وانا مغمض العين :

— هل تأذن لى فى شيء ؟

— تفضل .. تفضل ..

— اننى اريد ان ابكى ..

العودة إلى التيه

بقلم : محمد عبد الحليم عبد الله

هنك بضعة كيلو مترات لا بد ان يمشيها لكى يصــل الى الدار التى بات يحلم بها اربعين يوما ..

وكان ينأى باستمرار عن الطــرق الرئيسية لا لشيء الا ليختصر الطريق . والارض من حوله .. حقول .. وترع جافة .. واشجار عراها الشــتاء من اوراقها . اما السماء فقد بدت رحيمة لا سحاب ولا مطر . والشــمس تلقى بأشعتها على الارض التى ندتها امطار الاسبوع الماضي . كان يحسها تحت قدميه العاريتين فى الاماكن التى لم تجف بعد .

كان طويلا يميل الى الانحناء شيئا ما. فى وسطه حزام عريض من الصوف غزله ونسجه وشده على وسطه .. وكان يشعر بعد ان يشده الى جســمه أكثر تماسكا وقوة .. سريع المشــية مع طوله يهرول بطريقــة تدعــو الى الانتباه . وقد شــمر اذيال الجلباب بواسطة الحزام . ومشي على الارض الندية ليقطع بضعة كيلومترات الى الدار التى لم يرها منذ اربعين يوما ... وحده على الطريق .. على كتفه فأس ينتلها الى الكتف الاخرى اذا ما احس بالتعب وفى يد الفأس الخشبية علق (جردل)

من الصاج يترنح مع المشــية فيحدث صوتا من الممكن أن يكون مسليا لعابر السبيل ... صوتا معدنيا خاويا «ترن .. طن .. ترن .. طن » ليس بينه فرق كبير وبين الصوت المعدنى الذى ينبعث من (مفصلة) شباكه حين تعابثه ريح الخماسين .

وبحركة غير ارادية الفى يده تحرك يد الفأس من اليمين الى الشمال لكى يستمر صدور الصوت . وكان الطريق خاليا فأسبل عينيه . وسرى الدفء فى أوصاله من الشمس المتحررة من كل سحاب فأحس كأنه فى الحجرة العلوية فى داره والشــباك فيها يبعث الازيز « ترن .. طن » والليلة ليلة سوق .. وصحن الدار قد عبق بروايح مختلفة اقلها رائحة التوابل من حلة نحاســية على الكانون جلست أمامها زوجته ...

وعندما دخلت صورة زوجته فى نطاق أفكاره اخذ يحرك يد الفــأس لينبعث الصوت المعدنى قويا حاسما مؤكدا انه فى الدار وان ريح الخماسين تهز عليهما الشباك ...

لكنه ما لبث أن تنهد وفتح عينيه ... كان كل شيء من حوله كما هو . الطريق

الممتد والاشجار العارية .. والترع الجافة ..

انه منذ أربعين يوما لم يذق دفء الحنان . « سكينة » زوجته فى الدار وهو نائم فى الخيمة بين عمال الترحيلة ... رجل جنب رجل على فراش من القش . كانوا يضحكون ويتبادلون النكت ويذكر كل منهم صاحبه بزوجته . وتتأجج النار فى الحطب جنبهم حتى

شعر انه محتاج الى ان يأكل أو ان يشرب او يدخن ... على الاقل . لكنه تذكر انه لا يحمل طعاما فقد أكلت الليالى الاربعون كل نقوده وزاده وقواه . فلم يبق معه حتى اجرة القطار . غير انه احس بقوة أعظم من المألوف . فعندما يصل سيجد سكينة جالسة أمام الكانون... لا شك فى ذلك... فاليوم هو يوم السوق وعند آذان العصر



تخبو فيخبو كل شيء فى المكان ..حتى الارواح حتى الاحلام . فكم مرة استيقظ عابر السبيل هذا وهو يدعو على الشيطان ... الذى طالما نقل اليه عبر الاحلام فى شبابه نساء لا يعرف صورهن ، ثم حرمه من حنان سكينة طوال ليالى الغيبة ... وقد كان مشتاقا اليها ..

واحس بوهج غير عادى يسرى فى اوصاله . شعر برغبة فى عمل ما يؤكد الحياة .. يؤكد الحياة فيه هو ... فى هذه اللحظة ... وتوا .

سيطرق عليها الباب فجأة ... بتلك الحلقة الحديدية الكبيرة التى تشبه الخلخال ...

وتبسم ، وجرى ريقه ... تحلب بغزارة كمن شم رائحة الشواء وحرك يد الفاس لينبعث الصوت المعدنى . انه قريب من صوت الشباك حين تحركه الريح وهو جالس مع سكينة ... ما اجمل وهج النار على وجهها الشاحب.. انه يكسو ضعفها حمرة يود أن تدوم . غير انه فى سبيلها يقطع الآن كل هذه الكيلومترات مشيا على قدميه . لقد نزل

البندر ذات يوم فاشترى لها منديلا من الحرير . كبيرا تعصب به رأسها . من اجل ذلك تلفت الحسبة فلم يجد مايكفيه. غير أنه لم يلبث الا قليلا حتى عاد اليه اقتناعه بأن ابتسامة حلوة من وجهها الذى يشبه حتى الآن وجوه الاطفال سينسيه كل المتاعب ...

وعاد يهز يد الفاس لينبعث الصوت المعدنى ... « ترن .. طن .. ترن .. طن » فأخذ نفسا عميقا .. « آه .. هانت .. انا الآن فى نصف الطريق »

ومع تنهد الراحة دخل الى مخيلته صوت جديد من خلال حركة الفاس هو صوت طشت النحاس حين تلقى به زوجته أمام رجليه وتصب فيه ماء ساخنا ... يضع فيه قدميه فيغمر البخار وجهه وتوقظ الحرارة قدميه الميتتين وتتمشي يد سكينة على ساقه لتغسل عنها الطين والتعب ويغمض عينيه ويسند ظهره ورأسه الى الجدار فى استسلام من يلقى بالهموم .. والزمام..والحب..فى وهلة صغيرة..

لكنه فجاة افاق من هذه الاحلام .. احس ببرد طارىء يسرى فى بدنه .. ولم يكن قد فطن بعد الى أن الشمس قد غامت . هناك سحاب فضولى جبار لا يعرف العواطف طمس مصدر الدفء . وبلا قصد وجد نفسه ينفخ فى السماء كأنه أراد أن يكشط عنها السحاب كما يفعل عادة برغوة اللبن . وضحك وحده فى الخلاء ونظر فاذا خضرة الحقول تتحول الى دكنة بعد أن انسحبت اشعة الشمس . واندفع قلقه فجاة الى رجليه .. أحس انه يثب احيانا ويعدو احيانا .. وتلفت فخشي أن يظن به الناس الظنون ... كسارق او مجنون .. فعاد يمشي الهوينا ... ويهز يد الفاس لترسل اليه لحنها الساحر من خلال المعدن الصامت الذى كساه الصدأ ...

وما لبث أن سأل نفسه « هل تحس سكينة الآن وهى فى الدار بما اقاسيه على الطريق ؟! » واجاب عن سؤاله بابتسامة . وهز رأسه مؤمنا على افكاره التى بداخل رأسه : انها تحبه ... حقيقة ان جمالها مصدر عذاب له . فلو لم تكن جميلة ما ترك مزرعة كامل جمعة التى كان يعمل فيها أجيرا دائما .. لكنه شم رائحة الخطر فلكى يمنع سكينة عن حقول كامل كان لا بد أن يخرج منها . واتخذ هذا القرار فى ليلة سوداء نشب العراك فيهابينه وبين سكينة عدةساعات منذ اقل من سنة .. وريح الخماسين تزعزع مصراع الشباك فتزقزق المفصلة « هكذا » ...

واخذ يهز يد الفاس فينبعث الصرير المعدنى . وتغير جوه النفسي كما تغير الجو الخارجى . وبدأ سحاب داكن يفد من الشمال الغربى . ورحبت خضرة الحقول بتلك اللمسة نتمايلت فى انتظار الشرب وشعر هو بالخوف .. فجاة.. كأن هذه الريح ستهب فتخطف سكينة أو تغرقه بطوفانها ..

وتوقف عن السير وجلس فى تعريشة من الحطب على راس حقل لكى يستريح ... شعر بالعناء عندما جلس ..وكان الهواء يعابث الاوراق الجافة الباقية فى اعواد الحطب فيرسل صوتا خشنا . ومدد ساقيه وتأوه .. « لو لم اشتر المنديل لسكينة لارحت نفسي من هذا العذاب » لكن ... ما أجمل لون وجهها

تحت منديل طرابيشي . انه أقرب مايكون الى وجوه البنات فى صباح العيد !!

وكان متاعه أمامه.. الفأس والجردل .. كانا كانهما ينظران اليه نظرة ودية ... أصدقاؤه فى القحط وعدته ومصدر رزقه ... و ... واضطجع .. كان المكان مسوى ممهدا .. سواه انسان ما قد رقد فيه من قبل . « ربما وحده.. وربما مع أحد » ... وتبسم ... وسحب عدته الى الامام لتكون فى مأمن معه فى هذا الكن .. وخيل اليه انه يرى حيوانات اليفة فى الفأس والجردل ... كانهما كائنات حية لا تنطق . فيهما مودة صموت من قبيل آخر غير مناغاة سكينة .

وهنا تحسس جيبه فخشخشت الورقة التى لف فيها المنديل ... كانت فى جيب الصدارى .. تحت ابطه الايسر .. فجعل يضغط ويضغط واغمض عينيه .. وخيل اليه انه يضغط على راس زوجته وانها تتأوه فى استزادة . وهناك دفء ينبعث من بطن الفرن مع رائحة خبيز .. « آه .. شيء لذيذ أن ... نشعر .. بالدفء .. بعد ... مشوار طويل .

سمع ضجة معدنية كانت صادرة من (الجردل) حينما مد ساقه فأصابته فترنح فسقط ... وعندئذ استيقظ من النوم ...

وجد نفسه فى مكانه من تعريشة الحطب .. منحته الدفء فنام .. وحلم انه فى احضان سكينة . ومد رجله فأسقط (الجردل) فاستيقظ . فكرة ادخلته فى حلم ... وخبطة أخرجته منه ... كذلك شأن المتعبين !!

غير أن الذعر ملأ بدنه كانه ضاع فى اليم . كان الجو قاتما والسماء تنذر بالمطر والنهار قارب أن ينتهى . فانتفض وتمطى وعلق الجردل فى يد الفأس وحملها على كتفه وسار لا يفكر فى شيء الا أنه يمشي . وكان النوم قد امده بقوة جديدة ولو انه أحس بالجوع.

ولاحت له مداخل القرية ... انه يعرفها .. هذا هو نور « الكلوب » يسطع من وراء نوافذ كامل جمعة المغلقة ... « الجبار ... كان يراود عنى سكينة ... سبب عذابى » وتنهد. وسره أن يدخل فى الظلام فقد تأخر عن بقية الانفار لانه مرض أربعة أيام فعوضها فى فرقة أخرى ... وذلك على كل حال خير من استرداد النقود ... « النقود ؟! » وهز كتفه الحرة التى لا تحمل شيئا لكن ذلك أدى الى سماع الصوت المعدنى الذى ملأ احساسه طول الطريق ..

وحرك حلقة الباب الحديدية التى تشبه الخلخال فى رفق فأرسلت دقات قلقة . وأتاه صوت سكينة من الداخل يقول « مين » وفتحت الباب فعرفت جسمه الطويل الذى سد فرجة الباب فهتفت كأنها تدارى سرا : « سليمان ... حمد الله على السلامة » .. فحرر يديه ثم احتضنها ...

وكانت خطى الليل تتقدم ... والدفء فى القاعة ممزوج برائحة الدهن والخبز واللحم والبصل ... وفى الركن تحت حمالة الملابس أطفال ناموا مبكرين . وكان سليمان يحكى لسكينة عن كل ما لاقى ... وتحسس المنديل الجديد على رأسها ... ذلك المنديل الذى اشتراه بثمن تذكرة السكة الحديد ... وكان

على الفرن وعاء من النحاس فيه ماء ساخن ينتظر حتى الصباح ... واخيرا ضحك سليمان قائلا لسكينة وهو يستسلم للنوم الحقيقى :«كنت واحشانى ياسكينة » ..

فاذا بها تبكى . فطار النوم من عينيه واخذ يسالها عن السبب فاعتصمت بالصمت فلما الح وثار قالت له :

ــ اصل ... آ ... كامل جمعة سال عليك ..

فجف ريقه وهمس سائلا :

ــ على انا ؟! والسبب ؟!

ــ يمكن تكون تحب تشتغل فى أرضه ... يمكن ..

فتعلق الكلام بينهما فترة كأنه تجمد ثم رد ثائرا محسورا :

ــ انا ؟! .. طبعا غير ممكن ..

فأطرقت تبكى وقالت بعد قليل :

ــ طيب .. وليه تأخرت اربعة أيام زيادة ؟

ــ انت عارفة السبب ياسكينة ..

فقالت من خلال دموعها وشهقاتها بطريقة لا يمكن ان يصل الى اعماقها سليمان الحكيم لا سليمان الزوج :

ــ أنا كنت عارفة انك رافض الرجوع عند كامل جمعة ... وعارفة ان الشغل ضرورى .. آ .. ؟! .. فهمت ياسليمان ..

فشهق الرجل .. كاد نفسه ينقطع .. فقد ادرك ان سكينة قد قبضت له أجر اربعين يوما أخرى من المقاول . وهذا هو سر رائحة الخبيز .. فقد جهزت « الزوادة » وهذا هو السر أيضا فى اللحم والدهن ورائحة التوابل ... وليلة واحدة دفيئة فى الدار ... كان من الممكن ان تكون ليالى اربع لو لم يتأخر هو هناك ...

وساد الصمت لكن سليمان مالبث ان نهض جالسا وقال بلهجة حماسية كان لا مفر منها لمن اجبر على خوض معركة :

ــ سكينة .. انا مسافر ... يحيى الشرف ويسقط كامل جمعة ..

القصة فى الأدب الانجليزى

« بحث » د. طه محمود طه

٥ - عصر التجارب : القصة فى القرن العشرين
٢ - الرمزية فى القصة الحديثة

---

١ - تقديم ..

لاحظنا ونحن نستعرض أثر العلم الحديث وعلم النفس أن أدب القرن العشرين ينحو نحو « التفتيت » والتركيز على « الكلمة » أو « اللفظ » وكأنه عالم صغير . ويقول «اليوت» فى هذا الشأن : «فى نقدنا للشعر لابد من أن نبدأ بالشعر نفسه» فما الشعر الا كلمات رائعة فى ترتيب رائع ووزن رائع » .

ويقول « ازرا باوند » : « ما الادب العظيم الا لغة مشحونة بالمعانى الى أقصى درجة » . وهذا التركيز على اللفظ واللغة فى القرن العشرين يعنى أكثر من اهتمام الأديب بحرفته ، فالشاعر الرومانتيكى مهما كان أمينا لرومانتيكيته لم يكن حريصا كل الحرص على ابراز معانى كلماته أو انتقائها بنفس الدقة التى ينتقى بها الشاعر الحديث كلماته ، تلك العوالم الصغيرة المشحونة بالمعانى .

ونرى هذا الاهتمام بالمفردات فى النقد فى نظرية وليم امسون كما نراه فى قصص فيرجينيا وولف وجيمس جويس . ولم يكن الشعر عند وردزورث سوى ذلك الفيضان التلقائى للعواطف القويه والشعر ما هو الا سيوله هذا الشعور القوى الفياض ، أما «اليوت» فيقول انه ليس للشاعر شخصية يريد التعبير عنها بل مجال معين ، وفى هذا المجال تلتقى الانطباعات والاحاسيس والتجارب وتختلط بطريقه غريبه غير متوقعه . فالأديب الحديث يحاول ان يحتفظ بذاته فى معزل عما يريد ان يتحدث عنه بطريقة موضوعية . ونقرأ لجويس فى « صورة الفنان » : « **يظل الفنان كخالق الكون ، فى ثنايا عمله أو خلفه أو بعيدا عنه أو فوقه ، لا نراه ، بعيدا عن الوجود نقيا لا يبالى ، يقلم اظافره** » . ولهذا يقول صمويل بيكيت عن جويس . « **ان جويس لا يكتب عن شىء ما ، ان ما يكتبه هو الشىء ذاته** » . والسبب فى هذا الاتجاه « هو أن دراسة الرمز وعلاقته بالمعنى » كما تقول سوزان لانجر « جعلت الفلسفه تسير فى طريق جديد » . وعندما يغير الفليسوف والعالم مشاكلهما يبدأ

الناقد الادبي في تغيير طريقته ويبدأ الاديب في النظر الى العالم من حوله والى تجاربه نظرة مختلفة وتبدأ القصة أو القصيدة في اتخاذ شكل جديد ، ويبدأ الادب في معالجة المواضيع بشكل مختلف لا بشكل تقليدي • والتغير في التكنيك ، سواء في القصة أو القصيده أو الفن بوجه عام من رسم وتصوير وفنون تشكيلية ، لم يحدث اعتباطا بل كان نتيجة لتفاعل عدة عوامل بعضها ببعض • ويمكننا ربط هذا التغيير بعلم الفيزياء الحديث واهتمامه بالعالم الميكروكوزمى ، وربطه أيضا بعلم النفس التحليلى واهتمامه بالماضي وبالتجارب الكثيرة في حياة الفرد بل وبالرجوع الى ما يطلق عليه كارل جوستاف يونج « اللاوعى الجمعى » Collective Unconscious وما يذخر به من « صـور النماذج الأوليه » Archytypal Images

وكل هـذا بدوره له علاقته بالفوضى والقلق النفسى وبالحركة المستمرة فى النفس البشرية كالحركة الدائمة في الذرة نفسها •

ولم يتأثر الأدب وحده بهذه النظريات بل تأثرت بها سائر الفنون الاخرى كالرسم والموسيقى والتصوير • واذا قارنا لوحة من لوحات تيشان Titian (Tiziano Vecellio ١٤٧٧ ــ ١٥٧٦ أو هولبين ١٤٩٧ ــ ١٥٤٣ بلوحه لبيكاسو او سورا لبدا لنا الفرق جليا ولظهر لنا أثر العلم الحديث واضحا • فالفن القديم كان يعتمد على المحاكاة والتقليد للواقع ويظهر منه الرسام فى اظهار التشابه بين الأصل والصوره ، وكان الفن انعكاسا للحياة بالوانها واشكالها حول الفنان ، أما عند سورا Seurat مثلا فتبدو الصورة غير واضحة المعالم لانه يستعمل تكنيك « التنقيط » في الرسم أو ما يسمى Pointillism والطريقه هى ان يستعمل الفنان نقطا من الالوان الصافية دون خلطهـــا على لوحة الالوان ولا تظهر الصورة بوضوح الا عن بعد وبعد تركيز شديد وتبدأ الالوان فى الاختلاط بعضها ببعض وتمتزج لتعطى احساسا بالتوافق والانسجام الذى نراه بالعين • وهنا يظهر التشابه بين احدى هـــذه اللوحات وصفحات من صفحات قصة « فينيجانز ويك » لجيمس جويس أو قصه من قصص فرجينيا وولف • فالنقط الصغيره الزاهية الألوان فى اللوحة الزيتية تمثل الوصف الدقيق لما قد يبدو تافها فى شطحات الفكر وتداعى المعانى الحرة ، ولكن المعنى أو المغزى يظهر واضحا عندما نتأمل العمل الادبى كله •

وفى لوحات بيكاسو يظهر الاختلاف واضحا بين مانشاهده بأعيننا وبين مايراه الفنان ببصيرته • وقد توصل « سورا » الى هذا التكنيك بعد دراسه النظريات العلميه الحديثه فى عصره عن الألوان والعدسات ، وكانت طريقته تنحصر فى تحليل الألوان فى الطبيعه الى الوانها الأساسية ونقل هذه الألوان الى لوحته على هيئة نقط صغيره ويترك بعد ذلك لعين المشاهد تكوينها من جديد وتجميعها لكى تعطى الألوان كما كانت فى الطبيعه • ونجد فى مقال لفريجينيا وولف شيئا من هذا القبيل حين تقول :

تأمل ذاتك من الداخل وسيبدو لك ان الحياة بعيده كل البعد عن هذا • افحص لفترة قصيرة عقـــلا عاديا في يوم عادى • فالعقـــل يتقبل ما لا يعد أو يحصى من الانطباعات ، منها التافه والخيالى والزائل ومنها ما ينقش بصلب حاد • وتأتى هذه

الانطباعات من جميع الجهات ، سيل مستمر من الذرات التى لا تحصى ، وعندما تهبط هذه الذرات ، وعندما تتجمع لتعطى معنى ليوم الاثنين أو الثلاثاء ، نبدأ فى الاهتمام بأشياء لم نكن لنعرها اهتماما فى الماضى ، وندرك ان اللحظة الهامة ليست هنا بل هنــاك ... الا ينحصر عمل الأديب فى نقل هذه الروح المتغيرة التى لا نعرفهــا ولا نستطيع تحديدها ؟ .

وهكذا يحاول الأديب ان يعطى ابعـادا رمزية أو ميتـافيزيقية أو صـــوفية لما يصوره . ويحاول أن يزاوج بين العلم الحديث وعلم النفس والفن . ولهذا يتحلل الشيء الجامد ويتفتت تحت أثر الضوء فى لوحات « مونيه »
١٨٤٠ ـ ١٩٢٦ الذى كان مغرما برسم نفس الشيء فى اوقات مختلفه من النهـار ويقابل هذا التكنيك فى القصة وصف الشخوص فى فترات مختلفه من النهـار (قارن عوليس لجيمس جويس) وتسـجيل افكارهم وخلجات نفوسهم وتجـاربهم الذاتية وردود الأفعال السيكولوجيه لكل تجربه . وربما نرى التزاوج بين العلم والفن فى تطبيق النظريات العلميه عند الانطباعيين وهو الفن الذى تطور حتى وصل الى العنايه بالشكل عند سيزان واهتمامه بابراز التجسيد فى فنه ومنه الى التكعيبين وبيكاسوا حتى تصل الى الفن التجريدى والسريالى وفيه تظهر رؤى الفنان وعلاقتها بالمتغير فى علم الفيزياء الحديث وتداعى المعانى الحر عند فرويد وبالاحلام والهلوسّه . ويقابل هذا النوع فى الموسيقى موسيقى الجاز وفى القصة ما كتبه جيمس جويس فى قصته الأخيره « فينيجـانز ويك » Finnigans Wake . ونرى عند د . هـ . لورنس نفس الغوص فى العالم الميكروكوزمى الغريزى ، فالتسامى عنده ليس تساميا الى اعلى بعيدا عن المستوى الانسانى الى الأزل أو الله أو النور بل هو نوع من التسامى الى أسفل بعيدا عن المستوى الانسانى الى عالم الذره والالكترون ، عالم الغرائز والظلام والدوافع الجنسية الغريزية الخفية ، نوع من المضى فى طريق الجسد وتحليل دقيق للرغبة الجنسية حتى يصل الى نسيج الوجود والحياة .

٢ ـ الرمزية فى القصة الحديثة :

تعتبر الواقعية والطبيعية وكأنهما توأمان أنجبتهما مادية القرن التاسع عشر . والطبيعية كما طبقها أميل زولا ١٨٤٠ ـ ١٩٠٢ فى قصصه تعتبر أكثر قربا الى الناحيه العلمية المادية فى سردها وتعديدها وتحليلها للدوافع والتفاصيل البيئية . وقد تأثر به معاصرو القرن العشرين ومنهم الدوس هكسلى ١٨٩٤ ـ ١٩٦٤ والذى يقول فى احدى مقالاته الأولى :

« أنا طبيعى فى قصصى ، أراقب الحقائق وأسجلها . » أما الواقعية فتمثل الحياة بوجه عام وهى أقل اصرارا على الملاحظة الدقيقة العلمية من الطبيعية بتفاصـيلها الخارجية الدقيقة للشخوص والمواقف والبيئة . والادب الواقعى لا يخلو من الذاتية الرومانتيكية مهما كان الاديب مخلصا لواقعيته ، ونرى فى القصة الحديثة محاولة الأدباء لنقل هذه الواقعية الأمينة الى داخل النفس البشريه ذاتها . ففى قصص

فيرجينيا وولف مثلا نلاحظ عدم اهتمامها بالتفاصيل الخارجيه وانما ينحصر عملها فى التسجيل الأمين لخلجات النفس وشطحات الفكر فى شخوصها وأصبح تكنيك تيار الوعى يكون العمود الفقرى لمعظم القصص الحديثة • ويستغل جيمس جويس تكنيك تيار الوعى الى أبعد الحدود حتى ان بعض النقاد هاجموا طريقته لأنها تنقل شطحات الفكر لشخوصه دون انتقاء فنى •

والطبيعه كما قلنا تعتمد اعتمادا كليا على النظريات العلمية المادية وتؤكد ان كل الظواهر طبيعية ويمكن تفسيرها تفسيرا علميا منطقيا •

وشجع أدولف تين Taine ١٨٢٨ ـ ١٨٩٣ على انتشار المذهب الطبيعى فى الادب بنشره « تاريخ الادب الانجليزى » ١٨٦٣ و « فلسفة الفن » ١٨٥٩ وفيهما يشرح ويحلل الاعمال الادبية على انها نتاج العصر والبيئة ، حتى ما كان منها يعالج الحالات النفسية ، ويفسر كل شىء تفسيرا ماديا •

ولكى يفرق بين واقعيته الجديده وواقعية بالزاك وفلوبير ، أطلق زولا على طريقته فى الكتابة اسم « الطبيعية » ونشر مذهبه فى مقـاله عام ١٨٨٠ بعنوان « القصة التجريبية » • وقد يظهر الفرق بين الواقعية والطبيعية اذا ما اعطينا المثال التالى : لا يجد الواقعى غضاضه فى قطع حوار بين شخصين فى قصه ليقول لنا ان أحدهما قد ذهب الى المرحاض أما الطبيعى، وهو أحرص على تسجيل الحياة بتفاصيلها الدقيقة فلا يقف عند هذا الحد بل يلاحق شخصيته الى داخل المرحاض كمـا فعل الايطاليون فى افلامهم السينمائيه وكما فعل جيمس جويس فى قصته « عوليس » عندما لاحق مستر بلوم الى هذا المكان الذى قلما يجرؤ أديب على اقتحامه •

والواقعية والطبيعية ما هما الا رد فعل لرومانتيكية القرن التاسع عشر وحاولتا تنظيم ماده الرومانتيكيين الذاتيه الغزيره وتفسير غموضهم • ولكن سرعان ما بدأت الواقعيـة والطبيعية تفسحان الطريق أمام رمزيه القرن العشرين لان مادية القرن التـاسع عشر ونظرياته العلميه أصبحت لا يمكن الاعتماد عليهـا وأصبح التكنيك المنطقى المنظم فى السرد والوصف غير منـاسب لتصـوير الحقيقة التى اثبت العلم الحديث انها فى شطر كبير منها ذاتية وتتوقف لا على الشىء المراد ملاحظته بل على الفرد الذى يلاحظ وعقله •

وتمتد جذور الرمزيه الى أزمنة بعيدة • أما فى فرنسا فكان الغرض من حركة الرمزيين هو تحرير الشعر من الشكل التقليدى واضفاء نوع من القيمة الرمزية أو الروحية على المفردات أو على صور خارجية معروفة لاتمت لموضوع القصيدة بصلة منطقية • واذا نظرنا الى الأمام قليلا فسنجد مثل هذه الرموز فى القصة الحديثة : فى منجم الفضه فى « نوسترومو » وغرق السفينة باتنا فى « لوردجيم » لكونراد وكهـوف مارابار فى « رحله الى الهنـد » والسـيمفونيه الخامسه لبتهـوفين فى « هواردزاند » لفورستر والماء والطير والسحاب فى « صورة الفنان » والمفتاح وقطعة البطاطس وغيرها فى « عوليس » لجيمس جويس والمهرة والأرنب والمقعد القديم فى

« نساء تحب » للورنس والفنار والضوء والبحر والظلام فى « الى الفنار » ودقات ساعة بيج بن فى « مسز دالواى » لفرجينيا وولف والدراجة فى « آنتيك هاى » والمخروط فى « ضرير فى غزة » والموسيقى فى « تقابل الألحان » والانسان الفطرى النبيل فى « عالم جديد شجاع » لهكسلى ·

وقد استعاض الرمزيون عن استقامة العبارة بالاشارة فى الشعر وعن وصف الطبيعيين الدقيق والشرح بالاثارة · والرمزية فى القصة ، كما فى الشعر ، طريقة فى التعبير يدرس فيها الاديب الاحساس بما هو غير منظور ولاتعتمد على حاسة البصر بل تعتمد على موسيقى الألفاظ · ويطلق هكسلى على هذا النوع من التكنيك « موسقة القصة » · فالرمز يظهر ويكشف ولا يقدم ، يوحى ولا يشرح ، وعن طريقه يمكننا ن نصور اللا منتهى والأزلى ونجسده الى حد ما ، ويمكننا أن نشير الى المتناقضات كما يعمد اليوت الى استغلال الماء والنار والتراب كرموز للموت أو الدمار أو كرموز للحياة والاخصاب ·

وربما كانت الرمزية مقصورة على الشعراء الفرنسيين فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ولكن يجب ألا ننسى أن فيرلين عاش فى انجلترا وكان يجيد الانجليزيةوكان مالارميه يقوم بتدريس اللغة الانجليزيةكما أنبودلير قام بترجمة مقالات ادجار الان بو الى الفرنسية · وكان أهم مايميز شعر الرمزيين هو الخلط بين الحواس المختلفة (وهو التكنيك الذى يطلق عليه كلمة (Synaesthesia) ومحاولة الاقتراب بالشعر من الموسيقى وخاصة موسيقى فاجنر وكذلك الخلط بين الخيال والحقيقة ، بين احساسات الشاعر وتخيلاته من جهة وبين ما يراه ويفعله من جهة أخرى · وبهذا بعدت الرمزية عن العالم المادى الميكانيكى وعن الانسان على أنه حيوان اجتماعى يعيش عبدا للبيئة من حوله نحو الاهتمام باحساسات الشاعر نفسه ورؤاه حتى أخذ الشعر يبتعد عن الحياة العامة والواقع والمجتمع ·

ومعنى الرمزية صعب فى تحديده لأن الرمزية هنا لا تعنى الصليب مثلا كرمز للمسيحية أو الهلال كرمز للاسلام أو غصن الزيتون كرمز للسلام أو العلم كرمز للدولة · فالحركة الرمزية الجديدة تستعمل الرموز على خلاف ما استعملها دانتى فى «الكوميديا الالهية» ، فقد كانت رموزه معروفة وجرى العرف والتقليد على استعمالها · أما فى القرن العشرين فيقوم الشاعر أو القصصى باختيارها لكى ترمز الى أفكار وأحاسيس معينة فى ذهنه ، وتصبح الرموز أقنعة تخفى وراءها الفكرة المراد ايصالها · ويقول مالارميه :

يعمد الشعراء القدامى الى الكتابة عن الشىء كما هو ويضعونه أمامنا ـ وبهذا يخلو شعرهم من الغموض ، فهم يحرمون عقل القارىء من الشعور اللذيذ بقدرته على الخلق · واذا ماسمينا الأشياء فاننا نلقى بثلاثة أرباع المتعة التى نستمدها من تخمين معناها رويدا رويدا : ان مايسحر اللب هو الايحاء والاثارة ·

ولنستمع الى الدوس هكسلى :

هناك أنواع عديدة من التجارب الذاتية العميقة التى لايمكن تحليلها • احساس عميق ، مثلا ، ولنقل أنه شعور طاغ مفاجىء يعقبه استنارة داخلية أو ايمان •

والمشكلة اذن هى : كيف نعبر عن مثل هذه التجارب ؟

وهناك طريقتان : الأولى ، طريقة السرد المباشر والوصف ، والثانية ، هى طريقة الايحاء الرمزى ، وهنا لا نصف التجربة أو نذكرها بل نشير اليها ضمنيا • وهكذا يلجأ الأديب الى سلسلة من الأقوال التى تتمركز معانيها حول نقطة خارج الموضوع ذاته وتصبح هذه النقطة هى التجربة المراد وصفها •

وهكذا يمكننا الرمز من التعبير عن أشياء وتجارب لا يمكن التعبير عنها بطريقة موضـوعية ، ويمكننا من مزج اللامنتهى والأزلى بالمحـدود والزمنى ، واللامكانى واللازمانى بالمكانى والزمانى • ويكثر استعمال الرمز فى شعر المتصوفين ونجده فى القصة عند فرجينيا وولف والدوس هكسلى وفورستر ولورنس وجويس وان كان التصوف عند كل منهم له دلالات خاصة ومعنى مختلف فالتصوف أو الشعور بوحدة الكون أو تجميد الزمان أو تلاشى المكان عند فورستر مثلا يتم عن طريق العلاقات الفردية والصداقة ، وعند فرجينيا ولف عند الامساك باللحظة الآنية التى تشل حركة الزمن وتوقف سيولته ، وعند لورنس عن طريق الجنس وذوبان الشخصية فى ظلام منير ، وعند هكسلى فى فناء الذات المفكرة وهى رؤى المتصوف واحساسه بالشمول ووحدة الوجود وعند جويس عن طريق التأمل فى أشياء قد تبدو تافهة لأول وهلة ولكنها تفصح عن سرها عندما يحدث اندماج بينها وبين الذات التى تتأملها أو تتفجر معانيها وتصبح هى الكون نفسه لأنها تضمه وتحتويه • والرمز فى هذه الحالة ما هو الا محاولة من جانب الاديب لكى يمسك بخيوط الحياة جميعها وهو جالس كالعنكبوت هى مركز بيتـه ، لا يحـدث شىء على أطراف الدائرة الا ويعيـه ويدركه ويحس به •

والرمزية ثورة روحية على قصور « الكلمة » فى نقل الاحساسات والافكار ، وثورة على الرأى القائل بأن الاديب لا يمكنه أن يكتب عما لايراه أو يسمعه أو يشمه وهى ثورة على نوع معين من اللغة الانشائية التى تعتمد على الخطابية والافصاح والقول أكثر من اعتمادها على التلميح والاثارة • ويستعمل الرمزيون المفردات وكأنها عوالم صغيرة يمكننا قدحها بعضها ببعض وتفتيتها كما نفتت الذرة لتنطلق قوتها الكامنة فيها من اسارها الى ضـوء وقوة وافصاح • ويلجأ الاديب الى الرمزية عندما تعييه الحيلة ويجد نفسه مضطرا الى التعبير عن أشياء واحساسات وتجارب ومواقف قد لا تبدو منطقية لاول وهلة •

وصاحب استعمال الرمز فى الانتـاج الادبى نوع من الغموض زاد فى تعقيد مشكلة التوصيل لان الاديب لم يحاول أن يجعل انتاجه سهلا مفهوما وأخذ يتكشف عقله الباطنى ويستثمر رؤاه ونبذ المنطق ومراتب العقل وتحكم فى تدخل عقله الواعى ومنطقه فيما يكتب عن طريق العقاقير والخمر والتعب والحرمان والاجهاد والانغماس فى الرذيلة أحيانا والسهر • وأخذ يتوغل فى نفسه وفى عقله الباطن الى ابعـاد

ومسافات طويلة يصعب على الكثير منا ملاحقته فيها ٠ وهكذا يجد القارىء نفسه فى متاهة من الغموض والرمزية ٠ وساعدهم على المضى فى هذا السبيل نظريات فرويد ويونج فى علم النفس وأصبح المنطق والعقل ، وقد كانوا فيما مضى الدعائم القوية التى بنى عليها من سبقهم ماكتبوا ، لا فائدة منها ٠ وكان من نتيجة اختلال المجتمع الأوروبى أن بدأ الأديب ينظر الى داخل ذاته والى ما هو أعلى منه وأصبح منطويا على نفسه وأخذ تقدمه الفنى ينكمش كمحيط الدائرة الى داخل مركزها الساكن ٠ وحتى بعد الوصول الى المركز الساكن كان لابد للاديب من حركة أخرى وهى الصعود الى أعلى نحو الله أو الى أسفل نحو الشيطان كما فعل بودلير وفى هذا الصدد كتب هكسلى كتابه « الجنة والجحيم » وفيه يصف تجربته بعد أن تناول عقار « المسكالين » ويعتبر الكتاب تكملة لكتابه السابق « أبواب الحس الادراكى » ٠ وكذلك شجعت النظريات الحديثة فى الفيزياء على زعزعة الايمان بالنظريات القديمة فى المادة وقوانين الاستمرار وأصبح من الممكن لحقائق متنافرة أن تسير جنبا الى جنب ، وعندما شككت هذه النظريات فى السببية اختفى الأدب الواقعى والطبيعى الذى كان يعتمد على السبب والمسبب وكان من هذه النظريات الجديدة قد دعت من جديد الى الرجوع الى الميتافيزيقا واللامنطق ٠

وفى شعر الرمزيين يظهــــر تآكل التركيب المنطقى بوضوح ، واحلال تداعى المعانى وشطحات العقل والرغبة الطبيعية فى تحرير العــــامة واربـاكهم والتركيز على الالفاظ فى التعبير لا على ضرورة التوصيل ٠ وكل هذه المحاولات ، وان كانت تطور الشعر الا أنها جعلته بعيدا عن متناول العقل السليم والمنطق السليم وما يؤسف له أن يحدث مثل هذا الفصل بين الشاعر وجمهوره ولكن الجمهور مسئول عن هذا الاتجاه كالشاعر تماما وأصبحت الرمزية ثورة روحية فى الأدب ضد كل الحركات الادبية التى تصور وتصف الاشياء والمواقف التى نراها بأعيننا فقط ٠ ويقول آرثر سيمونز « فى تسمية الأشياء قضاء عليها ، وفى الاشارة اليها خلق لها » ٠ وعملت الرمزية على تخليص الادب من فن الخطابة ومن عبوديته للأشياء الخارجية المنظورة المألوفة ، ومن التركيز على الشخوص الانبساطية النزعة ، ومن الوزن فى الشعر ومن تصنيف وترتيب الظواهر الطبيعية وحوادث الحياة ووصفها فى اطار منظم وفى سرد زمنى منطقى ٠ وعملت الرمزية على تخليص معظم الفنون من عبوديتها للمادة التى حدثت من انطلاق الروح والخيال والتأمل ، وبهذا أمكن للأدب أن يتحرر ويصبح كما يقول آرثر سيمونز «نوعا من التدين بكل واجبات الطقوس المقدسة ومسئولياتها»٠

وقد تمكن القصاصون عن طريق الرمزيين فى الشعر من استعارة التكنيك نفسه ٠ ونحن لا نستطيع أن نتخيل الطريقة التى تكتب بها فيرجينيا وولف أو يكتب بها جيمس جويس أو بروست دون أن نأخذ فى الاعتبار مالارميه وبودلير مثلا ٠ فقد أراد مالارميه أن يخلص الشعر من الأغلال التى تقيده الى المضمون أو المعنى الدقيق للمفردات ٠ فالكلمات لابد لها ، عن طريق احتكاكها بعضها ببعض ، وعن طريق الايحاء والضغط والمزج ، من أن تفوح بعطرها كما نسحق الزهرة لكى ينتشر شذاها فى الجو ، وبهذا تنطلق المعانى والدلالات منها ٠ واذا لم يكن مالارميه قد نجح فى

هذا ، فان الاديب الذى استطاع أن يفتت اللفظ ليظهر ما بداخله وعلى نطاق واسع هو القصصى جيمس جويس فى قصته الاخيرة « فينيجانز ويك » • وسنحلل عبارة قصيرة فيها وهى Whorled without aimed ويمكن تحليلها على أنها تعبير عن فكرة جويس عن العالم أو الكون كما ينظر اليه العلم الحديث « فالكون لا نهاية له » أى أن الكون World without end ويبقى لدينا « الفعل » Whorl أى ان الكون يدور حول نفسه « كالحلزون » وفى كلمة aimed نرى كلمة aim أى هدف أو غرض ومعنى العبارة كلها أن العالم أو الكون يدور حول نفسه كالحلزون أو اللولب الى مالانهاية وبدون هدف •

وكان من نتيجة التجديد فى تكنيك القصة ظهور نوع جديد من الاحساس ونوع جديد من الابتكار يستطيع به الأديب أن يكتشف مستويات وجوانب عديدة للحقيقة• ولقد كان الادب دائما فى الطليعة فى اكتشاف طبقات جديدة ، ولكن فى عصرنا هذا ، وكنتيجة للتغيرات السريعة فى المجتمع والعلم والفلسفة ، ظهرت طرق جديدة فى النظر الى العالم • والادب ما هو الا انعكاس للحياة وتقليد لها ، ما هو الا عملية « قهر » جديدة أو فتح جديد فى عالم الوحى والحقيقة واظهار لنوع جديد من الوعى كان نائما ساكنا فى نفوسنا ، نوع من الحقيقة كان مدفونا تحت أشكال قديمة بالية من التفكير والتجربة • واذا تمكن الأديب من اظهـــار هذه الحقيقة الخافية الكامنة ومكننا من القبض عليها فلا يصبح العمل الادبى فى هذه الحالة انعكاسا لشىء ما ولكنه يعتبر خلقا جديدا • وليس هنـــاك أدب حقيقى دون هذه الرغبة الملحة فى الكشف عن شىء جديد والتعبير عما كان يعتبر من الصعب التعبير عنه • فالادب اذن ماهو الا محاولة لازاحة الستار عما كان خافيا عن اعيننا وتوصيل نوع جديد من الحقيقة وبهذا يستطيع الأديب أن يغير وجهة نظرتنا للحياة والأشياء • فالتجديد والتجريب فى الادب ما هو الا انعكاس للتجديد والتغيـــير والتجريب فى نظرتنا للحقيقة والعالم من حولنا • وحينئذ لابد لنا من أن نهجر القول السائد بأن الحقيقة شىء ثابت مستقر مطلق • وقبل مطلع القرن العشرين كانت الفكرة السائدة هى أن العالم أو الكون ثابت لا يتغير واننا نعتمد على حواسنا فى ادراكنا له ، وكانت كلمة « وضوح » تعنى الوضوح للعين التى ترى • وهدم علم الفيزياء الحديث هذه النظريات وتداعى المذهب الواقعى والطبيعى لأن الواقع لم يعـــد « واقعـا » بل أصبح متغيرا لا يستقر على حال ، حتى الصخرة التى تبدو صلدة لنا وساكنة فى حركة مستمرة وأصبح الواقع نسبيا ، شيئا يعتمد على نسبية قدرتنا على الاحساس به وعلى قوة الاحساس نفسها ، وأصبحت « الحقيقة » فى القرن السابع عشر تختلف عن «الحقيقة» فى القرن العشرين مثلا • والرمزية فى أبسط صورها ماهى الا محاولة من جانب الاديب لكى يجعلنا نفهم الحقيقة وندركها دون أن نراها • فالايحاء والاشارة اذن هما طريقتان فى الرمزية ولكن الرمزية تتضمن أكثر من تعريف هكسلى أو مالارميه لها • ويقول ادموند ولسون ان كل احساس أو شعور أو لحظة من لحظات الوعى تختلف عن الأخرى ، ولهذا فمن المستحيل علينا ان نعبر عنها كما نحس بها عن طريق اللغة العادية المستعملة فى الاعمال الادبية • فلكل شاعر شخصية مميزة فريدة ، وكل

لحظة من لحظات تجاربه لها نغمتها الخاصة وتكوينها الخاص وعناصرها المختلفة •
وينحصر عمل الشاعر فى ايجاد وابتكار لغة خاصة يستطيع بها وحدها أن يعبر عن شخصيته وتجاربه • ولابد لهذه اللغة من استعمال الرموز لأنه لا يمكن التعبير عن كل ما هو مميز وفريد وغامض وسريع وعابر بعبارات مباشرة أو بوصف مباشر دائما يمكن التعبير عنه عن طريق تسلسل كلمات وصور قد توحى للقارىء بهذه التجربة •

وبدأ الرمزيون فى محاولة جعل الكلمات والصــور فى القصيدة تقوم مقام النغمات فى الموسيقى ، والعقبة هنا هى أن الكلمات والصور والمفردات ليست لها صبغة النغمات فى الموسيقى وأصبح من العسير على القارىء متابعة الصور المتلاحقة •
وعلى كل حال يمكن تلخيص الرمزية على أنها « **محاولة عن طريق وسائل مدروسة بحرص لتوصيل شعور ذاتى فريد عن طريق تداعى وترابط افكار يساعد على ابرازها خليط من الاستعارات والتشبيهات** » •

وكان استعمال الرموز وقفا على الشعر فى بادىء الأمر ، ولكن سرعان ما امتدت آثار الرمزية حتى شملت أنواع الادب كلها • ونجد اديبافيل جويس يستغل فى قصته « عوليس » كل امكانيات الرمزيه والطبيعية ويتميز عن بروست فى هذا الخلط العجيب اداته • ففى قصة بروست يطغى التحليل النفسى وتيار الوعى على الوصف الطبيعى ويغمر القصة كلها كالطرفان حتى فى الاجزاء التى يجب أن يكون الوصف فيها طبيعيا • ولكن سيطرة جويس على عالمه لا تكل ، فقصته ترتكز على الوصف الطبيعى بينما لا يحدثنا بروست عن سن شخوصه أو عن أحوالهم أو حتى يبين لنا اذا كان مايتحدث عنه يختص بأحلام أو أحلام يقظة • أما « عوليس » فلها تركيب قوى ونسيج متين ولم ينس فيها جويس أى شىء من التفصيلات الدقيقة • ولكن الغموض يبدأ عندما ندخل الى رأس أحد شخوصه ونستعرض أفكاره معه ونجد العالم الذى أمامنا عالما غامضا مثل عالم الرمزيين تماما ، ولكننا بالرغم من كل هذا نحس براحة ونحن فى احدى عقول أحد شخصيات جويس أكثر ممانحس ونحن نقرأ لاليوت أو مالارميه أو بودلير ، لأننا نعرف الكثير عن شخوص جويس وعن أحوالهم ، ولكننا نواجه مشكلة الفصل بين العواطف والاحاسيس والأفكار وخاصة عندما يخفى أحد الشخوص بعض الأفكار أو الكلمات عنا ويدفع بها الى عقله الباطن وتبدأ محاولتنا فى الكشف عنها • وتنحصر طريقة جويس فى « عوليس » فى التنقلات السريعة من الوصف الطبيعى والواقعى الى الايحاء الرمزى •

وفى القصص الرمزية لايكون الرمز دائما هو العامل الوحيد الذى يشدنا اليها ، فالرمز يساعد الى حد ما على تنظيم أفكار الكاتب وايحاءاته ويساعد على توسيع محيط التجربة المراد ايصالها • وربما يكون للرمز معنى فى موقف واحد فقط ، أى أن الرمز يظهر مرة واحدة أو مرتين ثم يختفى من القصة بعد أن يخدم الغرض الذى من أجله استعمله الكاتب • وقد استعمل القصــاص الفكتورى الرمز كما بينا فى البحث السابق ولكن معناه كان محدودا فى اطار القصة نفســها ولا يعدو أن يكون أداة يستعملها القصصى ولا يوحى بأكثر ماتوحى به الشخوص أو المواقف ويصبح الرمز

كشخصية من شخوص القصة . وربما يكون الرمز موحيا بالكثير ويصبح محورا تدور حوله حوادث القصة كلها ويكون أثره قويا سواء فى شكل القصة أو مضمونها . كالماء والطير والسحاب فى « صورة الفنان » لجيمس جويس مثلا . وهكذا يختلف استعمال الرمز فى القصة فى القرن العشرين عن استعماله فى القصة الفكتورية . ففى القصة الحديثة يعمل الرمز على مستويات مختلفـــة ويوحى أكثر ويعمل الى الخارج ولو أنه يكون غامضا فى بعض الأحيان . فالماء فى « صورة الفنان » يوحى بأشياء كثيرة منها « الماء » الذى يبلل به الطفل الفراش ، والماء القذر فى الحفر على جانبى الطريق ، والماء المتسخ فى الحمام وفى الأحواض وماء الحياه وماء التعميد . وستيفن فى القصة يكره الماء لانه لا يعتقد أن النظافة من الايمان والمـاء يرمز الى ايرلنده نفسها ، والى الأسرة والى الكنيسة والى حياة الطبقة الوسطى ـ يرمز الى كل شىء يريد البطل أن يهجره لكى يحافظ على قوة الخلق الفنية فى نفسه . فالماء فى هذه الحالة يرمز الى الموت . ولكن الماء هو ماء التعميد وماء الحياة ولابد « لستيفن » من أن يلقى بنفسه فى الماء لكى يجدها ولكى يتطهر . وهكذا تحتضن الرمزية فى الماء الحياة كلها ولهذا فالفرق بين جويس وديكنز مثلا فرق كبير ، فجويس لا يتحدث عن الماء بمثل حديث ديكنز عن الضباب مثلا (قارن البحث الثالث فى مجلة القصة عن الرمزية عند ديكنز) وانما يشير جويس الى المواقف التى نرى فيها الماء ويدع خيال القارىء يربط بين الموقف والرمز ويكتشف أبعاده وأهميته . أما ديكنز فيصر علـى وضع الرمز أمام أعيننا خشية أن يفوتنا المغزى وبهذا لا يصبح رمزا يوحى بالغموض والاثارة وشتى الانفعالات . والفرق بين الطريقتين يرجع الى عنصر التوكيد . وتصبح القصة الحديثة أصعب بكثير من القصص القديمة ، فالقصة المكتوبة بحرص تتطلب من القارىء الحرص فى القراءة والوقوف وقفات مستأنية عند كل معنى . ومما يزيد فى تعقيد القصة الحديثة فى شكلها ومضمونها هو عدم وضوح الرمز ومعانيه ، فربما يعنى الرمز الواحد أشياء كثيرة : حوادث عابرة ، صورا عرضية ، محادثات مقتضبة ، شخوصا ثانوية ، مناظر خارجية . وعندما ينضج الأديب وتزداد قوة تخيله يستطيع أن يصقل رموزه ويجعلها أكثر ايحاء ، لأنه عندما يشعر أنه كلما زادت آفاق معارفه واحساساته وتجاربه كلما تحتم عليه أن يكتشف رموزا جديدة تساعده على التعبير ، ولهذا يجب على القارىء أن يكون حريصا ، والا ضاع المغزى الرئيسى منه . وفى قصص معينة مثل « نوسترومو » لكونراد أو « مسز دالوى » لفيرجينيا وولف أو « عوليس » لجيمس جويس أو « رحلة الى الهند » لفورســـــتر أ « تقابل الألحان » لهكسلى ، والتى تعتمد على تكرار ظهور صور ورموز معينة ، ربما يغيب عن القارىء تسلسلات بأكملها اذا لم يكن متيقظا لمثل هذه الرموز .

وقد استجابت القصة الحديثة للآراء الجديدة أكثر من استجابة أى نوع آخر . والأثر الأكبر كان عن طريق علم النفس من فرويد وبرجسون ويونج ووليم جيمس . وفى الوقت نفسه كان القصصى يستعمل الرموز لـكى يحاول الوصول الى العالم الخارجى من حوله والالمام بأشياء كثيرة . وكان العالم النفسى قد توصل الى طرق جديدة فى الكشف عن الدوافع النفسية وأصبح قادرا على تفسيرها بدقة الى حد ما .

ويمكننا اعتبار الرمزية وكأنها مكملة لعلم النفس لأنها توحي بنظام سطحي خارجي بينما توحي في الوقت نفسه بتعقيد أكثر • فالرمز يجمع ويعقد في آن واحد ، يعطي ولا يعطي ، يشرح ولا يشرح • وقد وضعت الرمزية وعلم النفس الأديب في مركز هام ، فالرمزيون ينظرون الى الفنان على أنه مهبط الالهام وعلى صلة مباشرة بالعقل الخلاق عندما ينفذ من « أبواب الحس الادراكي » ويعتبره علماء النفس بؤرة ومصدرا نورانيا تشع منه الأحلام والرؤى والتخيلات التي تنفذ اليه من « اللاوعي الجمعي » •

وفيما مضى كان الكاتب يحرص على تحليل الدوافع ويعتمد على المذهب السلوكي والارادة والحتمية ، ولكن هذه الاتجاهات اختفت من القصة المعاصرة بشكل ملحوظ • وعندما حرم الأديب من هذه الافكار كان من الطبيعي أن يجتهد في قهر آفاق أخرى وطرق أبواب جديدة • وبدلا من تحليل البيئة وتصرفات الفرد الخارجية وما حوله اتجه الى الانسان نفسه وتحليل دوافعه • وبالرغم من وجود شخوص فذة في قصص الأدب الفكتوري الا أن معظمهم من الصنف الانبساطي النزعة ومعرفتنا بهم تنحصر في معرفة السطح ولا تتجاوز أبعادا نفسية أخرى • وبالرغم من نجاح القصصي الفكتوري في رسم الشخوص الا أن فيرجينيا وولف أطلقت عليهم في مقال لها عن « القصة الحديثة » لقب « الماديون » وقالت عن جويس أنه « روحي » لأن القصصي الفكتوري كان مقيد بالتقاليد وكان يهتم بما « يراه » بعينه • ويستعمل هكسلي طريقة تقابل الألحان لكي يعبر عن التقابل الذي يحدث بين الشخوص والمواقف ، ويعمد فورستر عن طريق الموسيقى الى الكشف عما هو تحت العقل الواعي ويزيح الستار عن أماكن يعجز القصاص الفكتوري عن الكشف عنها •

وبالاضافة الى هذا غذى فرويد وأتباعه القصاص الحديث بأفكار جديدة فتحت أمامه آفاقا رحيبة في التخيل والتعبير • وقد نفى فرويد الفكرة القائلة بأن الانسان يولد وله شخصية خيرة أو شريرة وهي فكرة كثيرا ما قادت الى الميلودراما أو العاطفة • وبعد فرويد أصبح للشخصية أوجه عديدة يستعملها القصاص لكي يبين ويوضح الفوضى التي يمكن السيطرة عليها في العقل البشري • واضطر الأديب لكي يوحي بتضارب الأفكار وسيولتها وعدم جريانها على نسق واحد في العقل الواعي الى أن يستعمل نفس التضارب والتناقض وعدم التناسق في القصة شكلا وموضوعا• وهكذا يسرد لنا سلسلة من الأفكار يظهر فيها تداعي المعاني الحر بدون نظام منطقي• والمنطق أو النظام الوحيد الذي يستعمله الأديب هو المنطق الذي يسهل له عملية السرد اللامعقولة هذه • فقصة « عوليس » لجويس مثلا ، هي قصة مكتوبة بطريقة منطقية وعقلية علمية موضوعية ولكنها قصة توحي باللامنطق • ولهذا يختفي «البطل» من القصة الحديثة رويدا رويدا ويصبح في بعض الأحيان انسانا تافها مضحكا يرزح تحت عبء الرذيلة ويقاسي من الضعف والهزال ولكنه مع هذا انسان ناضج يفهم مايدور حوله ، انسان طيب بسيط يكاد أن يكون « عبيطا » •

وقد ساعد فرويد ويونج على ابراز حقيقة الرمز وكيف أن الرمز لا يعبر عن شيء واحد فقط بل يعمل على مستويات عديدة • ويكفي أن نقول ان الرمز يحمل عادة عكس مايتضمنه اما في العقل الباطن أو في الأحلام • وهكذا تتضافر جهود الرمزيين

وعلماء النفس التحليلي على خلق أفكار جديدة عن الشخصية والدوافع النفسية • وأصبح التحدث عن الجنس ورموزه ومشاكل الزواج والعائلة والاحباط والكبت من الأمور التي تعالجها قصص هكسلي ولورنس وجويس • وحتى في قصص فيرجينيا ولف وكونراد وفورستر التي يبدو أن الجنس لا يلعب فيها دورا هاما نجد تيارات خفية تشير الى الاهتمام بالجنس والدور الذي يلعبه في حياة الشخوص •

ويعد يونج من أبرز المشتغلين بعلم النفس بعد فرويد ، وقد أنكر تفسير فرويد للجنس على أنه الدافع القوى في الحضـــارة الغربية • ووضع يونج نظريته في « اللاوعى الجمعي » للجنس البشرى على أنه مستودع لكل مايعتبر محرما • وفي هذا المستودع الذى يرثه كل فرد يولد في حضارة معينة ، يمكننا أن نكتشف أصول العصاب والأسطورة • وهكذا يصبح الانســـان المتحضر الراقى على صلة وثيقة بالانسان البدائي من الناحية الحضارية • وأصبح من الممكن للأديب أن يشير الى هذه العلاقات ويتعرض للأساطير القديمة ويفسرها في ضوء التجارب المعاصرة • وقد أضاف « يونج » الى العقل البـــاطن وما يحتويه من ذكريات وتجارب عند فرويد مستودعا آخر تحتفظ فيه البشرية « بصور النماذج الأولية » لرموزها • ويقسم يونج هذا المستودع الى جزء علوى يطلق عليه « اللاوعى «Personal Unconscious» وهو السطح لوعاء آخر لا دخل للتجارب الشخصية الماضية فيه ولكنه يولد مع الفرد ولكنه ليس فرديا أو شخصيا ، ولكنه « جمعى » بمعنى أننا نشارك جميعا فيه ونحس به • ويقول يونج ان كلمة « النموذج الأولى Archetype» تعنى صورا ورموزا في العقل الباطني من قديم الزمان ولا تعدو أن تكون أشكالا رمزية بدائية للعالم أو الأسطورة أو الخرافة • وتتوارث محتويات اللاوعى الجمعي من أزمان ســـحيقة في القدم • ولا يمكننا تفسير هذه النماذج والرموز تفسيرا موضوعيا لأن عقل الانسان البدائي لا يهتم بالتفسير الموضوع للأشياء لأنه من النوع الانطوائي Introvert. فالانسان البدائي كالطفل لا يميز بين الشيء والذات Object and Subject فاذا أثار الشيء في نفسه عاطفة نجده يميل نحو رد هذه العاطفة التى يحس بهـــا الى الشيء نفسه الذى أثارها وما يدركه في هذه الحالة هو رد الفعل وليس الشيء نفسه الذى جلب هذا الاحساس العاطفي أو التخيلي أو العقلي وهذه الطريقة لا تميز الانســـان البدائي فحسب بل نراها في بعض المجتمعات المتحضرة نسبيا كالعصور الوسطى مثلا • فاذا أثار شيء ما في نفسنا الرعب أو الخوف فرد الفعل السيكولوجي هو أننا نعتبر هذا الشيء مخيفا •

ولهذا لا نجد الانسان البدائي يهتم بشروق الشمس وغروبها كظاهرة طبيعية أو يحاول تفسيرها عمليا منطقيا ، ولكنه يحاول أن يضمنها بعدا نفسيا عاطفيا آخر، فهي اذن تمثل طريق سير بطل أو أنه وقس على هذا المنوال باقى الظواهر الطبيعية كالرعد ــ الذى يظهر واضحا جليا في قصة « فينيجانز ويك » على هيئة كلمة طويلة من مائة حرف أربع مرات في القصـــة كلها ليوحى ببدء دورة جديدة في تاريخ البشرية ــ وكالصيف والشتاء وأوجه القمر المختلفة ، والفصول الممطرة والمطر نفسه والفيضان والجفاف والرعد والبرق • وكل من هذه الظواهر الطبيعية تحكى له قصة

رمزية تتعدى الظاهرة الطبيعية · وهذه القصص الرمزية لا تشرح شروق الشمس أو غروبها أو حلول الصيف أو الشتاء أو باقى الظواهر بل ما هى الا تعبيرات رمزية عن الدراما النفسية التى لا يمكن أن يقبض يسيطر عليها العقل الواعى الا عن طريق ابرازها وانعكاسها فى ظواهر طبيعيـــة · ويســـتطرد يونج فى كتابة « تكامل الشخصية » (The Integration of the Personality, pp. 52-95) ·

ويتحدث عن أنواع أخرى من الرموز كالحية والطائر والحصان والذئب والثور والأسد والدودة والتمساح ويقول ان « الحيـــة » وحدها يلزمها فصل بذاته · أما الضفدعة فلها مكانة خاصة لأنها حيوان برمائى تذكر الانسان بنظرية داروين فى التطور · ويضـــيف الى قائمة رموزه العديدة الأقبية والكهوف والممرات المائية والبحر والنار والماء · فالكهف والبحر يشيران الى حالة اللاوعى بظلامها وأسرارها · والنار توحى بالاثارة العاطفية ويرمز وضع وعاء على النار الى بدء التحول والتغير فى الشخصية · و « المطبخ » يرمز الى المكان الذى تتم فيه عملية التغيير الخلاقة · وفى بداية الشىء تكمن نهايته والأسلحة والآلات ترمز الى الارادة · أما الشجرة فترمز الى الجذور والاستقرار أو الراحة والهدوء أو النمو أو التحليق فى الفضاء أو التسامى أو العطف عندما نستظل باغصـــانها أو ترمز لاقتراب السماء من الارض · ويضيف يونج الى هذه الرموز رموزا هندسية أخرى كالصليب والدائرة والمربع والمثلث والمخروط والعجلة والنجم الخماسى والسداسى والبيضة والشمس · ومن الرموز السلبية العنكبوت والشبكة والسجن ·

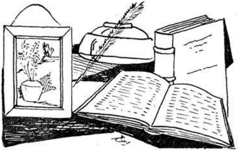
وتذخر القصص الحديثة بهذا النوع من الرمزية المعقدة ويكفى أن نشير الى المهرة والبحيرة فى قصة لورنس Women in Love والمخراط والحلزون والدائرة فى « ضرير فى غزة » لألدوس هكسلى والسمكة وبيت العنكبوت فى « لابد للزمن من وقفة » لهكسلى أيضا ، والبحر والأمواج والطيور والماء فى «صورة الفنان» لجويس والكهوف والزنبور والدودة فى « رحلة الى الهنـــد » لفورستر · وقد أمكن للأديب عن طريق الاشارة الى هذه الرموز والأساطير من أن يشير الى أثرها فى حياتنا المعاصرة ويعيد تفسيرها لكى يقارن أو يبرز العـــلاقة بينها وبين مايحدث الآن · والاستفادة من الاسطورة مهمة للغاية وخاصة عندما يجد الأديب نفســـه فى عالم يخلو من القيم ، وتهمنا الأسطورة عندما نقارن بين شخوص أو مواقف من الماضى وشخوص ومواقف حديثه ومن هذا التقـــابل بين الماضى والحاضر ـ كما يظهر فى « الارض الخراب » لاليوت تنطلق المعانى ويتضح المغزى · وأعظم صانع للأساطير هو جويس ، فقد اتخذ لقصته « عوليس » أودسه هومر كنموذج ونجد اشارات عديدة فى « عوليس » الى الاوديسة كما يظهر وجه التشابه فى التركيب واضحا وقد أشرنا الى ذلك بالتفصيل فى البحث السابق ·

ولم يكن جويس هو الوحيد الذى استعمل الأساطير القديمة لأن معظمها كان يدور فى عقول الأدباء ومعاصريه · وقد جعلت الاكتشافات الأثرية والأنثروبولوجية فى افريقيا وآسيا وكريت مضافا اليها كتب سيرجيمس فريزر الانســـان يتجه الى

الحضارات القديمة ليكتشف جذور حضارته ويتعلم شيئا عن نفسه وعن طفولته ٠ ويظهـــر الاهتـــمـــام بالأســـاطير فى أعمال د ٠ هـ ٠ لورنس وخاصة فى حين يهتم « بيركين » بتمثال لامرأة افريقية ويجد فيه ما يبغيه وكذلك فى قصته أو فى قصته القصيرة « الرجل الذى توفى » وفيها يعيده The Plumed Serpent (المسيح) الى الحياة ويزوجه من ايزيس ٠ وفى قصة الدوس هكسلى « عالم جديد شجاع » ، يحاول هكسلى أن يبتكر أسطورة جديدة للرجل الحديث يبدو فيها كالآلة ويقارن بينه وبين الانسان الفطرى النبيل ٠ وهكذا أصبحت كلمة « طبيعى » فى أدب القرن العشرين تعنى الرجل الفطرى النبيل ، الانسان الذى كان يؤمن بالأساطير ولا تعنى أدب السبب والمسبب ٠ وقد عبر لورنس وفورستر وكونراد وهكســلى عن السأم الذى يعانى منه الانسان الحديث نتيجة لمادية القرن العشرين واتجهوا الى تمجيد خصال الرجل الفطرى وتكامل شخصيته ٠ وهكذا انقلبت القصة بشخوصها رأسا على عقب وأدرك الأديب أن الخلاص لا يأتى الا عن طريق الفرد نفسه لأنه يكمن فى النفس البشرية ذاتها ٠ ويكفى أن نختتم هذه المقالة عن الرمزية فى القصة الحديثة بعبارة من امرسون يقول فيها :

نحن رموز ، ونسكن رموز .We are symbols, and we inhabit symbols

وفى المقال التالى نرجو أن تناقش أثر التكنيك الســينمائى والموسيقى فى القصة الحديثة ٠



الوهج

قصة من الادب الروسى
كتبها لودفيك اشكنازى
ترجمة : هدى السيد

متولى

ولد لودفيك اشكنازى عام ١٩٢١ ، وعمل كمحرر وصحفى ناجح ، كما أشتهر ككاتب قد أسهم فى النهضة الادبية الحديثة فى تشيكوسلوفاكيا ـ وفى أثناء الحرب الماضية اشترك لودفيك فى صفوف الجيش السوفيتى . واستدعى عمله كصحفى ان يسافر الى عدة أقطار كبولاندا والمانيا ، والولايات المتحدة وغيرها ـ وقد سطر صورا ادبية رائعة بادىء الامر ، ثم ظهرت موهبته القصصية فى كتابة القصة القصيره الناجحة .

ـ الوهج ـ

بدأ ستانيزلاف برابك عامل الصهر ، وقد أبلاه المرض وجارت عليه السن ، وظهر شعره وقد شاب البياض مما أضاف الى عمره سنوات ، وكساه مظهر الشيخ العجوز ولو لم يكن طاعنا فى السن . كما تناهى الى علم الجميع انه مصاب فى عضلة القلب ، وقد أكد ذلك ـ جهاز رسام القلب الموجود فى عيادة عيادة العمال بأن ظهرت خطوطه مضطربة غير منتظمة ـ وذات يوم وبينما هو يمارس عمله كعادته واقفا امام مرجل الصهر ، اذ بقوته تخونه ، فيسقط فى اغماءه طويله . اسرع اليه زملاؤه فى المصنع يقدمون له يد العون. كان وجهه شاحبا كالموتى ، يسبح فى سيل من العرق البارد .

وقد ظل ستانزلاف برابك ، عامل ثلاثين عاما ، يسهر ليله امام مرجل الصهر ، يعمل فى ورديات ليلية زهاء الصهر وينام نهاره طلبا للراحة . وهكذا مرت السنون وولت ، وولت معها صحته وقوته . خفتت دقات قلبه وعجزت ساقاه عن حمله ، وظهرت العلامات الحمراء والخضراء تتراقص أمام عينيه ، فخر صريعا من فرط ضعفه واعيائه نعم لقد قضى ستانزلاف برابك السنين الطوال عاملا أمام مرجل الصهر المتاجج حتى امتص هذا الأتون الجبار نخاع عظمه ... اليس من الافضل أن يمنح أجازه حتى يسترد صحته !

وهكذا أرسل عامل الصهر العجوز الى مدينة بوديبراوى سيا ، كى يعالج بالحمامات الصحية ، ويظل تحت الاشراف الدقيق . وكان بين الفينه والفينة يقضى بعضا من الوقت فى قلعه الملك جورج ـ ذلك المكان الجميل .

وهناك فى حديقته الفناء كان يجلس أمام النافورات الجميلة شاردا ، يتأمل فى صمت المياه المنبثقة من عيونها تتراقص فى تيه ودلال . ثم يمسك بعصاه ويخط بها على الرمال رسوما غريبة، تمثل أشكالامتباينة من الأسماك والازهار . وفى بعض الاحيان كانيتنزه فى قارب شراعى فى نهر الالب الى بلدة « كولين » . كان يرى مستندا بذراعه الى حافة القارب ، وقد ارتسمت على صفحة وجهه امارات الاسى ، يشخص بنظر شارد الى أمواج البحر الحانيه وهى تتلاحق فى رفق وجمال ، وبينما كانت تنساب مياه النهر على هذه الصوره ، كان (ستانزلاف برابك) يسترجع فى مخيلته طائفة من الذكريات ... صورا أخرى لأنها مشابهة يعرفها حق المعرفة ، ولكنها من نوع آخر فمياهها الحديد المنصهر . كان يراها بعين خياله وهى تتدفق بقوة جارفة من جوف المرجل الجبار . ثم يلمع ضوءا خافتا متوهجا ينبعث من كل مكان ... ياله من مشهد تهفو اليه نفسه وتحن لرؤياه عينه . أخذ يفكر فى الانسان وقوته وكيف انه قادر على السيطرة على مثل هذا النهر ، الذى يتنزهه على صفحته ، والتحكم فى مصيره تماما كما يفعل هو (ستانيزلاف برابك) عامل الصهر عندما يقف امام مرجله فى المصنع . أليس هو المسيطر حينذاك على المعدن الذى فى جوف المرجل ، والمتحكم فى مصيره ؟

شده الحنين الى وطنه (أوستريفا) فعاد اليه فجاه غير مبال بصحته أو علاجه ، وقد أخذ منه المرض مأخذه فبدا اكثر ضعفا واشد هزالا . ومع ذلك آثر أن يذهب الى بيته من المحطة سيرا على قدمه ، ليطأ أرض بلاده العزيزه ويدوس ترابها أطول مدة ممكنة . بدا وجهه مشرقا تنضح عيناه بالبشر والسعادة ولا عجب فى ذلك فهو يتنفس هواء وطنه بعيده المشحون بدخان المصانع المتكاثف . حقا .. ما جدوى بلد جميل مثل « برودبيرى » بالنسبة له ، انها ليست الا جنات وارفه بحدائقها المنسقة ، يأوى اليها المرضى وكبار السن طلبا للراحة والاستجمام .

اما اوستريفا وطنه الحبيب فهى مدينة صاخبة تنضح بالنشاط وتملأها الحياه . وأخيرا وصل الى بيته . وقد آثار ظهوره المفاجىء دهشة بالغة . فما ان رأته زوجه حتى تشابكت يداها فى ذعروصاحت مستفسره :

— من اين جئت ؟

ثم أضافت بخبث بين :

— ليس عندى من الطعام سوى قدر من البطاطس المهروس :

وفى اليوم التالى فحصه طبيب العمال ، وهز راسه بشك وعدم ارتياح كما اشارت خطوط رسام القلب الى ان الداء لا يزال كامنا فى جسده . ونوقش (ستانيزلاف برابك) بعد ذلك فى أمر فراره المفاجىء من «بوديريدى» والداعى اليه . وظهر من اجابته ان عامل الملل الذى أدركه ، واصاب نفسه مدة اقامته هناك كان الدافع الذى أوحى اليه بالفرار منها . ولكن فى حقيقة الامر ، كان هناك سببآخر اكثر اهمية وابلغ اثرا فى نفسه ، فقد تسلم ذات يوم وهوفىاستجمامه (بيوديريدى)



رسـالة من ابنه (توماس) هذا فحواها :

والدى العزيز .

انا نذكرك دائما بقدر ما نفتقدك . ارجو ان تكون متبعا لتعليمات الطبيب ووصاياه بدقة متناهية . ما أشوقنا اليـك يا ابتاه . أخبرك اننى قررت نهائيا ان اكون مثـلك ، عاملا لصـهر المعادن . لا تحاول أن تقنعنى بتغيير رأيى او تثنينى عن عـزمى فانى على يقين بما انا قادم عليه .

اخبرك ان (ماتشى) كرة القدم الذى جرى يوم الاحد ، كان ضعيفا للغاية . وأنه لمن حسن الحظ انك لم تكن حاضرا حينذاك ، فلا شك ان مشاهدتك للاعبين كان ليثير اعصابك حتما ، فقد أصاب «انتشى» هدفا ولكن فى مرمى فريقه.. ألست تراه أحمقا متهورا ؟

مرة أخرى اننا نتشوق الى اخبارك، كما نفتقد وجودك بيننا . واخيرا نرجو الا تكثر من شراب البيرة .

ولدك المخلص

توماس

وفى الواقع أن هذه الرسـالة كان لها وقع كبير فى نفس « سـناتيرلاف برابك » بل كانت الدافع الاساسى الذى حـدا به الى الفـرار من (بوديبرى) والعودة الى وطنه ـ ذلك انه رغب فى أن يناقش ولده فى أمر جلل .

ولاذكر الآن شيئا عن العرف القديم الذى كان سائدا بين الفقراء . والذى كان يحتم على الابنـاء ممـارسة حرفة آبائهم بشـكل آلى . فمثـلا اذا كان الوالد اسكافيا فلا مناص للابن من أن يجد مكانه بين أصحاب هذه الحرفه . وبمعنى آخر كان لكل مكانه الخاص به والمرسوم سـلفا له . ولم يكن له الحق فى أن يختـار سـواه من الاعمـال . وكان من السـائد ايضا انتقـال ادوات الحرفه من الإب لابنه بطريقة تلقائيه ، كمثقب الاسكافى وابرة حائك الملابس، ومصباح عامل المنجم ، تماما كما ينتقل العرش الملكى من الملك الى ولى عهده نعم لقد جـاء وقت كان عـامل المنجم يأخذ بيد ابنه ويقوده الى أعماق الارض حيث منجم ، دون مبالات لرغبات ولده والتعرف على حقيقة ميوله نحو العمل الذى ترضاه نفسه . وربما كان هذا الابن موسيقيا بفطرته ، يسهر الليـالى يستمع الى فرقة موسيقية بالمذياع ، فاذا ما غلبه النوم ، راى فى نومه صورة الكمـان والنـاى . يذهب الى الكنبه ليشنف سـمعه بصوت الادغن الرنان ويقضى السـاعات الطويلة أمام نافذة المحل التجارى ، يمتع ناظريه برؤية آلة الاكرديون وهى تتألق ببريق لامع جذاب ان مثل هذا الفتى ولا شك موسيقيا قلبا وقالبا ، ومع كل ذلك ترى والده يقوده الى سجن المنجم بدلا من ان يعهد به الى أستاذ كبير فى معهد موسيقى ليصـنع منه عازفا موسـيقيا فذا . وهكذا كان العديد من العمال يبذلون النفس والنفيس من أجل لقمة العيش. ألم يضحوا برغباتهم ويكبتوا مشاعرهم تحقيقا لعرف عتيق موروث . وكم من موسيقى يضارع بيتهوفن براعة ضلت نفسـه وشردت روحه بل ظـل حبيس اراء قومه الرجعيه وتقاليدهم البالية التى تضـحى بالقيم فلا تحسب لهـا حسـابا . وفى نفس الوقت كانت فتيات

الطبقة الثرية يشغلن أوقات الفراغ في بيوتهن بالغزف على البيانو عزفا مشوها مضطربا لمجرد التسليه – وهكذا كانت الموهبة وليدة المال وبنت الثراء فان كنت مثلا ثريا فلا شك انك موهوب .

أما الآن فالأمر جد مختلف – وليس بنا حاجة لمناقشة الموضوع تفصيلا . ففن العزف على البيانو مثلا لم يعد مسألة ثراء ، أو درجة جامعية يشتريها الطالب ببعض من مال والده الوفير أو جاهه العريض . نعم ليس الآن مايمنع ابن الاسكافي من أن يصبح أستاذا في اللغات الشرقية اذا ماظهر ميله اليها ونبوغه فيها . أو أن تكون ابنة عامل المنجم شادية طروب لموهبة كامنة في نفسها . أو أن يصبح ولد عامل الصهر طبيبا بارعا ... ومن هنا يمكننا أن نصل الى معرفة بعض من رغبات « ستانيزلاف رابك » الخفية ، والتى عاش عمره يمنى النفس بتحقيقها . ومن المعروف أن كل فرد منا يحتفظ في أعماقه بآمال وأحلام كبار ، يترقب أن يجيء اليوم الذى تقر فيه عينه بتحقيقها . كان عامل الصهر العجوز يقدس حلما عزيزا عليه ويطرب كلما اجتر ذكراه . لقد كان يرى ابنه دائما – بعين خياله – وقد ارتدى معطفه الابيض وخفه الاملس يطوف من سرير الى آخر في احد عنابر المستشفى ... وفي يوم العطلة يعود الطبيب توماس الى بيته ، فتهرع اليه والدته تحمل عنه حقيبته الطبية ليتوجه الى الحمام فيغسل يديه .

هذه كانت أحلام «ستانيزلاف الشيخ» وأمانيه الكبار . لقد رغب أن يرى ولده توماس طبيبا في يوم ما . ولا يفهم من ذلك أنه كان كارهـا لحرفتـه ضجرا بها ، لا بل كان شغوفا بها وفيا لها ، يود لو إستطاع أن يفنى مابقى من عمره فيها . لقد ترك على كل قضيب من الحديد تناولته يداه ، جزءا من قلبه المتفاني رمزا لولاء ذلك الثعلب المحب الذى يكمن الآن خائرا بين ضلوعه . ولكن مع كل ذلك تاقت نفسه أن يرى ابنه وقد أصبح طبيبا مرموقا . ومن أجل ذلك فر من « بوديبريدى » وأسرع عائدا الى وطنه ، ليتدبر الامر وينقذ الموقف .

كان « توماس » يافعا يزدهر في مطلع الشباب يناهز الخامسة عشرة ربيعا .

ولما أفضى اليه والده برغبته الصارخة بالنسبة لمستقبله ، أجابه على الفور :

– انك لا تزال تتشبث يا أبت بالافكار الرجعية البالية .

لقد كانت هذه هي الطريقة الجديدة التى يخاطب بها الاولاد أباءهم في هذه الايام ، ولذا استولت الحيرة على الاب المسكين ، ولم ينبس ببنت شفة ، وكل مافعله أنه نهض من مكانه يذرع الغرفة جيئة وذهابا بخطوات واسعة .

وأخذ يستعرض صورة ابنه في مراحل نموه المختلفة ويرى كيف اختلفت معها وجهة نظره بالنسبة للعمل الذى يود أن يمارسه في مستقبل حياته . فمثلا عندما كان في الثالثة من عمره رغب في أن يكون سائق سيارة ، ولما بلغ الخامسة أقسم أن يكون بحارا ، واخذ يشكل قوارب صغيرة من الورق ، ويلقى بها في احدى جداول نهر «اوستريفا» ، ويضع على رأسه قبعة نقشت عليها بالخط العريض (ذئب البحر) . وفي سن

العاشرة قرر أن يكون عالما مخترعا · وما أن بلغ الثالثة عشرة من عمره حتى عقد العزم على أن يكون طبيبا · ومنذ أيام ثلاثة فقط احتفلت أفراد أسرته بعيده ميلاده الخامس عشر وتقدمت اليه بهذه المناسبة دراجة ، وبعض المنظومات الشعرية · وفى هذا اليوم كان والده يرمقه ، طول الوقت ، بعين الفخر والاعجاب ، ثم يسرح البصر ويتأمل فى عمق ، يا لها من حياة خلاقة تصنع المعجزات دائما · فمنذ خمسة عشر عاما سمع صيحة ابنه الاولى التى بها استقبل الحياة وقد بدا بوجهه الاحمر وأنفه الصغير ، ورأسه الملساء · ثم رآه بعد ذلك طفلا يرقد سعيدا فى مهده ، وسمع ضحكاته المنغمة التى يشع منها البهجة والمرح · ثم مرت السنون ··· ونما معها توماس حتى صار طبيبا يافعا فى شرخ الشباب ··· كما يبدو الآن ··· كذلك ولى الزمن الذى كان يعترض فيه الآباء طريق أبنائهم ، ويرسمون لهم مستقبلهم كيفما شاءت تقاليدهم البالية·

·· نعم ان جميع الابواب مفتوحة أمامك يا توماس ، وعليك أن تقرر وتختار أحدها ·· وأخيرا اختار توماس والتحق وهو فى سن مبكرة باحدى المدارس الصناعية ، التى تؤهله مهنيا لان يكون حدادا · وفى هذا الوقت أحيل والده الى المعاش ، وكان يقضى فراغ وقته فى تنسيق حديقته الصغيرة ، ومطالعة بعض الجرائد والمجلات · ومرة أخرى أرسل الى بلدة « بوديبريدى » للاستجمام والراحة ، ومرة أخرى فر منها مهرولا قلقا كريشة فى مهب الريح ، ذلك أن مدينة « أوستريفا » ـ وطنه الحبيب ـ القاتمة بدخان مصانعها والتى تضج دائما بالضوضاء والحركة ـ كانت تشده اليها بقوة كبيرة ، كما تشد الخلية النحلة الهائجة · ولا شك ان هذا الحنين الدفين الى « أوستريفا » كان السبب الاقوى الذى جعله عبدا لعادة غريبة ، اليك تفاصيلها بايجاز :

··· ففى الساعة الثانية من صباح كل يوم ، اعتاد « ستانيزلاف برابك » عامل الصهر العجوز أن يهجر فراشه مستيقظا فى الظلماء · لقد كان هذا الوقت على جانب كبير من الاهمية فى حياته · ولا غرابة فى ذلك فقد اعتاد فيه أن يفتح صنبور مرجل الصهر فى المصنع ليسمح للحديد المنصهر أن يتدفق من فوهته كالسيل الجارف ·

حقا لقد ولت هذه الايام الى غير رجعة ، ولكنه لا يزال أسير حبه لها ، يتملكه الحنين كلما عاودته ذكراها · فاذا مادقت الساعة معلنة الثانية صباحا نهض « برابك » من فراشه ، وأشعل عود ثقاب ، يبحث على ضوئه موضع الخف حتى يجده · وبهدوء وحذر يتلمس طريقه الى النافذة ··· تريث أيها العجوز واحترس ، لا تتخبط فى الاثاث هكذا ·· أتركل هذا المقعد مرة أخرى ؟!

ثم يفتح النافذة ويملأ صدره بشهيق طويل من هواء الليل المنعش ، ويشعل عودا آخر من الثقاب ، فينظر الى ساعة الحائط ليتأكد من حقيقة الوقت ·· ان عقارب الساعة تشير الى الثانية صباحا ·· انها اللحظة المنشودة فى حياته · وفى نفس الوقت تتحرك زوجه فى فراشها متظاهرة بالنوم ·· هذا كل ماتستطيع أن تفعله بعد أن عاهدته أن تتركه وشأنه ولا تتدخل فى أموره الخاصة أبدا · وهكذا يظل « ستانيزلاف » واقفا أمام

النافذة ، وقد فاض من تحتها نهر « أوستراڤيس » تتهامس أمواجه فى رقة وعذوبة ، بينما تهب نسمات الليل العليلة فتعطر الجو بأنفاسها المعطرة واريجها الفياح • هذا اذا كان الوقت ربيعا ، اما ان كان صيفا فانه يرى ذرات الحديد والفحم ، وقد تناثرت هنا وهناك واختلطت بحبوب اللقاح المنتشرة بين الاشجار والازهار تتراقص أمام النافذة مرحة طروب • فاذا ماجاء وقت الخريف يرى « ستانيزلاف » واقفا يرقب النجوم المنثورة على صفحة الماء ، تتالق ببريق خاطف لايلبث أن يختفى فى عالم مجهول ••• ثم يأتى زمن الشتاء ، واذا بكل شىء هادىء ساكن — تتساقط حبات الثلج فتلبس الطبيعة ثوبا قشيبا ناصع البياض • كل ذلك يحدث وهو قابع فى مكانه المقدس أمام النافذة يسرح النظر فى تلك المشاهد الخلابة وينتظر اللحظة الموعودة •••

••• ان الطقس بارد أيها العجوز ، وعليك أن تدثر بدثار صوفى تحتمى به من البرد •

هكذا تردد زوجه القلقة ، ولكنه لا يابه لقولها •• ويظل واقفا فى مكانه •

وتستمر ساعة الحائط فى دقاتها المنتظمة تطوى الثوانى فالدقائق وتطوى معها الزمن • وبغتة يسطع فى السماء وهج متالق ، يبدو أحيانا وقد امتزج به وميض أزرق لامع ، وأحيانا أخرى يسطع هذا الوهج فى لون برتقالى متلألىء يشوبه بياض صدفى ، أشبه مايكون بلون السحب وقت الغروب ••• انها اللحظة المنتظرة التى فيها يتدفق الحديد المنصهر من فوهة المرجل معلنا ميلاد حديد

جديد • ويستمر « ستانيزلاف برابك » شاخصا الى ضوء الوهج حتى يخفت ويذوب فى الظلام • وعندئذ تتحرك زوجه فى الفراش من جديد وتفتح عينها فتسأله بخبث :

— هل رأيته ؟

ويجيب ستانيزلاف برابك فى اقتضاب:

— نعم •

وبعد لحظات من السكون الشامل تعود الزوجة فتقول فى ضجر :

— أتدخن من جديد ؟

ويجيئها الرد فى صورة شرارة لامعة تنبعث من غليون زوجها ، كعين صغيرة حمراء تختلس النظر فى الظلام • ثم يتثاءب « ستانيزلاف » بتكاسل ويقول بنبرات ناعسة :

— نامى يا امرأة !

انى نائمة يا عزيزى •

بهذه العبارة القصيرة تهمس الزوجة فى طاعة وهدوء ، ولو أنها اعتادت ألا تنام فى مثل ذلك الوقت من الليل — فقد كانت امرأة عجوز ، تؤثر التفكير فيما يشغل بالها من أمور الحياة التى تعنيها ، كأزرار قميص زوجها لا سيما هذا الذى يقبع خلف الياقة ••• فقد أتى القدم على الخيوط التى تثبته بالياقة فتآكل معظمها وأوشك على السقوط • نعم لم يبقَ هناك سوى خيط رفيع واهن يتشبث به ••

أما « ستانيزلاف برابك » فكان يأوى الى فراشه يتنفس فى راحة ورضا بينما تحملق زوجه فى الظلماء وقد ارتسمت على صفحة وجهها ابتسامة معبرة فيها معنى التسامح ، ثم تهجس

فى نفسها : انك تستيقظ دائما فى الثانية صباحا ، أليس كذلك ؟ افعل ما شئت فانى لا أتدخل فى شئونك الخاصة كسابق عهدى لك • وعلى كل فلا شك أن الأمر يكون أشد سوءا ، لو كنت تقضى هذا الوقت خارج البيت ، فلا تعود الا فى الثانية صباحا •• انك تترقب ظهور الوهج •• هكذا تزعم •• وعلى أى حال فانى لا أغار من تلك الشابة الصغيرة ـ بل أنصحك ألا تكف عن التطلع اليها حتى ترتوى عيناك ، وتتشبع نهمك ايها الأحمق •••

ورغم تلك الهواجس ، كانت «مارى برابك » ـكزوجة مطيعةـ تترك زوجها وشأنه يستمتع بخلوته البريئة فى شغف وامتنان ـ بعد أن كانت فى مبدأ الأمر لا تكف عن التشاجر والتشاحن معه ، فمن ذا الذى سمع عن أسرة محافظة ، يستيقظ أفرادها ، فى مثل هذا الوقت من الليل ••• لماذا لا تأوى الى فراشك فتنام أيها المخلوق المزعج•• اقفل هذه النافذة يا (سناتيزلاف) •• اقفلها من فضلك •• فالطقس قارس البرد ••

ولكن مع الوقت اعتادت منه هذا الأمر •• فكانت تستيقظ مع رجلها العجوز ، تتطلع اليه خلال جفونها المتكاسلة ، وهو يحج الى النافذة بوله وخشوع ـ وهكذا وهكذا تظل يقظة حتى يعود الى فراشه ، ويغيب عن نفسه فى نوم هادىء عميق •

وعلى أى حال لقد انتهت مغامراته الليلية أخيرا ولن يستيقظ فى الظلام بعد الآن، ليهرع الى النافذة•• كالعذراء العاشقة يشدها الشوق فتهب فى جوف الليل تترقب ظهور الحبيب •

وذات يوم عاد برابك الشاب من معهده الصناعى ، الذى التحق به أخيرا ، بعد أن تبخر تماما ذلك الحلم الذى داعب خياله المتغلب من وقت قريب • هش والده للقائه وأسرع اليه يعانقه كزميل وليس كوالد فحسب ، ثم أخذ ينصت اليه باهتمام وهو يتحدث فى موضوعات يجهلها تماما ولا يعى منها شيئا ، ومن حين لآخر يعلق عليها بضحكات تشوبها الحيرة والارتباك • مثال ذلك قول الفتى :

ـ لقد عالجنا اليوم بالدراسة والبحث مسائل وعمليات (أشعة اكس) التى تحقق خلو مادة الصلب من العناصر الفلزية •• لا شك يا أبى أنك لا تعرف شيئا عن ذلك •• انها مسألة لا تتعلق بالحديد، بعيدة تماما عن مرجل الصهر •

أو أن يقول :

ـ اذا وصل التبريد الى درجة غير كافية ، فلا يمكن الحصول على النتائج المطلوبة •• أرأيت يا والدى النظريات الحديثة ؟ أشعة اكس وخلو الصلب من العناصر الفلزية •• ماذا تعرف أيها الشيخ عن هذا كله ؟

ثم يتملكه الغرور والزهو فيقول :

ـ ألا فاسرع الى ابنك (توماس برابك) عامل الصهر الشاب ، وانحنى أمامه تقديرا واسأله بلطف وأدب ان كان يسمح لك بالتحدث معه •

لقد أطاح الشيطان بعقل الفتى !! هكذا فكر الأب مشدوها •• يا له من تطور عجيب ، فقديما عندما كان طالبا يتعلم الحرفة كان كل ما يعنيه من أمر (التبريد) ، هو التأكد من أن شراب البيرة الذى كان يحتسيه سيده ـ ربه

الحرفة ـ مثلجا دائما ، أى فى درجة التبريد المناسبة ، أما الآن ٠٠ فيالعجب ما سمع ٠٠٠ اذا وصل التبريد الى درجة غير كافية ، فلا يمكن الحصول ٠٠ ثم أخذ يهجس فى نفسه :

ـ انتظر أيها المغرور حتى تتلاقيا معا ٠٠ أنت ومرجل الصهر ، وعندئذ سوف نرى ماذا أنت فاعل يا سيد (اشعة اكس) ٠

ثم جاء اليوم الذى أقبل فيه (توماس برابك) الشاب بأكتافه النحيفة وقال:

ـ ان اليوم موعد أول تجربة نقوم بها لصهر المعادن يا أبتاه ٠٠

ـ ولكن فى أى مراجل ؟

هكذا نطق الأب فى حيرة وارتباك ٠ وأجاب توماس على الفور :

ـ فى مراجلنا الحديثة ٠٠ ألا تذكر مرجلك الذى كنت تستعمله فيما مضى ؟

وبهدوء ظاهر قال (ستانيزلاف برابك) :

ـ مرجلى أنا ؟

وبدا عليه الضجر فحول دفة الحديث٠

وجلس أفراد الأسرة يتناولون طعام العشاء ـ كان الوالد شارد الفكر ينظر الى ولده فى وجوم ٠٠ وخرج من صمته وسأل مستفسرا :

ـ ومن الذى سيتولى عملية صب المعدن من المرجل بعد أن يتم صهره يا ولدى ؟

أجاب توماس على الفور :

ـ أنا يا أبت ، وهذه الليلة بالذات٠

وما أن سمع الوالد هذه العبارة حتى شرد مرة أخرى ٠٠٠ ان الوقت المناسب للقيام بهذه العملية الكبيرة لم يحن بعد، انها لحظة بالغة الاهمية ، ليس فيها مجال للتحفز أو الغرور ، وحتى ان كان هذا الغرور نابعا عن كفاءة ظاهرة ، فقد يخطىء المرء وتأتى الرياح بما لا يشتهى السفن ٠٠٠ رباه من كان المتحدث ؟٠ وهل يكفى هذا الهراء ليقوم دليلا على الكفاءة والمقدرة ؟ وعلى كل لننظر ٠٠ وان غدا لناظره قريب ، أيها الشاب الرشيق ٠٠٠ نعم غدا سوف نرى ماذا أنت فاعل ٠٠٠ آماه ـ هكذا كان ينادى زوجه أحيانا ـ لاتنسى أن تضعى معطفى الصوفى فى حقيبته ، فالطقس عادة يكون قارس البرد فى مثل هذا الوقت من الصباح الباكر ٠٠ ولا شك أن جسم الغلام الغض سوف يكون ملتهبا من شدة حرارة المرجل الذى يقف أمامه لأول مرة ، وقد تعصف به الريح الباردة ـ وهو يغادر المصنع ـ دون رحمة أو شفقة فلا يدرى الصغير ماذا يفعل وأين يلوذ !!

ثم أخذ يهجس فى نفسه من جديد ، ترى هل سيعرف كيف يتحقق من درجة حرارة الموقد ؟ وعما اذا كانت هى الدرجة المناسبة ٠٠ أم لا ؟ وعلى كل لن أذكره بذلك ولن أزوده بأية معلومات ضرورية٠٠ حتى يخوض المعركة بنفسه فيعرف كل شىء عن هوايته المشبوبة وهو يقف وجها لوجه أمام مرجله العزيز ٠٠٠انه فى حاجة الى حلة جديدة مناسبة بعد أن صغرت عنه ملابسه ، فهو دائم النمو كالشجرة اليانعة ٠٠ واذا ما غادر ولده البيت ، صاح ستانيزلاف يناديه:

ـ لاتنسى ياولدى أن تتأكد من حرارة الموقد قبل أن تبدأ مهمتك ٠

ـ حسنا يا أبي ٠

هكذا أجاب توماس باقتضاب ليسكته، ثم اختفى في الظلام ٠

أخذ الزوجان يتحدثان طويلا في هذا الشأن ، واتفق رأيهما على أن ظهور عمال الصهر المهرة أمر نادر الوجود على عكس الاطباء مثلا فان عددا وفيرا منهم يظهر في كل زمن٠ ثم مال ستانيزلاف بحديثه الى موضوع (أشعة اكس) فقال انه ليس بالأمر الهين ٠ ثم سأل زوجه قائلا :

ـ هل تعرفين يا أماه ما المقصود (بأشعة اكس) وعلاقتها في تحقيق خلو الصلب من العناصر الفلزية ٠٠؟ بلا شك انك تجهلين العلم بذلك ٠٠ ولك العذر كله ، فمن أنت حتى تعرفين هذه الأشياء ؟

ثم ذهب كل منهما الى فراشه ، وفي تمام الساعة الثانية صباحا ، استيقظ (ستانيزلاف) من جديد وأشعل عود ثقاب ليرى على ضوئه مكان خفه ، ثم اتجه الى النافذة ففتحها على مصراعيها ووقف شاخصا الى السماء وقد لفها الظلام الحالك ٠ كان القمر يتوسط كبدها يسبح ، في نوره الفضي خلف السحب السيارة المنتشرة هنا وهناك يداعبها بلمسات أشعته الحانية ، بينما تسرب بعض منها خلال النافذة فأضاء صفحة ساعة الحائط القابعة على جدار الحجرة ـ كانت الثواني تدق دقاتها المميزة الوئيدة ، ثم يتحرك المؤشر الكبير قليلا من مكانه معلنا زوال دقيقة من عمر الزمن وميلاد ثانية جديدة ٠٠ وهكذا مرت دقيقة ثانية ، فخمس ، فعشر و (ستانيزلاف براباك) لا يزال في وقفته الخالدة يشخص الى السماء الداكنة ، بعينين تشع منهما الحيرة وقد تدثرت عروقه من فرط القلق والانتظار٠ ولكنه لم يسمع سوى صفير القطارات يدوى صداها في الفضاء الساكن ، ولم ير الا أنوارا باهتة تنبعث من أماكن بعيدة نائية ٠٠٠ مرت ساعة على هذه الحال ٠٠ و (ستانيزلاف) في وقفته تلك ينتظر بقلق بالغ أن يظهر الوهج المضيء كسابق عهده٠ ولكن دون جدوى ٠٠٠ ثم بادرته زوجه ماري مستفسرة :

ـ ما الخبر ؟

ولكن (ستانيزلاف) الشيخ ظل صامتا لم يحر جوابا ، اذ تملكه القلق، واتجه بكل حواسه الى السماء في صمت وقنوط ، ثم همس في نفسه بخوف :

ـ رباه ٠٠ ماذا عساه قد حدث ٠٠

وبعد مدة طالت نفذ معها صبره ، أغلق النافذة وعاد الى زوجه٠ كان يسير بخطى وئيدة مترددة ، كما يسير الاطفال المذنبون في المدرسة حيث مكتب الناظرة للاعتراف بخطئهم ـ وهم مضطرون ٠٠

عادت ماري تسأل :

ـ هل رأيته ؟

ـ كلا ٠٠

هكذا أجابها باقتضاب ونظره لايزال متعلقا بالسماء ٠ ولأول مرة تغير النظام الذي كان يسود دائما في مثل تلك الليلة ، فقد هبت ماري من فراشها لتكون بجوار زوجها أمام النافذة٠ وقف الزوجان بأعين زائغة وأيد متشابكة يشخصان نحو الجنوب الى صوب المكان الذي يمكن أن يرى منه ضوء الوهج

المنبعث من المرجل لحظة صب المعدن المنصهر ... ظلت مارى على هذه الصورة ، وقد بدا وجهها مضيئا تنضح ملامحه بالبشر والخلق الكريم ويلمع فى عينها بريق المحبة والوفاء . كانت ترتدى قميص نومها الابيض وتدثر فوقه بدثار صوفى نسجت خيوطه يداها النحيلتان وفى قدميها خف أتى عليه القدم فمزق أوصاله تمزيقا .

ـ ياله من مشهد رائع حقا هذا الذى بدا عليه الزوجان لحظتئذ ، والله انه لجدير بأن تتزين من أجل السموات فتلبس أجمل حللها وأكثرها نورا وضياء ، ليت السماء تحقق هذا الرجاء فيهدأ بال الزوجين ويستقر حالهما . ولكن واأسفاه .. لقد أبت السماء الا أن تظل فى لباسها الداكن تزينه النجوم ببريقها المتلالىء .

همس (ستانيزلاف) فى نفسه من جديد :

ـ رباه .. ماذا حدث .. انى اتمزق قلقا .. ترى ماذا جرى ؟

ثم خاطب زوجه :

ـ اعطينى حاجياتى يا أماه .. انى ذاهب الى هناك ...

فصاحت الزوجة فى ذعر بين :

ـ ولكن الى أين ؟.. ان الوقت جاوز منتصف الليل ..

ولكنه ما جدوى النقاش مع مثل هذا الرجل العجوز العنيد .. لقد ارتدى معطفه ووضع القبعة على رأسه باحكام وأمسك عصاه واندفع الى الخارج مهرولا .. انه ذاهب حيث ولده توماس لينقذه من هلاك محقق .. وما أن وصل الى المصنع حتى لمحه الحارس فاخذ يرمقه من رأسه الى قدمه مذهولا وكأنه رأى شبحا فى الظلام أو مسه شيطان من الجن ، اذ لم يحدث أبدا أن رأى عاملا أحيل الى المعاش يعود الى مقر عمله فى مثل هذا الوقت . فنور الفجر أوشك أن ينبثق .. تجهم وجه (جافندا) الحارس وبدا عابسا فظا .. ولا غرابة فى ذلك فانه ينفذ التعليمات الرسمية ولا يحيد عنها أبدا ، ولو كان القادم صديقه الحميم .

وبادره (جافندا) مستفسرا :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟ أالى العمل ؟ انى لن ادعك تدخل ... ما بالك تنظر الى هكذا يا (ستانيزلاف) ـ انى أنفذ التعليمات الرسمية .. انه عملى كما تعلم .. ولا بد من المحافظة عليه ..

أجاب (ستانيزلاف) على الفور :

ـ وانه عملى أنا الآخر... انى ذاهب لأرى ابنى . ثم أضاف بحنق :

ـ ألا تعرف من أنا يا جافندا ؟ أم ترى نسيت ؟

ـ طبعا انى أعرف جيدا .

هكذا أجاب الحارس بتردد ملحوظ .

ـ اذن من أنا .. أفصح .. أجب..

ـ ستانيزلاف ـ نعم انك ستانيزلاف..

وعاد ستانيزلاف يردد صائحا وقد تملكه الهياج :

ـ من أنا ..؟

ـ من تكون ؟ أحمق عجوز . هكذا أجاب جافندا بسرور الظافر .

ـ أو تسمح لى بالدخول ؟

ـ كلا لن أدعك تدخل ·

ـ ماذا تقول ·· لن تدعني ·

ـ اني لا أستطيع بحق السماء يا (ستانيزلاف) ·

ـ (جافندا)··· بهذه الكلمة همس (ستانيزلاك) مخاطبا الحارس ، بينما نظر اليه الاخير بدهشة وحيرة · وأخيرا عاد اليه هدوءه وقال بلطف :

ـ اذن فادخل ·· ولا تمكث طويلا·

ثم أخذ شهيقا عميقا كمن أفاق من اغمائة طويلة · وفي الواقع أن أتى حارس آخر في مكانه ، ما كان ليدع ستانيزلاف يدخل المصنع حيث يجرى العمل الذى وهبه حياته حبا ووفاء ·

وما أن دلف ستانيزلاف المصنع حتى اعتراه الذهول واستولت عليه الدهشة البالغة انه ألفى نفسه شاخصا الى ذلك المشهدالخالد الذى نقشت معالمه في نفسه طيلة ثلاثين عاما ·· ظل فيها واقفا أمام المرجل المتفجر بمعدنه المنصهر ··

لقد كان كل شيء على حاله ، بخار المراجل يتصاعد في حركات لولبية كالافعي مصدرا فحيما مدويا ، وأصوات الآلات الجبارة تصلصل فتهز أرجاء المصنع هزا · ووهج المعدن المصهور يتأجج بوميض يتلألا حينا ويخبو حينا آخر·· لقد كان كل شيء على حاله ·· ثم رأى (توماس) ولده يقف أمام مرجله · في الوضع الصحيح ·· عندئذ شد نفسا عميقا من بين ضلوعه الواجفة ، تماما كما يفعل متسلق الجبل اذا ما وصل الى القمة ·· حقا لقد كان كل شيء في مكانه المألوف ولم يكن هناك من منظر غريب سوى منظره هو ، وهو يسير بخطى وئيدة متوكئا على عصاه وسط قرقعة الآلات وقد كساه الكبر مظهر المهابة والوقار · رآه ابنه توماس ورفقاؤه فاستولت عليهم دهشة مذهولة وأخذوا يحدجونه ، بنظرات شاردة مستطلعة وكانهم يتوقعون بين لحظة واخرى أن يذوب الرجل العجوز ويتحول الى نجار· ولكن (ستانيزلاف برابك) ألقى على المكان نظرة مجربة شاملة وقال مخاطبا ابنه :

ـ حسنا يا سيد اكس راى ، ترى أيتصبب العرق من جسمك كما ينبغي ؟

أجاب توماس على الفور :

ـ نعم يا أبت ، ولكن ما الذى أتى بك هنا الآن ؟ وماذا تفعل ؟

وما لبث أن تناول رشفة عميقة من شراب البيرة ، تماما كما يفعل عمال الصهر المتخصصون ، ثم ناول أباه القدح ·

ـ انظراليه الآن·· انه يبدوكالعامل المحترف المحنك · هكذا كان يفكرالوالد وهو ينظر اليه · ثم عاد يسأله في نبرة ساخرة :

ـ ومتى يحين الوقت الذى تصبون فيه المعدن المنصهر ؟ لقد أتيت خصيصا أشاهده وهو يتدفق من فوهات مراجلكم ··

أجاب الصبي بحماس وثقة :

ـ لقد انتهينا فعلا من عملية الصب ـ كدفعة أولى ـ يا والدى من وقت مضى ، وها نحن الآن نتأهب لصب الدفعة الثانية ·

وما أن سمع والده هذا الكلام حتى تراجع مأخوذا وقال :

ـ ماذا تقصد بالدفعة الثانية ؟ ومتى كانت الدفعة الأولى اذن ؟

ـ فى منتصف الليل تماما ، هكذا أجاب توماس وقد لمعت عيناه ببريق النصر ثم أردف :

ـ لقد أفرطت فى النوم يا أبى ٠ وعلى كل لاتخش شيئا فان خلفك يقوم بعمله على الوجه الأكمل ويحافظ على الوقت بكل دقة ٠ ثم تابع حديثه يسأله :

ـ أتعرف يا والدى ما المقصودبعملية الصهر السريع ؟

ـ ماذا أسمع؟ أهكذا تخاطبنى؟ قالها (ستانيزلاف) الشيخ بلهجة ، تنم عن التبرم والضيق الشديد ٠ ولم ينبس بعدها بحرف بل ظل صامتا ، كالصخر الأصم ، بينما استطرد ابنه فى حديثه مفسرا :

ـ ان عملية الصهر السريع لا تأخذ من الزمن أكثر منساعة ونصف ياأبتاه، ذلك أننا نقوم بها علميا أى وفق نظريات علمية بحتة ـ ولذلك يطلق علينا (عمال الصهر السريع) اننا مدرسة مختلفة تماما كما ترى ٠٠

ظل الوالد صامتا لبرهةوقد تزاحمت الافكار فىخاطره وأخذ يتأمل فى عمق ٠٠ياله من عالم عجيبذلك الذى نعيش فيه ٠٠ ويالها من معجزات تلك التى يصنعها هؤلاء ٠٠ كم زمن مضى منذ أن سمعت صيحة ابنى الأولى يعلن بها خروجه الى هذا العالم الصاخب ٠٠٠ أماه لقد أضعنا وقتنا هباء ونحن وقوف نترقب ظهور الوهج ٠٠ حقا لقد غلبنا النوم ، كما قال توماس ابننا ، فاسترسلنا فى سباته ، وبذلك فقدنا رؤية الوهج ـ لقد وقفنا نشخص بأبصارنا خلال النافذة ٠٠ ولم ندر حينذاك أنه قد لاحوخبا من وقت مضى٠

وبعد لحظة أفاق (ستانيزلاف) من تأملاته وتابع الحديث :

ـ لقد أحضرت معى بعض الخبز والزبد من أجلك ٠٠

ـ أنصفت يا أبت فانى أتضور جوعا ٠

ومنذ ذلك الحين و (ستانيزلاف) لا يستيقظ فى جوف الليل كسابق عادته، ليتطلع من خلال النافذة الى ضوء الوهج المنبعث من مرجل الصهر ٠٠ اذ ما جدوى ملاحقة هؤلاء القوم من عمال الصهر السريع ؟٠ فاذا ما استيقظ فى الواحدة صباحا فانه لواجدهم وقدصبوا ما صهروا من معدن، فىمنتصف الليل، أما ان استيقظ فى منتصف الليل فلا شك يكونونقد أتموا العملية فىالساعة الحادية عشرة ـ اذن ان أفضل شىء يا أماه هو أن نستسلم للنوم ونملأ منه الجفون فكم من ليال طوال قضيناها فى سهر متواصل ٠

قصصنا القومي

بحث للكاتبة السورية
ألفة الأدلبي

ما من ثورة كان لها تأثير فعال فى تطوير حياة أمة من الامم الا انبثقت أول ما انبثقت من شق القلم قبل أن تلتمع على شفرات السيوف ، أو تنطلق من فوهات المدافع .

وما كان لثورتنا العربية التى جاءت تهدف الى تحرير العرب من الاستعمار والى بناء مجتمع جديد يكفل للفرد العربى حياة شريفة كريمة أن تشذ عن هذه القاعدة . كان أول من مهد لهذه الثورة المفكرون والأدباء حين راحوا يصورون فى أدبهم الواقع الأليم الذى يعيشه العرب فى مختلف أقطارهم . فما الأدب بمفهومه العام الا تعبير عن واقع الحياة التى يعيشها الأدباء ، أو الناس من حولهم ، ثم عن الأحداث التى ينفعلون بها ، وأخيرا عن الأهداف التى يرمون اليها .

ولما كان نضالنا القومى من أهم الأحداث التى ننفعل بها ، ومن أسمى الأهداف التى نرمى اليها ، كان من البديهى أن تظهر صور هذا النضال فى نتاجنا الأدبى على مختلف فنونه وألوانه . ولا نكون مغالين أبدا اذا قلنا انه اجتمع لدينا نحن العرب منذ مطلع هذا القرن الى يومنا هذا ثروة طائلة من الأدب القومى ما نخالها اجتمعت لغيرنا من الامم ، ولا بد لنا أن نتساءل : هل كان للقصاصين العرب نصيب فى حمل الرسالة القومية كما كان لغيرهم من الأدباء وبخاصة الشعراء ؟

فمما لا شك فيه ان شعرنا القومى كان نقطة الانطلاق لفكرة الوحدة العربية بعد أن شتت شملها المستعمرون ومن قبلهم الشعوبيون . فكان الشعراء العرب حين يهاجمون الاستعمار العثمانى يهاجمونه باسم العرب كأمة واحدة ، وبذا كان لهم تأثير واضح فى بعث الثورة العربية الكبرى ضد الأتراك .

غير ان الشعر يهزنا هزة آنية سريعة . أما القصة فتتسلل الى أفكارنا برفق وتؤدة ، وتتغلغل فى أغوار عميقة من نفوسنا قد يعجز عن بلوغها أى فن من فنون الأدب ، لأن كل فكرة تنمو ببطء ، كما تنمو الفكرة فى القصة ، لا بد لها حين تستكمل نموها ان ترسخ فى الذهن ، وتسيطر على التفكير سيطرة من الصعب التغلب عليها ، او التخلص منها ، وعدا ذلك فالقصة كما يقول الشاعر الانكليزى ـ لويس ماكنس ـ جبار عنيف يستطيع أن يهضم كل شىء ، ويستوعب أى لون من ألوان الحياة .

كذلك نجد القصة ، لاسيما فى عصرنا هذا أكثر انتشارا وتداولا بين القــراء من أى نوع آخر من الادب ، وما ذاك الا لأن القراء يتذوقونها على مختلف أذواقهم وثقافاتهم وأعمارهم .

فالى أى مدى استطاع القاصون العرب أن يفيدوا من هذه الطاقة الهـائلة للقصة ؟ وهل استطاعوا أن يستغلوا فعاليتها فى خدمة الثورات العربية والمبادىء القومية ؟

قبل أن نصدر حكمنا لا بد لنا أن نلقى نظرة خاطفة على تاريخ القصة فى أدبنا العربى الحديث .

لقد أجمع مؤرخو القصة العربية على أننا أول ما كتبنا القصص كتبنا القصص الاجتماعيـة ذات المغـزى الاخلاقى التهذيبى ، ثم القصــص العاطفية ، وقصــص المغامرات ، ثم القصص التاريخية . أما القصص المستوحاة من نضالنا القومى فلم تظهر فى الفترة الأولى من نتاجنا القصصى ، هذا على الرغم من كثرة الحوادث التى توحى بها ، ومن شدة الحاجة اليها . وما نخال هذا التخلف جاء عن تقصير من القصاصين العرب بل جاء كنتيجة حتمية لأدبنا القصصى الناشىء الذى كان لا بد له أن يمر بمراحل كثيرة قبل أن يصل الى درجة الاصالة التى تتيح له صدق التعبير عن واقع الحياة التى يعيشها كتابه وعن أحاسيسهم ومشكلاتهم كان لا يزال فى دور التقليد والاقتباس والتأثر بالغير .

فالقصة بمفهومها الحديث دخيلة على أدبنا العربى ، قد انقطعت الصلة بينها وبين تراثنا القصصى القديم ، بينما نجد للشعر العربى القومى جذورا راسـخة ، بعيدة الغور فى أدبنا العربى ، وما يقال منه اليوم ما هو الا امتداد لـما قبلـه ، ثم ان القصة فى حاجة الى زمن طويل كى تختمر فى الذهن وكلما بعدت هـذه المدة الزمنية عن الحادثة بدت معالم القصة أكثر وضوحا فى ذهن القاص أى من الصعب جدا أن تكتب ابان الحادثة ، واذا كتبت فقلما تبلغ مستوى النجاح .

وهناك سبب آخر لعله أقوى الاسباب التى دعت الى تخلف القصة عن بقية فنون الأدب فى الميدان القومى ، وهو أننا لم نكن فى بدء كتابتنا للقصـة ننظر اليها نظرة جدية ، بل كنا نجدها أضعف من أن تستوعب موضوعا جديا كالموضوع القومى بل كانت تكتب غالبا للتسلية وتعتبر مضيعة للوقت . يقول الدكتور يوسف نجم فى كتابه « القصة فى الأدب العربى الحديث » :

ان الادباء كانوا يحتقرون كتاب القصة ، ويعتبرونهم فئة متخلفـة من ذوى المواهب الهزيلة ، لذا كانت المجلات الرصينة تتنكب عن نشر القصص . فالمقتطف احجمت فى بادىء الامر عن نشر القصص ، و أبدت فى مناسبات كثيرة اسـتنكارها لقراءة الروايات لما تسببه من قلق الشبان والشابات ، وطلبت من المربين والأولياء أن يحثوا أولادهم على قراءة الموضوعات النافعة التى تربى القوى العقلية والأدبية كى لا يتاح لهم الوقت الكافى لقراءة القصص والروايات مما يفسد الاخلاق .

فكيف بعد هذا تستطيع القصة ان تخوض المواضيع الجديدة كموضوع النضال ضد الاستعمار ، أو المواضيع القومية الأخرى ، ولفيف من كبار الأدباء وموجهي الأدب ينظرون اليها هذه النظرة ؟

ولكن بالرغم من هذه الآراء ، وفي الفترة نفسها ، قيض الله للقصة ادباء من روادها الأوائل كالأستاذ محمود تيمور الذي دأب على كتابتها ما يقارب نصف قرن بما أوتي من طاقة فنية هائلة على ابداعها فأخذ بيدها منذ كانت طفلة تحبو وراح يشجع الأدباء الناشئين على كتابتها حتى درجت في كنفه على قدميها وتبوأت مكانها في أدبنا الحديث .

كذلك نجد من كبار الأدباء جبران خليل جبران يحض على كتابتها . يقول الأستاذ يوسف نجم في كتابه « القصة في الأدب العربي الحديث » :

عثرنا بين رسائل جبران خليل جبران في بشرى على رسالة كتبها الى اميل زيدان صاحب مجلة الهلال عام ١٩١٩ يقول فيها :

سوف ابعث لك بمقال او بحكاية للسنة القادمة وعلى ذكر الحكاية الا ترى أننا بلغنا في نهضتنا الأدبية ، أو شبه الأدبية نقطة تستدعي تشجيع الكتاب وترغيبهم في ابداء أفكارهم ، ومنازعهم وأخلاقهم في قالب الحكاية ؟ لقد مل الناس المقالات والقصائد ، والشرقي يميل طبعا الى سرد الحكايات ، بل هو الذي ابتدع هذا الفن . ولكن الشرقي في أيامنا هذه لا يتحول الى كاتب ، أو شاعر حتى ينسى أفضل مواهبه ان الحكايات والروايات هي التي سببت الانقلابات السياسية والاجتماعية في أوربا ، وأمريكا .

وعندي أنه يجب علينا ايقاظ هذا الميل في الشرقيين لأنه أفضل وسيلة لما تكنه الغريزة الفنية . فالحياة الفنية لا ولن تصير ذات شأن الا بواسطة الاختلاف الفني، وليس هناك شيء أدعى للاختلاق الفني من الحكاية . حبذا لو كتبت فصلا في هذا الموضوع وابنت رغبة الهلال في الحصول على الحكايات . انتهت الرسالة .

ولكن جبران نفسه لم يكتب القصة التي تعبر عن ثورة الانسان العربي آنذاك على مستعمريه ، مع ان لبنان ــ وطن جبران ــ كان أكثر الاقطار العربية تأثرا بالظلم التركي . كانت بعض قصص جبران فلسفية ، وبعضها الآخر يدور حول نقد رجالات الدين أو نقد الاوضاع الاجتماعية في بلاده لا سيما ما كان منها يتعلق بالزواج ، وبضغط حرية المرأة . كذلك نفتقد هذا اللون في نتاج ميخائيل نعيمة القصصي ، وعلى يدي هذين الأديبين ازدهرت القصة في المهجر ولكنها لم تبرز في المواضيع القومية التي برز فيها الشعر المهجري ، حيث كان يتاح في المهجر للأدباء حرية النشر ، حين كان يتحرق عليها زملاؤهم في البلاد العربية . وبالرغم من ذلك كله لا نعدم بين رواد القصة الأوائل من اتسعت قصصه لمعالجة قضية الحرية ، والحض على الثورة ضد الحكام الظالمين .

يقول الاستاذ شاكر مصطفى في كتابه « تاريخ القصة في سورية » :

ان اسكندر المراش كتب عام ١٨٦٢ قصة بعنوان (غابة الحق) وتعتبر أقدم مشروع قصصي في الأدب العربي الحديث . وهي رمزية تتركز على مفهوم الحرية ، وتحرير الانسان من ربقة العبودية . كتب عن هذه القصة أديب يسمى عبد المسيح انطاكي يقول :

ان أول من أقدم على تنبيه خواطر العرب على النهوض ، هو المرحوم فرنسيس المراش في قصته (غابة الحق) . ويؤكد ان هذه القصة بتاريخها المبكر ستظل من أبرز الكتب التي كتبت لتطوير الوعي العربي الحديث . كذلك نجد أيضا قاصا آخر نحا منحى المراش هو القاص السوري نعمان القساطلي الذي نشر عام ١٨٨٣ قصصا يدعو فيها الى فكرة الحرية ، الدعوة الخطرة التي كان من الممكن ان تكلفه حياته في أيام السلطان عبد الحميد . فنراه يحمل على الملوك ، وظلم الملوك ، ويعلن كاولئك الذين سبقوا الثورة الفرنسية ضرورة الثورة على الظلم والطغيان ، ويدعو الى حب الوطن كلما أراد التحدث عن النهضة والتقدم ، ولا شك ان جراته اذ ذاك تدهشنا حتى نكاد نحسب الا عبد الحميد ، ولا رقابة ولا تجسس على الرءوس والقلوب .

وما عدا هذين القاصين من الرواد الأوائل لا نلمح القصة التي تمهد للثورة وتحث عليها ، أو تؤرخ لمعركتنا النضالية في سبيل الحرية الا ما ندر جدا أو من النوع الذي لا يعيش طويلا لضعف تركيبه الفني .

ويأخذ أدب القصة في النمو والانتشار ، ويصبح معظمه مركزا على نقد أوضاعنا الاجتماعية ، وابراز عيوبها مضخمة ، وعلى التقاليد البالية التي تسبب تأخرنا عن ركب الحضارة . ثم تظهر قصص تصور نضالا طبقيا بين الشعب الواحد فتحمل على الاقطاع ، وما ينجم عنه من فقر وجهل ، وتمهد للاشتراكية ، ويظهر جليا في هذه القصص تأثرنا بالأدب الروسي المترجم . ولا ننكر أبدا أن هذا كله أدب قومي .

يقول – جان بول سارتر – ان الادب العربي الحديث يجب أن يعبر عن نضال شعوبه ، وان الانسان يجب أن يكون مادته ، وان التقدم والحرية يجب أن يكونا هدفه .

ويرد توفيق الحكيم على (سارتر) في كتابه (أدب الحياة) بما معناه أن الأدب العربي لم يهمل هذه الرسالة أبدا . والا لما نشر (سارتر) نفسه فصولا متتابعة عن كتاب توفيق الحكيم (يوميات نائب في الأرياف) في مجلته (أوطان مودرن) والمعروف في فرنسا وفي كل مكان من العالم ان (سارتر) لا ينشر في مجلته هذه الا كل أدب يتجه الى الاهداف عينها ووصفها ووجدها معبرة عن نضال الشعوب مدافعة عن الانسان ، مكافحة عنه ضد الظلم ، معينة على الحرية والتقدم . وقد أصاب توفيق الحكيم في رده هذا ، لأن تصوير واقعنا بما فيه من ظلم وتأخر وانحراف كما صوره في يوميات نائب في الارياف ينبه الاذهان لاصلاح هذا الفساد فهو لا شك أبدا أدب قومي نضالي كالكثير من قصص الاستاذ محمود تيمور أو

قصص مجموعة (المعذبون في الارض) للدكتور طه حسين ، ولكن نقصد من بحثنا هذا القصة التي تحرض على النضال في سبيل الاستقلال و الحرية أو تؤرخ للمعركة فيما بعد .

فما من حرب أو ثورة الا وتمخضت عن قصص وروايات تؤرخ لها أدبيا . فالتاريخ مهما كان صادقا لا يستطيع أن يصور لنا تفاصيل جزئية أو يرسم لنا مشاهد نابضة بالحياة كما تستطيع القصص والروايات ، ولو بعدت هذه عن الحقائق الواقعة بقدر ما يقترب منها التاريخ .

وتظل القصة من طويلة وقصيرة متخلفة عن غيرها من فنون الادب في دعم الحركة النضالية في سبيل الحرية حتى عام ١٩٣٩ حيث ظهرت بشائرها على يد القاص ـ توفيق عواد ـ في قصته «الرغيف» وهى القصة التي استطاعت أن تعبر أصدق تعبير عن الثورة القومية ضد الحكم التركي . وفي السنة نفسها ظهرت (قدر نلهو) لشكيب الجابري ، وسبقتها قليلا ـ عودة الروح ـ لتوفيق الحكيم .

وبما أن قصة الرغيف تصور صراعا دخلت فيه شعوب عدة اقطار عربية لا شعب واحد فقط رأينا أن نختارها للتلخيص كنموذج للقصة القومية .

***

ان قصة الرغيف تصور وعى الطبقة المفكرة في العالم العربي لمأساة الأمة العربية ابان الحكم التركي ، ويتخذ المؤلف نموذجا لهذه الطبقة الشباب اللبناني ـ سامي عاصم ـ وهو بطل الرواية . شاب لبناني مفكر تشتعل فيه حماسة وطنية تدفعه الى الجهاد في سبيل تخليص وطنه من العبودية ، وتطارده السلطات التركية مع من تطارد من الاحرار ، ثم يقبض عليه ويزج في سجن (عاليه) بانتظار محاكمته ، ويسام العذاب المنكر اثناء استجوابه فلا يبوح بمخابىء رفاقه . ثم يستطيع ان يؤثر في قائد الحرس فيفر معه من السجن ، ويأتي الأتراك بجثتين مستورتين بقماش ليوهموا الناس بأنهما جثتا الرجلين الفارين ، وقد قتلا أثناء فرارهما .

وترى (زينة) ـ وهى حبيبة سامي عاصم وخطيبته ـ الجثتين فيهلع قلبها من الحزن واليأس . ثم تستبد بها عاطفة الانتقام وعندئذ تستجيب لدعوة الحاكم التركي الذى كان يرغب فيها منذ زمن طويل ، فقد جاءت ترجوه ان يسمح لها برؤية حبيبها ـ سامي عاصم ـ في السجن ، وتدخل مع الحاكم الى غرفته الخاصة ، وتجلس الى جانبه وهو يشرب فاذا ثمل تتناول مسدسه وتقتله به ، ثم تفر من القصر وتنضم الى فرقة من الثائرين كالوف الشباب العربي المتحرر في سائر البلاد العربية ، ثم يبلغها أن سامي لم يمت وانما التحق بالمركز الرئيسي للثورة . ويظل يجاهد ضد الترك حتى يسقط شهيدا في ميدان المعركة . ونستطيع أن نقول ان توفيق عواد قد عالج نقاطا هامة ما زالت الى الآن بالرغم من مضي خمس وعشرين سنة على الرواية جديرة بالمعالجة ، كالطائفية مثلا فهو يتخير أبطاله من المسلمين والمسيحيين على السواء ، ويجمل بينهم تعاطفا وتماسكا تزكيه الروح الوطنية فتطغى على العاطفة الدينية . يقول بطل الرواية سامي عاصم لرئيس الحرس وهو مسلم عراقي :

اليوم ولدت القومية العربية الصحيحة ، ان هـذه الثورة التى أمشى فيها انا المسيحى العربى الى جانب العربى المسلم لنحارب عدوا مشتركا لبلادنا هو التركى سواء اتبع محمدا أم المسيح أم الشيطان .

كذلك نجده يتخذ شخوص روايته من لبنـان والعراق وسورية معتبرا الوحدة العربية قائمة بينهم . فهم يسعون جميعا لهدف واحد هو تحرير الوطن العربى . كما أنه يشرك المرأة فى الجهاد ويعطيها دورا هاما فى المعركة ، ويبشر بالاشتراكية . كل هذه المشكلات التى لا تزال قائمة فى الوطن العربى حاول توفيق عواد معالجتهـا فى روايته (الرغيف) ومما يؤسف له تماما أن توفيق عواد هـذا قد انقطع عن كتابة هذا اللون من الأدب بعد روايته الرغيف على الرغم من النجاح الذى أصابه فيها .كان الرجل قد قال كل مايريد أن يقوله، أو كأن كفاحنا قد انتهى بانتهاء الحكم التركى..

وتمضى فترة طويلة والنتـاج القصصى فى ازدياد مستمر ولـكن دون أن نرى فيه انعكاس شعورنا القومى ونضالنا ضد المستعمر كما رأيناه فى قصـته (عودة الروح) لتوفيق الحكيم أو فى قصة الرغيف ، أو كالذى كنـا نراه فى سـائر فنون الأدب من شعر ونثر . مع أن الحركة التحريرية كانت على أشدها فى الوطن العربى. ثم بدأت تظهر بوادره فى القصة القصيرة ، ومما لا ريب فيه أن محاولات كثيرة بذلت لكتابة القصة القومية ولكن الضعف الفنى فى تركيبها حال دون انتشارها أو خلودها ولو لأمد قصير . وظل هذا حالها حتى نكبة فلسطين !.. تلك المأساة المريعة التى جعلتنا نصحو مذعورين أمام المسئوليات الكبرى التى يتحتم علينا مواجهتها فى كل ميدان . نجد أنفسنا تجاه تجارب عنيفة تهز مشاعرنا كالقتـل والتشرد والجوع والمرض ، والتمزق والفشل نجد ذلك كله ماثلا فى اللاجئين العرب كيفمـا التفتنا . وتأتى تلك التجارب العنيفة مواكبة لحركة الالتزام التى طفت جماعا على الأدب العالمى بصورة عامة آنذاك ثم تسربت الى الأدب العربى . ويصبح كأنه حتما لزاما على كل أديب أن يكتب عن المأساة ، وكان لابد للقصة التى تعبر عن النضال القومى أن تنطلق من عقالها وتلحق بالركب . وكان الوقت قد حان أيضا لنضجها واستطاعتها التعبير عن واقعنا الراهن . ويندر حينئذ أن نجد قاصا من قصاصينا الشباب لم يتـأثر بالنكبة وينفعل بها ، ويكتب قصـة عنها . حتى ان بعض القصص التى كتبت عن الثورة السورية كتبت بعـد نكبة فلسطين . وبين الحادثتين ما يقـارب الربع قرن ، كروا ية (أرض البطولات) وقد فازت هذه الرواية بجائزة الدولة عام ١٩٦٠ وتجرى حوادثها أبان الثورة السورية . وكثير غيرها من القصص القصيرة .

بعد مأساة فلسطين بسنوات قليلة تندلع ثورة الجزائر ، والشعور العربى فى أوج تأزمه وغليـانه ، ثم تأتى حادثة العـدوان على بور سعيد ، ثم الوحدة بين مصر وسورية ، ثم ثورة العـراق على الحكم الملـكى . ومن الطبيعى جدا أن تصبح هـذه الثورات مادة خصبة للقصـاصين العرب يستوحون أحداثهـا ويقبلون على كتابتهـا بحماسة كنا نفتقدها عند القصاصين الأوائل .

فنحن مثلا لم نقرأ قصصا عن شهداء السـادس من أيار الذين أعدمهم السفاح

التركي جمال باشا ، أو عن اعدام عمر المختار في برقة ، وكل هذه الحوادث كانت جديرة بأن توحى بقصص قومية رائعة ، بينما نجد الشعر ـ كما قلنا سابقا ـ لم يقصر في ذلك أبدا .

وبتدفق سيل من القصص القومية القصيرة فتظهر مجموعات قصصية تحمل غالبا كعنوان لها اسم القصة القومية في المجموعة كجواز مرور حتى لو كانت تلك القصة القومية أضعف من غيرها من وجهة فنية . نستطيع أن نذكر من هذه المجموعات لا على سبيل الحصر او التسلسل بل على سبيل المثال ، ولاعطاء فكرة عن غزارة الانتاج في هذا المضمار .

مجموعة تاريخ جرح ، للاستاذ فؤاد الشايب ، والدمع المر للدكتور سهيل ادريس ، وأرض المعركة لعبد الرحمن الشرقاوي ، وخل السيف يقول ، لعيسى الناعوري ، والتراب الحزين للدكتور بديع حقي ، والشوق واللقاء لفاضل السباعي ، والمناديل البيض لمواهب كيالي ، وغروب في الفجر لوليد مدفعي ، والبطل للدكتور يوسف ادريس ، وحتى القطرة الأخيرة لفارس زرزور ، ويحدثونك من القلب لقدرى العمر ، والشرارة الأولى لمراد السباعي ، والثوار مروا بيتنا لعادل أبي شنب ، دروب الى القمة المجموعة القصصية التي اصدرتها رابطة الكتاب العربي في سورية . هذا عدا عن القصص القومية الغزيرة التي نقرأها كل يوم في الصحف والمجلات أو في مجموعات كقصص سميرة عزام القومية ، ومطاع صفدي ، وخليل هنداوي وغيرهم وغيرهم مما لا يسمح المجال بتعدادهم .

أما الرواية أو القصة الطويلة فحصيلتنا منها أضعف من القصة القصيرة . ونمضي فترة طويلة دون أن نحظى برواية أو بقصة طويلة ذات طابع نضالي الى أن يتحفنا الاستاذ محمود تيمور بقصتين طويلتين من هذا القبيل هما المصابيح الزرق ، وثائرون يصورفيهما المؤلف بوادر الوعي القومي عند الشباب ، ثم الصراع بين الشعب ومستعمريه . ثم تظهر ثلاثية نجيب محفوظ ـ بين القصرين ، وقصر الشوق ، والسكرية ـ ثم تتتالى الروايات والقصص الطويلة ذات الطابع القومي النضالي نذكر منها الحي اللاتيني لسهيل ادريس ، ورد قلبي ليوسف السباعي ، لا تطفىء الشمس لاحسان عبد القدوس ، وفي بيتنا رجل له أيضا ، وقصة حب للدكتور يوسف ادريس ، جيل القدر لمطاع صفدي ، أرض البطولات لعبد الرحمن الباشا ، ورجال في الشمس لغسان كنفاني و و ...

ولو استطعنا أن نضيف الى هذه الروايات ، الروايات التي كتبها الأدباء الجزائريون باللغة الفرنسية وعبروا فيها عن نضال الشعب العربي في الجزائر لكان لدينا حصيلة رائعة من حيث الكم والكيف ولكن هذا متعذر على ما نرى ، لأن ملايين العرب لا يستطيعون أن يقرأوا هذا الأدب . في ثلاثية نجيب محفوظ لم تكن الفكرة القومية النضالية هي الركيزة التي تدور حولها حوادث هذه الثلاثية ، ولكنها كانت جزءا هاما من حياة اسرة مصرية من الطبقة البرجوازية الصغيرة ، وبما أننا نستطيع أن نرى تطور نضالنا القومي في البلاد العربية طيلة ثلاثة أجيال من خلال انعكاسه

على هذه الأسرة لتشابه أوضاعنا الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وأخيرا موقفنا من الاستعمار ، وموقف الاستعمار منا . رأينا أن نلخصها ، ولما كان لايعنينا من هذه الرواية الطويلة المتشابكة الأحداث سوى الناحية القومية كان لا بد لنا أن نفصلها عن بقية حوادث الرواية ونركز اهتمامنا عليها •

يصور لنا نجيب محفوظ الشعور القومي عند السيد أحمد عبد الجواد ، التاجر فى سوق النحاسين رب هذه الأسرة شعورا سطحياكغيره من ملايين العرب غير المثقفين فى ذلك العهد • يحب السيد عبد الجواد وطنه ، لأن حب الوطن من الايمان ، ويكره المستعمرين الكفار ، ولا يبخل بماله قدر مستطاعه لدعم الحركة الوطنية عندما يطالبه القائمون عليها بالتبرع لها ، يصفق للمتظاهرين ، ويتلهف على قراءة أخبار الزعماء المنفيين ـ سعد زغلول وزملائه ـ وتتقد فيه الحماسة لنصرتهم ، ولكنه يريد دائما أن يبقى هو وأولاده بمنجاة عن خطورة الاندفاع فى المعركة • وهذا يعنى أن شعوره القومي لم يرق الى درجة التضحية ، لأنه لم يدرك بعد مدى الخطر الذى يحيق به • لذا نراه يمعن فى توبيخ ابنه ـ فهمى ـ الطالب فى الجامعة عندما يبلغه خبر انتمائه الىالحركة الوطنية، فيأتى به الى غرفته وينصحه بالحسنى ويطلب منهأن يقسم على القرآن بالا يعود الى تهوره هذا . ولكن ـ فهمى ـ وهو النموذج المثقف للشباب العربى الواعى آنذاك ، يأبى أن ينصاع لارادة أبيه ، ويتجرأ لأول مرة على مجادلته ، ويدحض آراء أبيه بآيات من القرآن تحض على الجهاد ، ولكن الوالد لا يقتنع ، والابن لا يخضع لارادة أبيه ، ويظل ماضيا فى طريقه الذى اختطه لنفسه فيقول :

سيان أن أحيا أو أن أموت ... الايمان أقوى من الموت ، والموت أشرف من الذل ، فهنيئا لنا الأمل الذى هانت الى جانبه الحياة ، أهلا بصباح جديد من الحرية وليقض الله ما هو قاض •

ويقضى الله بأن يستشهد هذا الفتى فىذلك الصباح الجديد منالحرية فى احدى المظاهرات !.. وتتحقق نبوءة الأب •

هذه المأساة التى مرت بالسيد أحمد عبد الجواد تجعله أكثر ارتباطا بمأساة وطنه ، وأعمق فهما لها ، وأكثر حماسة •

ويتحقق شىء من استقلال البلاد فيتسلم الزعماء الوطنيون الحكم • ولكن سرعان ما يخيب أمل الشباب الواعى بزعمائه عندما يرى تكالبهم على الحكم ونسيانهم قضية البلاد الى جانب منافعهم الخاصة •

وينشأ جيل من الشباب أكثر ثقافة ووعيا من الجيل الذى سبقه لكنه يقف مكتوف الأيدى تجاه هذه الأوضاع ، يصاب بشىء من التقزز والاشمئزاز ، وضياع الثقة بالنفس • ويتخذ المؤلف ـ كمال ـ وهو الابن الأصغر للسيد أحمد عبد الجواد لهذا الجيل ـ ما أكثر أمثالهذا النموذجفيجميع البلاد العربية !.. الشباب المثقف الواعى الذى لا ينقصه الايمان بقضية بلاده ، انما تنقصه الثقة بنفسه وبمجتمعه ، وبزعمائه ، وبمقدرته على خوض المعركة ، وكلما أوغل هذا الجيل فى الثقافة الغربية

ازداد ضعفاً ، وتخاذلا ، وفشلا ، وكأنه قد أصيب بعقدة تسبب له اليأس والتخاذل كلما كان يقارن بلاده بلاده ببلاد الغرب .

نرى «كمال» هذا فاشلا ايضا فى حياته الخاصة مترددا دائما أبدا ، فشل فى حبه، ولم يقدم على الزواج عندما أتيحت له الفرصة أن يتزوج بمن يحب لكثرة تردده ، يتأفف من مجتمعه ومن طراز حياته، ويتطلب الأفضل، ولكنه كان أعجز من أن يحقق هذا الأفضل .

لم نر فيه اقدام اخيه «فهمى» على التضحية فى سبيل حرية بلاده على الرغم من كونه اعمق فهما لقضاياها بل كان يكتفى بمجادلات ومناقشات سلبية تدور بينه وبين أصدقائه ، ولم يخرج عن هذا النطاق ، أبدا ، ولم يرض عن نفسه أبدا حتى نجده يقول :

عشت معذب الضمير كما ينبغى لكل خائن أن يعيش .

ويأتى جيل آخر من الشباب العربى الواعى، يجد أن الاستمرار فى هذه السلبية لا يجدى شيئا ، فيتحتم عليه اذن أن يخرج منها ويواجه مسئولياته . ولكن من أين يبدأ ؟ وأى الطرق يسلك ؟ .

ويقع فى بلبلة وحيرة واضطراب ، ونرى المؤلف قد وفق الى أبعد حدود التوفيق عندما قدم لنا نموذج هذا الجيل الضائع بين الدروب فى شخصيتى أخوين توأمين من أحفاد السيد أحمد عبد الجواد هما : أحمد ، وعبد المنعم . لقد تربيا فى بيت واحد ، وفى بيئة واحدة . ولما شبا شعرا بالحيرة والبلبلة كغيرهما من شباب الجيل الضائع .

وينهى نجيب محفوظ روايته وهو يصور لنا ثورة تغلى مراجلها فى الصدور ولكنها لم تهتد بعد الى الطريق السوى الذى يؤدى بها الى تحقيق أمانيها . لا شك أن نجيب محفوظ قد أرخ لهذه الفترة من النضال القومى واعطانا عنها صورا واقعية تماما فى اطار فنى . فلو أتيح لشخوص روايته أن يوجدوا فى الحياة ، وفى نفس الظروف التى حدثت فيها الرواية لما كان لهم الا أن يتصرفوا كما شاء لهم نجيب محفوظ .

يبدو لنا بعد هذا كله أن القصة القومية من قصيرة وطويلة بدأت تتبوأ مكانتها فى أدبنا القومى . بل نجدها بعد تخلفها الطويل تسير بخطى سريعة ، فقد ازداد فى الآونة الأخيرة اقبال القصاصين والروائين على كتابتها لأنها ـ كما قلت سابقا ـ أطوع فنون الأدب على التوجيه وبث المبادىء ، من أجل ذلك كله تقام لها المسابقات وتقدم الجوائز الثمينة للفائزين ، ومن يدرى !! لعلها تبلغ قصب السبق فى نهاية الشوط .

الغـربـاء

بقلم : نجيب كيلاني

حدث ذلك منذ عشرين عاما ..

كانت مدرستنا الابتدائية فى قرية تبعد عن قريتنا مايقرب من خمسة كيلو مترات ، نقطعها ذهابا وايابا كل يوم سيرا على الاقدام ، كان هذا مرهقا الى حد بعيد ، لكن كثرة عدونا ، وتعودنا على ذلك السفر اليومى ، وشعورنا باننا محظوظون لحصولناعلى فرصة التعليم ، كل ذلك خفف من ارهاقنا وآلامنا .. ثم ان لكل شيىء نهاية .. وسياتى يوم ننال فيهالشهادة الابتدائية ، ثمنستقر فى المدينة ، ونودع أيام التعب والشقاء .. وفجأة اصدرت المدرسة قرارا بأن نقيم فى القرية التى بها المدرسة حتىيتيسر لنا الوقتالكافى للمذاكرة ، ولتوفر علينامشاق الطريق واستقر بنا المقام فى حجرة شبهمظلمة بمنزل متواضع جداوبأجر زهيدلايكلف الواحد منا أكثر منثلاثة قروشفىالشهر اذ كنا سبعةتلامذة ، نتراص متجاورين كل مساء على حصيرة واسعة ، تغطى ارض الحجرة الطينية .. ولم يكن يزعجنا فى مسكننا الجديد سوى مرور مدرس الحساب فى أوقات مختلفة ..

كان الرجل قاسيا غاية القسوة .. وكان يهبط علينا كهادم اللذات ، ونحن نسمر فى المساء ، أو نحكى ذكرياتنا ، كى نقطع رحلة ليل الشتاء الطويل ، وننسى آلام الغربة ، فى تلك السن المبكرة اذ كانت أعمارنا تتراوح بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة .. وكثيرا مانجد باب الغرفة يفتح فجأة ، ويطل منه وجه «نصيف افندى» مدرس الحساب . وفى يده خيزرانه ملساء ثقيلة يعرفها الجميع ، وعلى عينيه منظار زجاجى شفاف ، تتسرب من خلاله نظرات صارمة تزرع فى قلوبنا الغضة رعبا هائلا ، ولم يكن يفتحالباب الا بعد أن ينصت الى حديثنا الفارغ بضع دقائق كالجاسوس .. وعندما نصطدم بمرآه ننهار .. نقف اذلاء فى أركان الحجرة ، خافضى الرءوس ، تتراقص على وجوهنا الشاحبة الضامرة أضواء المصباح الغازى المتهافتة . ونظل منتظرين ، وقلوبنا تدق ، وكل واحد منا يستعيد ماقاله فى الدقائق الفائتة .. هل تفوه بكلمات خارجة ؟! هل سخر من بعض مدرسى

المدرسة مثلا ؟؟ هل ورد على لسانه اسم فتاة ؟؟ كلها جرائم ذات عقاب صارم ، ولانتيجة وراءها سوى العذاب النفسى الرهيب .. وهكذا كانت صورة «نصيف» افندى مقترنة فى أذهاننا بصورة الجلاد الذى لايرحم ، على الرغم من أن قسوته تلك كانت تجد لها قبولا حسنا، ورضاء تاما لدى أولياء امورنا ..

كانت حياتنا فى القرية حياة قذرة ، ونقاسى من سوء التغذية ، ومن الخوف من نصيف افندى ونفتقد حنان الأمهات والآباء ، ونتلهف على يومى الخميس والجمعة كى نفر الى قريتنا لنأكل ونلقى الأمل ونشعر بالامن والسعادة المؤقتة .. ولم يكن يشبه هذين اليومين سوى الفترة التى يسافر فيها نصيف افندى الى الصعيد بعيدا عنا .. ليزور أهله ، ويحضر معه كميات من السمن والجبن والدقيق .. كنا نعرف ذلك ، ونعرف انه لن يعود الى المدرسة الابتدائية الاهلية قبل أسبوع على الأقل ، وخلال هذا الأسبوع نتصرف كسكارى تحللوا من كل قيود ، أو كمجانين لاعقل لهم ، نغنى ونرقص ، ونقضى ليالينا فى المسرح والحكايات والذكريات الشجية ، ونمتص عيدان القصب ، ونتبادل الزيارات ، ونهرع الى شوارع القرية وازقتها نتعرض للفتيات ، ونثير الشغب ، ولا نفتح كتابا ..

وهبط علينا نصيف افندى ذات مساء ، كنا لحسن الحظ نتحلق حول (طبلية) « خشبية » يتوسطها الصباح الغازى ، منهمكين فى الاستذكار ، وكل منا مستقل بدنياه التى تزحمها عشرات الأمال والآلام ، وعندما فتح الباب وبرز نصيف افندى ـ تنفسنا الصعداء وحمدنا الله .. انها احدى المرات النادرة التى لانضبط فيها متلبسين باللعب .. ومع ذلك فقد كانت قلوبنا تدق من خوف غامض ، لكنه شىء ملازم لطبيعتنا ، وتفحصنا الرجل بنظراته . : كنا نرتعش .. والصمت يزيد الموقف رهبه .. ونظراتنا قلقة كمجموعة من الفئران امام قط برى متوحش ، ولم نصدق آذاننا حينما سمعنا نصيف افندى يقول باسما : ـ

« ماذا تذاكرون ؟؟ »

ـ فانطلقنا فى صوت واحد تقول :

« الحساب ياسعادة البك »

« اتعترضكم صعوبة ما .. »

« ابدا ابدا .. سهل جدا ياسعادة البك .. »

ثم خطانصيف افندى داخل الحجرة والخيرزانه الملساء الثقيلة فى يمينه ، وعلى الرغم مناكنا نتراجع ونحاول ان نختبىء فى الحائط .. بل كنا نتمنى ـ برغم اطمئناننا المؤقت ـ ان تبتلعنا الأرض ، أو ترسل السماء اى انسان يستدعى نصيف افندى لأى أمر من الأمور ، حتى ولو أتى واحد وأخبره بأن ابنه قد داسته عربة ـ لكنها مجرد أمنيات طائرة لا تتحقق مطلقا .. فهاهو نصيف افندى يقف أمامنا ويردد كلمات هبطت علينا كالصاعقة :

ـ « ياأولاد .. أنا مبسوط منكم جدا .. لسبب بسيط وهو انكم

مؤدبون ومجتهدون فى دروسكم :واولاد ناس طيبين فى نفس الوقت .. وفى بيتى حجرة خالية .. كنت ابحث عمن يسكنها ، وانا لااسمح بتواجد اى انسان فى بيتى اللهم الانوع معين أرى فيه صفات خاصة .. لهذا قررت أن اختار منكم اربعة فقط ليسكنوا عندى .. وزاغت أبصارنا ، ودارت بنا الأرض ،كنا نرهبه ونحن بعيدون عنه تفصلنا حوارى وشوارع عدة ، وكان شبحه يلاحقنا فى قريتنا فى يومى الخميس والجمعة ، فيفسد علينا نومنا واحلامنا ، فكيف نستطيع أن نعيش تحت سقف بيته ، وفى حجرة لاتبعد سوى خطوات عن حجرته ، ونسمع صوته كل ساعة ، وكيف نفهم الدروس ونهضمها ، ونحن متأكدون انه الى جوارنا ؟! اذن سنعيش فى رعب قاتل مستمر ، ونقضى ليالينا بلا سمر ولا ذكريات ، ومستحيل أن تجلجل ضحكاتنا ، أو نستقبل زوارا لدينا .. ان قرار انتقالنا الى بيته معناه كارثة كبرى لاتعادلها كارثة على وجه الأرض ، هكذا تصورنا .

وانفرجت ثغورنا عن ابتسامات ميتة لامعنى لها ، وحاولنا أن نبدى سعادتنا لهذا العطف السامى ، والتقدير الذى لم يحظ به احد غيرنا ، وكأنما أخذتنا المفاجأة فأصابنا البكم ولم نستطع أن نتكلم أو نعلق .

لم نجرب محادثته من قبل ، حتى مجرد كلمات الشكر والامتنان عجزنا عن التفوه بها ، لكن «نوفل» وهو أكبرناسنا وجسما وصفاقة ، هتف بصوت متلعثم: « انه لشرف كبير يا سعادة البيه »

وسعل نصيف افندى وهز رأسه فى رضا وكبرياء ثم قال :

ـ « انتم مثل أولادى وستكون يانوفل » أحد الأربعة ان شاء الله ـ انت ولد مؤدب »

وحال لون نوفل الى شحوب ظاهر ، وأخذت عيوننا تتسلل اليه خفية ، رأينا نوفل يرتبك وتصدر عنه ضحكات هستيرية قصيرة خفيفة ويتمتم ..

ـ « ربنا يعلى مراتبك ياسعادة البك » .

كان قلقنا متزايد عنيفا ، وبدا « نوفل » فى نظرنا أول الشهداء ، وشعرنا تجاهه بالأسى والعطف لقد تحدد مصير نوفل المسكين ، ترى من سيسقط بعده ؟ . ولم نستطرد فى مخاوفنا المرتقبة ، اذ هدر صوت نصيف أفندى وقد اكتست ملامحه بالجد والصرامة : ـ

ـ « لكن يجب أن تفهموا أن أى اخلال أو قلة أدب معناها الطرد من بيتى فورا ..

« انتم جميعا تعرفون من أنا ، وكرامتى فوق الجميع .. والخارج عن النظام أستطيع أن أدفنه حيا .. »

وعاد الصمت العاصف الرهيب من جديد ، وغمرنا العرق برغم برودة الجو ، ولم يعد يسمع سوى حشرجة أنفاسنا اللاهثة . وكان احساس غريب يراودنا بأن أيادى غليظة لا ترى تطبق على أعناقنا ، وتشتد قبضتها رويدا رويدا حتى أوشكنا على مايشبه الاختناق ، ثم عاد نصيف أفندى للحديث ثانية ، لكنه هذه المرة قد بعث بحديثه فى نفوسنا قطرات من أمل وسعادة .



ـ « سأسافر الى الصعيد غدا يا أولاد ٠ وسأمكث هناك بضعة أيام٠٠ وبعد أن أعود سأنفذ ماوعدتكم به ٠٠ واختيارى لأربعة منكم أرجو ألا يغضب الباقين لو كان عندى متسع لأخذتكم جميعا ٠٠ ومع ذلك فقد أجد لهم أيضا مكانا فيما بعد ٠٠ أعرف أنكم تتمنون أن تسكنوا عندى كلكم٠٠ لكن ماحيلتى والمكان ضيق ؟؟ » ٠

وأولانا نصيف أفندى ظهره وخرج ، وبقينا مسمرين كالتماثيل الحجرية ، واثر اللحظات العاصفة لم يزل يملأ قلوبنا ورءوسنا ، ويترنح نوفل ، وتختلج شفتاه ، ثم تطفر الدموع من عينيه ، وينهار باكيا ويقول وهو يشهق :

ـ « ملعون ابو المدارس وايامها السوداء ٠٠ لسوف اقتل نفسى ٠٠ الموت اهون ٠٠ وارتمينا على الحصير البارده فى اجهاد واسى ، وآمالنا فى الخلاص تبدو قميئة عاجزة عن أن تمس السحاب ، واليأس الشامل يلون نظرتنا للحياة والمستقبل ، ولا احد يستطيع ان يستشعر عذابنا سوى الله٠٠ ونحن الذين نكتوى بنيران الخوف ٠٠ ومع مذاق الحياة المرير الذى كنا نقص به الا اننا حاولنا ان نخفف من حدته ، ونقبل الامر على علاته ، فليس فى مقصورنا أن نتمرد أو نثور ٠ ولا يمكننا أن نصرح علانيه باننا أحرار ونسكن فى المكان الذى نريد ، ولو حدث وطالبنا بحريتنا فسيكون ذلك ضربا من الجنون قد يعرضنا لما هو أشد وأنكى ، وفى ليلة مطيره قارسة البرد ، كنا نتكمش فى حجرتنا الرطبه نمص القصب ونتحدث فى غير قليل من الاطمئنان٠٠ فقد كان نصيف افندى فى الصعيد ، وكنا دون رقيب ٠ وخرج « نوفل » عن صمته واكتئابه ، ثم وثب الى بسطة النافذه التى ترتفع من ارض الحجرة حوالى المتر ، وتناسى الى حين ما يضمره له المستقبل من أحزان قاتمة ٠ يستشعرها دائما أولئك الرازحون تحت وطأة الذل والقهر ٠٠ وأخذنا ننتقل من حديث الى حديث ، ونثب من نادره الى أخرى ، ولم ندر كيف دخلنا فى موضوع النساء ٠٠ وكان هذا موضوعا يجيده « نوفل » ويتحدث عنه فى مهارة وحرارة ٠٠ أخذ يحدثنا عن « عوض الله » ابن بلدنا ذلك الرجل المفتون بماله وشبابه ٠٠ وكيف أن « عوض الله » أحب فتاة ليل فى المدينة ، وباع بسببها مايقرب من عشرة أفدنة٠٠ وأخذ يصور بدقة ماكان يحدث ٠٠

« تصوروا يا أولاد » كانت عشيقته كالجنية الساحرة ٠٠ كانت شقراء ذات خدود حمراء كالورد ٠٠ وأنفها ٠٠ آه ٠٠ كبلح الشام ٠٠ وشفتاها الغليظتان يكاد يتفجر منهما الدم ٠٠ لها عنق من المرمر ٠٠ وصدر ناهد تبارك الخلاق فيما خلق ٠٠ حتى أقدامها الصغيرة العارية كانت تذهب بعقل « عوض الله » و « تسكره » وصوتها ذو نبرات حنونة دافئة : كل شىء فيها كان يغرى بالاثم ٠٠ ويجلس معها عوض الله طول الليل دون خوف من أحد ٠٠ ويشربان الخمر ، ويأكلان الحمام والأرز والتفاح والموز ويغيبان عن الوجود ٠٠٠ » كانت قطرات المطر تتساقط فى الخارج ، وصدى سقوطها على الأبواب والنوافذ والارض الممتلئة بالبرك الصغيرة ، يتناهى الى أسماعنا واضحا عبر الصمت الممتد الذى لايمزقه

ســوى عواء الريح من آن لآخر ٠٠ وموجات من الحرارة الطارئة تسرى فى أجسادنا النحيلة ، ومـائدة الطعام العامرة بالخمر وبكل الأكلات الشهية تسيل لعابنا ٠٠ وقصة عوض الله وفتاة الليل ، والتحلل من كل القيود تسيطر على أذهاننا تمـام السيطرة ، ونوفل يجلس عاليا فى النافذة ، وكأنه فوق منصة ، وهو مستغرق كل الاستغراق فى قصته المثيرة الشـيقة ٠٠ وهتفت فى استغراب :

ــ « لا شك أن الله سيدخلهما النار »

ورد نوفل قائلا ٠٠

ــ « هذا أكيد ٠٠لكنها متعة مابعدها متعة » ٠

ــ ولماذا لا يتزوجها مادام يعشقها الى هذا الحد ، ومادامت جميـلة على هذه الصورة ٠

ــ « بنات الليل لا يتزوجون ٠٠ »

ــ « عجيبة !! » ٠

وعاد نوفل الى الحديث من جديد ، وأخذ يحلق بنا فى آفاق مذهلة تضطرم بالشهوة والعـربدة والتحلل من خلق ودين ، وأخذ يرغى ويزبد فى وصـف أفخاذهـا ٠٠ أفخاذها الملفوفة اللدنة التى ٠٠ والتى ٠٠ وازداد حمـاس « نوفل » فعرى سـاقيه وأخذ يضرب عليهما ويشير بيديه وحاجبيه ، وكلنا آذان صـاغية له ، وتعتمل فى قلوبنا أحاسيس متباينة ، تثيرفينا التقزز تارة والرغبة تارة أخرى ، لكن الأكيد هو أننا نشتهى تجربة « عوض الله » فى داخل نفوسنا ونعرض عنها لما وقر فى أذهاننا من سلوك وتقاليد ٠٠ وأدرك « نوفل » ما يصطرع فى نفوسنا فقال ٠٠

ــ « كل الأغنيـــاء يفعلون مثل عوض الله » الباشاوات والوزراء والملك أيضا كلهم ينعمون بمباهج الحياة »

فاندفعت قائلا :

ــ الغنى لعنه ، وكثرة المال تفسـد الأخلاق ٠

وتمتم نوفل :

« ليس دائما »

ثم عاد الى الحديث عن عوض الله وعن بنات الليل فى المدينة وعن موائد الخمر والحمـام والتفاح والموز ، والليــل السـاتر ، وجو العـربدة والمجون ، والأفخاذ العـارية والتأوهات وعالم الخطيئة والشياطين وانبعثت فى جوف الليل قهقهة عالية ٠

وكأنما أخرس « نوفل » فلم يعـد يستطيع النطق بكلمة ، وتسـمرنا فى أماكننا مذعورين وأحسسنا احساسـا مؤلما بالبرد والخوف ، وعاد صوت فى الشارع يقول :

ــ «والله عال جدا يانوفل يامنجوس»

وهتفت دون وعى

ــ « نصيف أفندى »

والقى نوفل بجسده من النافذة ، وسقط على وجهه فوق أرض الحجرة ، ثم نهض فى تثاقل والفزع يكاد يقتله ، ووضع سـبابته فى فمه ، وأخذ يعض عليها فى ذعر وارتباك ، وتمتم :

ــ « ياللداهية الكبيرة » ماذا أتى به من الصعيد فى هذه الليـلة المطرة ؟؟ وكيف يمشى فى الأوحال والبرد ؟؟

وضرب نصيف أفندى خشب النافذة المغلقة بخيزرانته ضربات متتالية ، فارتعشت مفاصلنا ، وقال فى صوت جاف صارم :

ـ « ناموا ياكلاب ٠٠ سأعرف كيف أربيكم غدا ٠٠ ياتربية الأزقة والحوارى ٠٠ تتكلمون عن النساء والدعارة !؟ مصيبة ! لم يبق غير هذا٠٠ ناموا ياكلاب ٠٠ نم يانوفل يامجرم ٠٠ »

كان صدى حذائه وهو يخوض الأوحال فى الخارج يلامس آذاننا كالصفعات القاسية التى تعودناها منه ، وران على قلوبنا هم ثقيل ، ليته دخل واشبعنا ضربا وصفعا كى نستريح ٠ اننا ننتظر الغد المجهول: وأشباح الهول تعذبنا أكثر مما تعذبنا خيزرانته ٠٠

وأفقنا الى نفوسنا بعد كف صدى خطواته عن بلوغ آذاننا ٠٠ ووقف نوفل بيننا حائرا ٠٠ لم يزل يعض على سبابته ، ووجهه كوجوه الموتى ٠٠ وصرخ فجأة فى حدة :

ـ « لماذا تخافون ؟؟ »

قال أحدنا فى هدوء :

ـ « سل نفسك »

ـ « اسمعوا يا أولاد ٠٠لماذا لا نهرب من المدرسة ، ونعود الى قريتنا نزرع الارض مع أهلينا ٠٠ فى قريتنا الصغيرة لن يضربنا أحد ٠٠ ولن نشعر بالخوف أبدا ٠٠ سوف نشتغل ونزرع ونأكل وننام فى اطمئنان ٠٠ »

كنا برغم الخوف الذى نعانيه لا نقر « نوفل » ـ وهو أكبرنا سنا ـ على آرائه ، مستحيل أن نعود الى القرية خائبين فاشلين ، بعد أن كبدنا أهلينا المصروفات والتضحيات والكتب والملابس الافرنجية ٠٠ ومستحيل أن نخيب آمالهم فينا ٠٠ وخاصة أننا سوف ننال شهادة الابتدائية بعد عام ، ويطلق سراحنا من قبضة نصيف أفندى ٠٠ وقرأ نوفل فى عيوننا عدم الموافقة على كلامه ، كان وضعه فى الحقيقة يشبه وضعنا ، فلن يتركه أبوه يعود الى الحقل بل يريد ابنه موظفا كبيرا يلبس البدلة والطربوش ، وينال مرتبا محددا آخر كل شهر ٠٠ اذن ليست هناك حيلة للخلاص الآن ٠٠ فطأطأ نوفل رأسه ٠٠ وأخذ يبكى ٠٠

ولم ينم نوفل ليلتها ٠ وفى الصباح المبكر ٠ هب من فراشه كالمجنون وقال بصوت باك راعش :

ـ «سوف أرمى نفسى فى البحر ٠٠»

ولم يعطنا فرصة للتفكير ، بل لبس حذاءه وبدلته وعزم على الرحيل قبل أن يدق الجرس ، ويأتى نصيف أفندى بخيزرانته ٠٠

ـ « لكن الانتحار كفر يانوفل ٠٠ »

قلتها فى رهبة ، فرد ثائرا :

ـ « سأذهب الى جهنم ولا أعيش مع نصيف أفندى ٠٠ »

وتسللت خفية الى نصيف أفندى فى بيته ، وأخبرته بما اعتزمه نوفل ، فأتى الرجل مسرعا معى ، لكننا لم نجد نوفل ، كان قد غادر المسكن الى النهر القريب ، فجرى الرجل صوب النهر ، كان يلهث من شدة التعب ، رشاش الطين والماء القذر تلتصق بحذائه وجوربه وسرواله ٠٠ وأخيرا بلغنا

نوفل ، وكان يقف على الشاطىء وحوله بعض الزملاء ، وعيناه محتقنتان من كثرة البكاء ، ووقعت عيناه على نصيف أفندى ، فاطبق عليه الرعب ٠٠ ماذا يفعل ؟؟ أيجرى هـــاربا ؟؟ سوف يلحق به ، أيتعذر ويعـــود الى المدرسة ؟؟ وهنـــاك العذاب الأليم ٠٠

وقذف نوفل بنفسه فى الماء ، وصاح نصيف أفندى مرتاعا !

ـ امسكوه ٠٠ الولد سيغرق ٠٠

وتجمهر عدد من الناس ٠٠ وجروا نوفل حيا الى الشاطىء ، وأخذه مبللا الى المدرسة ، وهو يكاد يموت من الخوف ، وفى عينيه نظرات جنون ذاهل ، وهمس نصيف افندى :

ـ « لماذا فعلت ذلك ؟؟ »

ولما لم يجب ، استأذن النـــاظر فى الانفراد به ، ثم ربت على كتفه فى رقة ، وابتسم له مداعبا وقال :

ـ « لا تخف ٠٠ لماذا فعلت ذلك ؟ »

ـ «ان نصيف افندى سيضربنى ٠٠»

ـ « هل هـــذا كاف بأن يدفعـــك للانتحار ؟؟ »

ـ « أجـــل ٠٠ انى أتعـــذب ٠٠ أتعذب ٠٠ »

كانت المشكلة فى ذهن نوفل أكبر من الضرب ، كانت خليطا من الخوف ، والتشوق للانطلاق والحرية ، والخلاص من نظرات نصيف افندى الحديدية التى لا ترحم ، وأشياء كثيرة أخرى لايستطيع التعبير عنها ، وقال الناظر :

ـ « نصيف افندى لا يبغى ســـوى مصلحتك ومستقبلك ٠٠ »

ـ « انه يكرهنا ويريد قتلنا ٠٠ »

ـ « انت واهم ٠٠ »

ـ « ويريدنا أن نسكن معه فى بيت واحد ٠٠ تصـــور ياحضرة الناظر ٠٠ فى بيت واحد ٠٠ »

وابتسم الناظر وهمس :

ـ لا تقل هذا ٠٠ تستطيع أن تسكن فى المـــكان الذى تريده ٠ وثـــق انى ساتوسط لك عند نصيف افندى ولن يضربك أو يســـكنك معه بعـــد ذلك « مبسوط » وانهمرت دموع نوفل وهو يقول :

ـ «ربنا يطول عمرك ياسعادة البك : لن أنتحر بعد ذلك ٠٠ »

ولم ندر مـــاذا حـــدث بين الناظر ونصيف افندى بعد ذلك ـ لكننا لم نعد نرى نصيف افندى يدهمنا فى المساء ، او يتلصص علينـــا خفيـــة ، أو يلهب ظهورنا بخيزرانته الملساء الثقيلة ، لأنه كان قد صدر أمر بنقله الى مدرســـة أخرى ٠

وعادت البسمة ترتســـم حقيقة على شفاهنا ٠٠

وشـــعرنا بظل ثقيـــل ينزاح عن قلوبنا ٠٠

ورجعنا الى الســـمر فى المســـاء والذكريات الشجية والحكايات المثيرة ٠٠

وتنسمنا أريج الحرية الى حين ٠٠ لكن قـــرب الامتحان ، واشـــفاقنا من النتيجة التى ينتظرها أهلونا ٠ كانت بمثابة قيد لايزول ـ لانها مسئولية ـ مسئوليتنا نحن الصغار الذين تتركز فيهم أكبر الآمال ٠

عبدالله عبدالقهار

قصصي من جمهورية أوزبكستان

عرض وتلخيص : خيري حماد

فى اوزبكستان ، احدى الجمهوريات السوفياتية الاسيوية ، حيث يقيم مسلمو روسيا ، أدب حديث ، يتميز بطابعه الشرقى الذى يغلب عليه الخيال ، ممزوجا بلمحات من الفكر الواقعى الاشتراكى ، الذى ولدته الثورة . ومن هذا المزيج من الخيال الابداعى ، والفكر الواقعى ، ظهر الطابع الرائع للأدب الاسيوى السوفياتى الذى يمثله قصاصنا الذى نتحدث عنه فى هذا المقال ، عبد الله « قهار » أو على الأصح عبد القهار ، الذى نال جائزة الدولة ، فى قصته المشهورة « العصفور الصغير » ، واحتل مكانة مموقة بين الأدباء السوفيات .

وفى لغة الازابكة كلمة خاصة هى «كوشمانشى» ، وتعنى الآفاق أو الجوال ، الذى لابيت له يحل فيه ولامقام . وقد لحقت هذه الصفة التى تحمل المهانة والزراية ، بعبد القهار ، الحداد المتجول ، الذى ينتقل من قرية الى قرية فى وادى فرغانة ، بحثا عن العمل والقوت . وكان ولده عبدالله ، الاديب الذى نتحدث عنه هنا ، يحس بالألم . كلما طرقت هذه الكلمة المقيتة مسامعه .

ولد عبد الله ، وهو لايعرف له بيتا . ولم تعلق بذهنه من أيام طفولته اية ذكريات جميلة ، من طراز تلك التى تعلق عادة بأذهان الاطفال ، وتعيش معهم سنى حياتهم ، يجترونها ، كلما طافت بهم فى شيخوختهم رؤى الصبا واحلام الشباب . وكل مايذكره من تلك السنوات التى لايعرف بالتحقيق بدايتها ، ان أخاه الصغير مات بين ذراعى أمه ، التى لم يعش من ابنائها الأربعة عشر الذين انجبتهم الا اديبنا عبد الله . وهو لاينسى ذلك اليوم الذى صحا فيه من نومه ، على صوت امه وهى تجهش بالبكاء بعد أن ضربها أبوه بكتاب ثقيل على ام راسها ، كما لايزال يذكر عبراته وهى تنهال فى ليالى الاعياد ، وهو يرى أقرانه يلبسون الجديد ، بينما حرم هو من كل شىء .

كانت متعته الوحيدة ، ان يعين أباه فى عمله ، فينفخ له فى كوره ، بينما تحيل يدا أبيه الماهرتان قطع الحديد الى فؤوس وأدوات زراعية . كماكان يحس بالسعادة فى ليالى الشتاء الباردة ، وقد التف بدثاره ، وهو يستمع الى مايقرؤ أبوه على أمه من قصص البطولات واخبار العشق والغرام فى كتاب قديم مهلهل ، تزينه الصور التى لم يفهم قط ما تعنيه .

ولما كانت حياته تنقضي في تجوال دائم ، فقد حرم من متعة الصداقة ، ولذا فقد أسلم نفسه الى العزلة ، والى شيء من الذهول ، حتى ليخيل لمن يراه ، أنه من الصم البكم . وقد أنمت هذه الساعات الطوال من الوحدة خيـاله . فعـاش مع أوهامه وخيالاته ، يرددها أحيانا في أبيات من الشعر ، تنطلق فطريا على لسانه .

وقرر والده بعدأن بلغ العاشرةمن عمره ، أن يلحقه بالمدرسة . وكانت المدرسة من تلك الكتاتيب الدينية التي يقرأ فيها القرآن ويحفظه ، والتي وصفها القصصي السوفياتي المشهور صدر الدين العيني في رواياته . وسرعان ماانتقل من مدرسته هذه ، الى مدرسة اخرى ، احسن نظاما ، واوفر حظا في العلم ، حيث تتلمذ على يدي محمد خان كاري ، الاستاذ الضليع في اداب الشرق ، والذى كان له الفضـل الاكبر في تنمية مواهب أديبنا الذى نتحدث عنه .

ووقعت الثورة في عام ١٩١٧ ، واجتاحت عصابات اللصوص القرية التي كان يدرس فيها ، واضطر الى الانقطاع عن الدراسة ، لاسيما وقد حلت بالمنطقة مجاعة كبيرة . ولكنه مالبث أن عاود الدرس في عام ١٩١٩ ، حيث التحق بمدرسة داخلية من المدارس التي انشأتها الثورة في بلدة خوقند ، لينتقل منها الى دار المعلمين حيث بدأ يكتب للمرة الاولى في صحيفة المدرسة ، ونشر فيها بعض القصائد التي حازت اعجاب زملائه واساتذته .

وانضم الى منظمة الشباب «الكومسومول» في عام ١٩٢٤ ، وأصبح عضوا في لجنتها المحلية في خوقند ، وشرع ينشر قصـائده كانت احـداها في رثاء لينين ، وسرعان ماضمته صحيفة «جمهورية اوزبكستان» الى زمرة محرريها . وواصل دراسته في جامعة طشقند ، فنال شهادتها ثم التحق بمعهد اللغات والآداب ، حيث حصل على شهادة الدراسات العليا .

وخاض غمار الكفاح العنيف ضـد القوى المعـادية للثـورة من الاقطـاعيين والبورجوازيين . وكان النقد الادبي في تلك السنوات ، نزعة ادبية تغلب على ادباء العصر ، لاظهار عيوب النظام الذى كانوا يعيشون فيه ، وتصوير مافي الحياةالقديمة من قبح وبشاعة ، حلت محلهما الاتجاهات الثورية الجديدة . وكان الكتـاب على اخلاف ميولهم ومشـاربهم يدلون بأدلائهم في هذا الكفـاح النـاقد الذى يتميز بالسخرية والرغبة في ازالة الانقاض القديمة ، ليحل محلها البناء الجديد .

لكن النقد الساخر ، كان لكاتبنا أكثر من مجرد سلاح في الحقل الادبي ، أو حلية يزين بها ادبه . انه المجال ، الذى عكس مواهبه الادبية في مستهل طلوعهـا واشراقها . ومازال الادب السوفياتي المعاصر ، يسجل له صورته ، ككاتب قصة قصيرة وناقد ساخر ، وروائي يجيد كتابة «الكوميديا» . وراح ينقل في هذه الفترة الى لغة الازابكة ، قصتي « المفتش العام ، و الارواح الميتة لجـوجول ، وقصص « الشاويش بريشيبيف ، و السمك ، و المجرم ، و موت كاتب الحكومة ، و الحرباء» وغيرها لتشيخوف ، كما ترجم قصة «جامعاتي» لجوركي .

وافاد عبد الله من ترجماته هـذه فائدة كبرى ، اذ أن دراسـته العميقة للمؤلفات الكلاسيكية ، جعلته يتخير الالفاظ التى يستعملها ، وينتقى التعابير التى ينقلها فيها ، ويحاكى اسلوبهـا ، ويتعمق فى فهم حـوارها ، وحبكتها القصصية . ولاريب فى أنه كان موفقا كل التوفيق فى ترجماته ، وفى اختياره للكتب التى يترجمها والتى يقف كتاب « الحرب والسـلام » لتولسـتوى و « الطوفان الحـديدى » لسيرافيموفيتش و « ليوبوف ياروفايا » لترينيون فى مقدمتها .

لكن موهبة عبد الله الأولى كانت فى القصة القصيرة اذ أعتبر من اكبر كتابها فى الأدب السـوفياتى الحديث ، وتعتبر قصصه من أهم عوامل التطور فى ادب أوزبستان فقد صور فى اروعها ، وكلها من نتاج ثلاثينات هذا القرن الماضى بشقائه ومآسيه ولكنه لم يهمل القصة الطويلة على أى حال ، بل وضـع فى هذه الفترة قصته المشهورة « السراب » التى تناول فيها موضوعا عصريا .

وقد عالج فى هذه القصة موضوع «القومية» ، وهى ظاهرة من الظواهر العميقة الجذور فى حياة الجمهوريات الآسيوية السوفياتية . وبطلها شاب أزبكى ، انتقل من القرية الى المدينة ليتلقى العلم فيها ، وليبنى لنفسه مكانا فى حياتها . وهذا الشاب واسمه «سيدى» ، ضعيف الارادة واهن الشخصية ، وقد صوره كاتبنا بأنه كان «يفتقر الى القدرة على تكوين أى راى لنفسه ، وانما يعتمد فى حقائقه على اقوال من حوله » . وسرعان مادفع تحت تأثير شاب آخر يدعى احسان ، كان من أعـز أصدقائه ، ويتميز بالصدق والاخلاص والحماسة ، اذ نشأ من أسرة عاملة ، وكان تواقا الى اكتساب المعرفة ، حالما بأن يصبح من مشاهير الاطباء ، وراح بطلنا يقلد صديقه ، فانتسب الى الجامعة . ولكن احسان مالبث أن مضى الى موسكو ليلتحق بجامعتها ، ووجد «سيدى» نفسه بين مجموعة جديدة من الاصدقاء ، توهم فيهم الرفعة والتهذيب . واحب فتاة تنتمى الى اسرة غنية ، كانت تزامله فى الجامعة ، واخذا يدرسان معا . وكان عليه كعضو فى منظمة الشبيبة أن يساعد عاملا شابا من عمال المناجم فى دراسته ، ولكنه وجد أن مساعدة الفتاة الجميلة الفنية أكثر استهواء لنفسه من مساعدة هذا الشاب الذى اسودت يداه من عمله فى المنجم .

وتسير القصة على هذا النحو العادى المألوف ، فتتزوج الفتاة التى يهواها كما هو المتوقع من شاب غنى خطبها بعد أن تعرف الى اخيها . ولكن سيدى وقـد استهوته « متع الحياة» يتزوج فتاة عادية ، هى ابنة معلم مدرسـة تحـوم حوله الشبهات . وقد وصفه الكاتب وصفا ساخرا فقال ... « وكان هذا المعلم يشـبه البطة فى خصائصها ، فالبطة كما يعرف كل انسان تتميز بثلاث خصائص ، فهى تطير فى الهواء وتسير على الارض ، وتعوم فى الماء . وكان هذا المعلم أستاذا فى مدرسته ، أما فى القرية فهو من كبـار الملاك ، وفى بيتـه حيث لاتصله العيون ، فهـو تاجـر مستغل » .

وكان سيدى ، قد تعرف فى بيت حبيبته السابقة على جماعة من الشبان الاغرار الفاسدين ، الذين ينتمون الى مختلف القوميات ، والذين كانوا يحاولون تكييف أنفسهم للثورة بمختلف السبل ، مستغلين الخطب الثورية التى يلقونهـا

لاشباع انتهازيتهم ، ولجنى الارباح من التجارات المشبوهة التى يمارسونها ، ولتحقيق بعض المكائد السياسية الرامية الى اغتصاب الحكم .

هذه الصور المشبوهة ، هى التى حاول الكاتب أن يرسمها بريشته البارعة ، وقد نقلها من الأجواء التى عاشها فى الصحافة اليومية والأدبية وحلقات الكتاب والأدباء والطلاب ، وزمر الشبان من ادعياء القومية ، الذين يجتمعون فى بيوت الانتهازيين ، ويتصدون بشباكهم السذج من أمثال سيدى ، ليحاربوا بايديهم واقلامهم الأهداف الحقيقية للثورة عن طريق خداع الجماهير .

ولقد كشفت رواية «السراب» عن موهبة قهار النقدية الساخرة ، فهى تضم عددا من الصور والمناظر التى تتميز بها أروع الكوميديات الساخرة . وكثيرا ماتتحول سخريته الرقيقة الناعمة فجأة الى سخرية لاذعة ، تشرق بشىء من الغضب والقسوة من شخصية سيدى وأمثاله . بقلمه البارع تظهر لنا صور هؤلاء الشبان بأساليبهم الناعمة المخنثة ، وطرقهم المهذبة الزائفة . وملابسهم الأنيقة ، وميلهم الى الحياة الوادعة من خمر وميسر مما يجعلهم أقرب الى «البكوات» من الاقطاعيين القدامى .

ولعل أروع ماكتبه قهار روايته «العصفور الصغير» التى نشرت فى عام ١٩٥٧ لما فيها من تعبير وصقل وتصوير . ففى ربيع عام ١٩٥٧ ، قام الكاتب مع مجموعة من ادباء اوزبكستان ، برحلةطويلة جالوافيها أرجاء فرغانه ، وزاروا عددامن المزارع الجماعية ، والتقوا بعدد كبير من مزارعى القطن . وكانت هذه الرواية الانعكاس الذى خلفته هذه الجولة فى نفسه وخياله .

وتعتبر الرواية ، قصة هزلية ذات طابع خاص ، يجعلها أقرب الى الدراما الاصيلة . وقد عكس فيها بمنتهى الدقة والبراعة ، أشكال الحوار الذى يدور بين فلاحى اوزبكستان منذ أقدم عصور التاريخ . ولاريب فى أن الحوار بين بطلى القصة ، كالانداروف رئيس المزرعة الجماعية والفتاة الشابة « سعيدة » التى بعثت بها اللجنة المركزية للحزب لتساعده فى اعماله ، صورة ناطقة معبرة عن حياة الريف فى آسيا الوسطى .

وتظهر فى هذا الحوار أيضا ، الفكرة الخالدة فى عالم الادب منذ أقدم عصوره ، وهى فكرة التبارى بين الرجل والمرأة فى الذكاء والاحساس والارادة والقدرة على الاقناع . وعندما يقرأ المرء هذا الحوار ، يجد نفسه مسوقا بالرغم منه ، الى تذكر حوار شكسبير فى روايته « ترويض الناشز » ، أو حوار موليير فى بعض مسرحياته او بوكاشيو فى قصصه « ديكاميرون » ، لكن الفرق بين حوار قهار ، وحوار أولئك ، انهم كانوا يحصرونه فى مواضع الحب ، بينما نجد بطلة قهار تنافس بطله فى الحديث عن العمل والشئون العامة وقيادة الناس .

والبطل اكبر سنا من البطلة ، واكثر تجربة ، فهو شخصية بارزة فى مجتمعه اشتهر امره وذاع صيته لا فى مزرعته فحسب بل وفى انحاء المنطقة كلها ، حيثعرف عنه الداب فى العمل ، والرغبة فى السيطرة . أما البطلة « سعيدة » ، فهى فى

العشرين من عمرها ، وهى عضو فى منظمة الشبيبة وفى لجنة الحزب الاقليمية ، ذات ثقافة واسعة ، ولكنها الأحلام كغيرها من الفتيات فى سنها ، ولا تعرف العمل فى المزارع الجماعية . ويعتبر كالانداروف أن الحزب قد أهانه بتعيين هذه الفتاة الغرة مساعدة له . أما سعيدة ، فتتضارب فى نفسها العواطف المختلفة ، والافكار المتباينة فهى أحيانا خائفة من كالانداروف ، وأحيانا اخرى تريد أن تعيد تنظيم المزرعة . وهى راغبة فى أن تؤدى عملها اداء صحيحا حتى لايزدريها أمين الحزب ، بينما تتظاهر من الحين والآخر بفضول الاطفال .

وموضوع القصة من النوع الدرامى . فالحزب هو الذى قذف بالفتاة على راس كالانداروف ، الذى ألف السلطة المطلقة فى مملكته الصغيرة ، والذى تعود على النظر الى المراة كشىء اقل قيمة من الرجل . ومن هنا كان لابد للصراع من أن يقع ، وينشا عن حبكة هذا الصراع فى مراحله المختلفة موضـوع القصـة ، التى لابد وأن تنتهى بالنصر للبطل أو للبطلة .

ويبدو من السرد ان الكاتب كان أكثر ميلا للبطلة منه للبطل فى صراعهما ، ولذا فهو يحاول ان يحمل عواطف القارىء معه فى هذا الاتجاه ايضا . فهو يبدأ الحديث عنها باسمها المجرد ، ثم لايلبث أن يسميها «سعيدتنا» ، ليعود بعدها ، فيسميها «سعيدتنا المسكينة» معربا بذلك عن عطفه البالغ عليها . وهو لهذا يلقبها «بالعصفور الصغير» الذى يصارع رجلا ضخما مغرورا كالبطل . وينتهى من قصـته طبعـا ، بتصوير انتصار العصفور على المارد ، انتصارا يطيح به ويدمره . ولكنه يمتنع على اى حال عن ذكر ذلك صراحة ، لان البطل ، ليس من الأشخاص السلبيين الذين يجب تدميرهم على هذا النحو القاسى .

فكالانداروف ، مزارع مجرب ، ذو مواهب لايمكن نكرانهـا . يتميز بقـوة الشخصية والرغبة فى السيطرة وان افتقر الى الثقـافة . وهو فى جميع تصرفاته اقرب مايكون الى السيد الاقطاعى القديم الذى يتحلق حوله المداهنون والمنافقون. ولكنه مع ذلك يؤدى عملا كبيرا ونافعا . ويتقن اداءه . وهو منظم ممتاز ، ولكنه تواق الى الشهرة وان كان بعيدا عن الرغبة فى الكسب المـادى الشخصى . وهـو لايحارب «سعيدة» ، لأنه يخشاها . على مكانته فى المزرعة ، وانما بدافع مايحس به الذكر من كبرياء أمام الأنثى ، ونتيجة اقتناعه ، بانه كعضو فى الحزب ، لايحتاج الى من يرشده فى أعمال التنظيم . ولما كان هذا المرشد يحمل صورة الفتاة التى لاتعرف شيئا عن زراعة القطن رغم ثقافتها ، ولما كانت هذه الفتاة قد شرعت فى التدخل فى عمله ، فقد احس بكرامته تصاب وتهان ، فثار لهذه الكرامة الجريحة .

اما سعيدة ففتاة حساسه انوف ، معتزة بنفسها ، وهى تدرك أن كالانداروف يحاول الاها وابعادها عن المزرعـة . ويـكاد ينجح فى خطته ، فتستشيط غيظـا وتنهمر الدموع من مآقيها ، وتبعث برسالة الى سكرتير الحزب فى المنطقة ، ترجو نقلها من مركزها ، ولكن هذا كان يعرف طبيعتها وشخصيتها قبل أن يبعث بهـا الى المزرعة ، فيساعدها بكل كياسـه وذكاء على ان تسـحب طلبها شكواها .

وأحست الفتاة بالخجل من تصرفها ، فعزمت على الإبقاء والدفاع عن كرامة الحزب، وراحت تعيد الى المزرعة تنظيم فرع الحزب فيها بكل هدوء وأناة ، بعد أن كان كالانداروف قد جعل من هذا الفرع باستبداده شيئا تافها لا قيمة له .

ويفكر كالانداروف بتوجيه الضربة المقابلة اليها ، لاسيما وهو يعرف ان معلوماتها في الشئون الزراعية شبه معدومة . ويطلب اليها أن ترافقه في جولة في الحقول ، بعد أن يحملها على امتطاء ظهر جواد وكانت هذه التجربة شاقة عليها ، اذ كانت تجهل ركوب الجياد . لكن هذه الجولة كانت نافعة ، اذ اكتشف كل من الفريمين فى صاحبه ميزات كان يجهلها ولكنها جديرة باحترامه . وكان كل منهما ينشد العون من جماعته في المزرعة ، ولكن سرعان ماتبينا أن من في المزرعة متفقون في كلمتهم ، لا على تأييد هذا أو ذاك ، بل على تأييد القضية التي يعملون من أجلها. وبالرغم من النزعات الاستبدادية التي كانت مسيطرة عليه ، الا أن كالانداروف أبدى منتهى الحماسة في انتاج القطن ، وكانت حماسته حافزا لسعيدة على مشاركته النضال لخير الجميع .

وقد لاتكون ثمة حاجة الى التفصيل فى تحليل كل مارافق هـذه الجولة من احداث . الا انها انتهت الى النضال المشترك الذى أفاد فيه الفريمان الكثير .

وهكذا كان وصول العصفور الصغير الى المزرعة ، عاملا فى تغيير حياة الكثيرين من اهلها . وهنا تنتهى القصة كما تنتهى سائر القصص الكوميدية المماثلة لها ؛ بالحب ينمو بين البطلة وبين نجل البطل ، وهو طبيب شاب يدعى اواسيمبيك فيتزوجان فى النهاية ويعيشان حياة سعيدة .

وقد لايكون فى هذه القصة شىء جديد يحمل طابع الامتياز من ناحية المادة أو الموضوع أو الاشخاص أو الاوضاع التى تعالجها . فظهور المرأة فى أدب آسيا السوفياتية ، بدأ مع بداية عهد الثورة . وقد تميز انتاج الكتاب الأوائل بابراز نضال المرأة السوفياتية فى هذه المناطق للمساواة مع الرجل ، بعد قرون طويلة من التخلف والجهل .

وليس ثمة من شك فى أن شخصية سعيدة ، شخصية شاعرية طافحة بالحياة والشباب والأنوثة والطهر ، والعناية الفائقة بالناس والصدق ، والحماسة الاشتراكية لمصلحة المجموع . لكنها فى الوقت نفسه تجمع فى صورتها أيضاً الاحساس بالكرامة التى تتميز بها المثقفات من نساء عصرنا ، والثقة بالنفس التى تترك طابعها العنيف عند كل من يحيط بها من الناس ، ليأخذوا بيدها ويشدو ازرها فى الاوضاع التى يكون افتقارها الى الخبرة والتجربة عقبة فى طريق عملها . ولعل مايميز البطلة هو هذا الاحساس العميق بالواجب نحو الناس والمجتمع ، والذى يكاد يشبه الشعلة التى تضىء لها طريقها فى أحرج الأوقات .

والبطلة ولاشك سيدة ازبكية نموذجية ، لكل ماعرف عن سيدات تلك البلاد من رقة ونعومة . ولكن بعض خصائصها ، هى من الميزات التى أصبحت تلازم المرأة

فى المجتمع الاشتراكى الجديد . ولاريب فى أن الصورة التى رسمها لها الكاتب تجعل منها بطلة من كبريات البطلات فى الأدب العالمى الحديث .

وتمكن قهار بما لديه من مواهب نقدية ساخرة رائعة ، وميل فطرى الى تصوير قصصه بالصورة الدرامانية ، من ولوج باب الرواية المسرحية ، التى مارس فيها قدرته الفائقة فى خلق الصراعات بين الابطال والتناقضات بين المواقف . وكانت مسرحيته الهزلية الأولى « سوسانى الناعمة » ، سببا فى الشهرة الداوية التى حققها ، وفى فوزه بجائزة الدولة فى الكتابة المسرحية ، وفى تمثيل ما يكتبه على أعظم مسارح الاتحاد السوفياتى كله .

والظاهرة البارزة فى كتاباته ، هى شغفه العظيم بالشعب الذى ينتمى اليه ، وحبه لأهل وادى فرغانه ، ووصفه لجمال هذا الوادى الرائع واليافع . ولا ريب انه خير من عرف العالم فى قصصه ومسرحياته على هذه الانحاء الناحية المجهولة من الاتحاد السوفياتى ، وعلى أهلها ، مصورا أفكارهم ومشاعرهم وآمالهم وخيبات أملهم .

وهو يصور كل ذلك بصدق وموضوعية ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ...

انه يستمد عبقريته من الشعب ليعيد له ، الصور التى يحس فيها بانه قد أدى واجبه له .



العذاب

بقلم
فاروق خورشيد

أطبق الظلام أجفانه على قصر (القيطلان) فى جزيرة (السندال) ولفه بردائه الحالك ، وأخذت رسل الليل القاتمة تتسلل خلال الاقبية والسراديب حتى عم الظلام تماما ذلك الجحر النائى الذى يثوى فى باطن الارض حيثشدت السلاسل الحديدية الرهيبة جسد (معروف) المجهد الممزق فوق كومة من القش الملوث ، المصبوغ بلون الدماء القاتمة المتجمدة ، تتصاعد منه روائح حادة من عفن وصديد ...

وما كان « معروف » يحس بمجىء الظلام ، وما كان يحس أيضا بانحساره .. فأيامه ظلام دائم منذ رقد فى هذا القبر الرهيب تنوشه سياط مجنونة فى أوقات محددة منتظمة وكأنما تقسم ساعات اليوم فى نظام رتيب .. وحدها هذه السياط تمزق جلده وتمس عظمه وتقع فوق جروحه لتفتحها من جديد ، هى التى تذكره ان الوقت يمضى وان الساعات تفوت.. وحدها هذهالصيحات المجنونة التى تخرج من حنجرة غليظة هادرة ترافق وقع السياط ، وتردد مع الضربات المتتاليات :

ـ أين عرنوس ... أين عرنوس .

وحدها هى التى تذكره بانقضاء يوم ومجىء يوم ، بحلول ليل وانصرام ليل ..

وبين السياط العاتية والصيحات المجنونة يدور (معروف) فى دوامة كثيفة من الظلال والالوان تمور فى رأسه أمواج بحر غاضب وتستقر فى حلقة قطرات ألم مرير ، والعذاب يرفعه فوق الموج المتدافع ، والعذاب يطويه وسط الماء الكثيف ، والعذاب يوقظه من اغمائه الطويل ، والعذاب يعيده الى البحر المظلم الخبيث ..

وانقبضت عضلات جسده كلها فى تحفز واخذ العرق يغمر رقبته ووجهه وتمشت البرودة الى قدميه ، ثم جاء صوت الصرير المخيف يحدثه فتح الباب الحديدى الثقيل الذى يعزله عن باقى المعذبين .. وحاول أن يسيطر على جسده المرتجف ولكن ارادته الواهنة ما كانت لتقوى على التحكم فى شىء .. لم يكن يرتجف خوفا ولا فرقا ، وانما هى أعضاء جسمه التى تتقلص فى تحفز أليم كلما صدر هذا الصرير من ورائه وكأنما تستعد لتتلقى جرعات جديدة من السياط التى لا ترحم .. ما كانت شفتاه تنفرجان عن صيحة ألم او آهة استرحام ولكنه ما كان يملك أن يرد عضلات ظهره وساقيه ورقبته عن الارتجاف الصامت فى توقع السوط

يعيد تمزيق ما التأم ، ويفجر من جديد دما قانيا يحس بمسراه فوق جسده ممزوجا بعرقه ودوامات الالم الهائل والصيحات المحتبسة فى حلقه ..

وتردد وقع الاقدام على الارض الصلده ، ثم توقفت الاقدام .. تماما عند المكان الذى تتوقف عنده فى كل مرة ، واشتد تصلب عضلاته وتوفزها ، وحبس أنفاسه اللاهثة فى توقع الضربة الاولى وهو يضغط بأسنانهفى شدة فوق شفتيه يمنع الصرخة التى تميتها ارادته قبل أن تبلغ شفتيه .. وانتظر ..

ولكن شيئا لم يحدث ، ومرت لحظات، ثم انطلقت ضحكة كريهة ساخرة واستأنفت الاقدام العديدةسيرها مقتربة منه .. وأمامه تماما وقفت الاقدام وسكن كل صوت ، وملأه احساس بأن عيونا خبيثة ترقبه من عل .. وأخذ جسده يرتجف فى عنف اذ راح توتره مرة واحدة ، وأحس بجروح كثيرة تنفتح وحدها وتصب دما ، وحبات عرق فوق جبهته وعند رقبته .. وهدأ ..

وفتح (معروف بن حجر) عينيه فى بطء شديد ، ثم عاد فأغلقهما مرة واحدة ، فأمام عينيه تماما كان أحد الجلادين يرفع شعلة متوهجة يقتحم نورها عينيه المتعبتين وينفذ منه خلال رأسه الى عقله فيشله ويعجزه .. وجاءه صوت أجش هادىء ، فيه لزوجة وفيه تشف :

ـ ابعد الشعلة عن عين المسكين فهى تكاد تحرق وجهه ..

ودارت الكلمات فى رأسه ثم استقرت ، هذه اللهجة الوقور الحانية ، تقطر العذاب الى قلبه قطرة قطرة ، وتجرعه الهوان نقطة نقطة ، أهان حتى يرثى له جلاده ؟ وهو ملقى مشدود لا يقوى على رفض الرثاء كما لا يقوى على دفع السياط .. وعاد الصوت الرتيب اللزج يطن فى أذنيه :

ـ ألم تاكل الطعام اليوم أيضا ؟ أتريد أيها الكافر أن تموت جوعا ؟ هل تظن ان هذا هو طريقك الى الخلاص .؟

انه الكاهن البدين صاحب البطن المترهل .. انه يذكره فى مسوحه السوداء الكئيبة ، ويذكر تلك التراتيل الغامضة التى كان يرددها فوق رأسه بعد أن تسلمه السياط الى اغمائه الكثيف المتقطعيحدوه دائما هذا الصوت اللزج يدور ويطن كنحلة حائرة موكلة بأن تمنع نومه وتؤرق عقله فلا يحظى بلحظة سلام .. وبين هذه التمتمات الرتيبة كان يهمس بين الحين والحين فى صوت كالفحيح .

ـ أين عرنوس أيها الكافر ، أين عرنوس أيها الخاطىء المارق ؟

لو طالت يده قفاه الغليظ ما تركه الا جثة هامدة لا حياة فيها ، لو ركله بقدمه ركلة واحدة لأدخل بطنه المترهل فى الحائط الذى يقف أمامه ، لو كان فوق فرسه وفى يده سوطه لما احتمل ضربة واحدة من يده الباطشة ، ضربة تشق وجهه وتمزق صدره وتبقر هذا البطن المتكور الرجراج .. لو .. وعاد الصوت يهمس كالفحيح .

ـ ما أصلب رأسك أيها المسلم .. وسوف يكون هذا الرأس وقودا طيبا للنار المقدسة التى تطهر أمثالك من الكافرين .. ان الرين حنا يريد أنيراك

لآخر مرة فاطلب منه المغفرة أيها التعس وأخبره أين عرنوس ؟..

وعاد صوت خطوات ثقيلة يتردد فوق الارض الصلبة ، وحين فتح (معروف) عينيه للمرة الثانية استطاع أن يلمح وسط دوائر النار التى تحف بعينيه ثلاثة وجوه كاملة تطل عليه وكأنما من ارتفاع شاهق .. وجه الرين حنا القاسى الطويل المعروق بعينيه القاسيتين الغاضبتين وفمه الرقيق المزموم ، ما أبعد هذا الوجه عن وجه مريم الحلو الصافى الرقيق ، كيف يكون مثل هذا والدا لمثلها .. ووجه الكاهن الاحمر المترهل بعينيه الزئبقتين ذات النظرات اللزجة المتشفية ، هذا الذى جعل همه أن يمزق روحه وأن يؤرق خياله .. ووجه الفارس كنيار العريض تبص منه معالم القوة وتلوح فى عينيه الصريحتين الصافيتين نظرات رثاء حقيقى صادق ، هذا رجل يتمنى أن يلقاه الانسان فى الميدان ، يختبر قوته ويمتحن مظاهر الشجاعة التى تلوح فى محياه ، ولكنه أسره فى لا ميدان حين دس له المخدر فى الطعام الذى قدمه له أول نزوله الجزيرة ومعه عرنوس ، وظل المخدر يسرى الى جسده وحين آفاق جرده من سيفه وهو يقول فى ابتسامة شامتة..

ـ أهذا أنت يا معروف بن حجر ، لقد كنت أعرف أنك ستجىء الى هنا بقدميك هاربا بابنك عرنوس ، ولكن عرنوس سيعود الى جده الرين حنا وستبقى أنت فى السجن باقى حياتك..

وحاول أن يقف فخذلته ساقاه ، وحاول أن يمد اليه يده يجلد به الارض فتهاوى ساعداه ، وحاول أن يفتح فمه ليسبه فلم تطاوعه شفتاه ، وجاء صوت كنيار والظلام يطبق على عقله وعينيه :

ـ كنت أود أن أهزمك فى الميدان ، ولكن ما أخبرونى به عنك لايدع لى مجالا للمقامرة ولو أنى ارثى لك ، كيف تكون سلطان الحصون وتؤخذ هكذا دون أن تملك عن نفسك دفاعا .. »

ثم راح فى غيبوبة عميقة لم يفق منها الا وهو مشدود هكذا تنوشه السياط وتئز فوقه تمتمات الكاهن .. ومن يومها وهو يحلم بأن يرد لكنيار الدين .

وشد نفسه فى عنف فاهتزت السلاسل وتدافعت محدثة صليلا خافتا واهنا ، بينما ارتفعت ضحكة ممقوتة وأحس بعظامه تكاد تتمزق من الالم ثم تهاوى من جديد ، وعيناه لا تغادران الوجوه الثلاثة تطل عليه من عل ، تضحك من ضعفه ، تسخر من عجزه تشمت من هوانه ..

وجاء صوت (الرين حنا) ملك روما حادا نافذا متعاليا :

ـ للمرة الاخيرة اسألك أين عرنوس ؟ ..

وهز رأسه فى عنف ، ماكان هو يعرف أين عرنوس ، فمنذ غيبه المخدر لم يره ، ولكن لعله هرب ، لعل صديقا عثر عليه فاحتفظ به ليوصله الى بر السلامة عند الملك الظاهر أو عند شبحه سلطان الحصون الجديد ، أو عند صديقه المصرى عثمان بن الحبلى .. فكلهم قد وعدوه بالمساعدة وأقسموا أن يعينوه على استرجاع ابنه عرنوس وزوجته مريم بنت الرين حنا بعد أن اختطفها جواسيس أبيها من وسط حصنه فى الشام .. لم تنفع الحراسة ولم ينفع

الحذر فقد كان (جوان) جاسوس الاعداء أكثر مكرا من رجاله وأشد دهاء .. وعاد صوت (الرين حنا) يطرق أذنيه ، وهو يقول في حدةشابها التردد والاضطراب :

ـ عرنوس لا ينبغي أن يصل الى روما ، ان مريم عذراء قديسة ، وشعبي يقدسها لانني وهبتها يوم ولادتها للكنيسة ، أنت دنستها وستدفع ثمن هذا ، ولكن هي ينبغي أن تنقذ ، ماذا يقول الناس لو علموا أن لها ابنا منك ، أنت الكافر من بلاد المسلمين .. ؟

أحقا هو دنسها ، مريم ذات الوجه الملائكي الطاهر ، والنظرة الحلوة الصافية ، والقلب المتفتح على الايمان والحب .. لقد اسلمت وتزوجها .. وشهد زواجهما الملك الظاهر ، وعاشت القاهرة أياما عذبة جميلة تحتفل معه بأجمل أيام عمره ..

ولاح وجهها أمامه فرنت على شفتيه المتقلصتين ابتسامة واهنة أثارت الرين حنا الذي اندفع يصيح في عنف وغضب .

ـ اتسخرمني أيها المسيخ ،انك ستلقى الموت في الصباح ، أما عرنوس فسأجده نعم سأجده ولو قلبت عليه كل حجر في هذه الجزيرة وفي كل الجزر المحيطة بها ، بل لو فتشت عنه كل بلاد المسلمين .. وستظل مريم بمنأى عن انتقامك ..

كيف ينتقم وهو قد وهبها الحياة ، أعطاها السعادة والدفء والحنان ، بذل لها الحب .. أيفهم هذا الغليظ معنى الحب ؟ يترك زهرته تذوى في عزلة دون أن يرويها .. شعبي يقدسها !، وماذا يقدس ، رمزا لا حياة فيه ،شيئا مضيعا لا قيمة له .. هو شدها الى الوجود وسقاها رحيق السعادة .. من الذي يريد لها الخير ، هذا الذي يصرخ خوفا من كلام الناس ، أم هو الذي جعل منها شيئا حيا كالناس .. وجاءا بولد (عرنوس) كأحلام الملائكة ضحكته اشراقة فجر ندى ، وبسمته تفتح النوار ، وصوته الرقيق ترتيل ناى في عرس ليل مقمر .. لقد كانت تحيا لتلاعب عرنوس ، وتعيش لترقب عرنوس ينمو ، في عينيها حنان يمنح الحياة ، وفي ضمتها له سعادة هي معنى الوجود .. ويريدها هذا الغليظ رمزا يقدسه شعبه ..

وكالفحيح جاء الصوت الغاضب :

ـ أجب .. أين عرنوس ..

وقال كنيار في صوت هادىء متزن :

ـ حقا يا معروف أنت رجل ولوكنت مكانك ماكنت أطمع الا في مثل صلابتك ، ولكنك لا تفهم الموقف تماما ان حياتك معلقة على كلمة منك ، لو قلتها أطلق الرين حنا سراحك لتعود الى بلادك أما ان لم تخبره عن مكان عرنوس فهذه ليلتك الاخيرة وستحترق غدا في النار المقدسة كما يحرق كل الكافرين المارقين عن ديننا ..

وهز معروف رأسه في عنف .. أيهدده بالحرق ان معناه الراحة من عذابه ، ان معناه الجنة ، وهل يتمنى الآن سوى الموت ؟! انه لا يريد الحياة الا لانقاذ عرنوس وهو هنا عاجز عن كل شيء فالموت له راحة من كل عذاب ..

وصاح الرين حنا وهو يحتقنبوجهه :

ـ أيها الأب المبجل هذا التعس ملك لك من الآن ولست أريد أن أسمع عنه شيئا ..

واختفى وجه الرين حنا بينما بدت

فى وجه كينار نظرة اشفاق هائلة كانما يخشى عليه من مصير أشد هولا من الموت واقترب برأسه من وجهه وهمس :

ـ آسف أيها الفارس وسيؤرقني مصيرك ما حييت ..

ثم اختفى وجهه ليترك مكانه للوجه المترهل اللزج يقترب ويقترب ، وقال الصوت الرتيب الشامت فيه سخرية وفيه تشف :

ـ لك البشرى يا ولدى ، ان وسائلنا الدنيوية لم تفلح فى اعادتك الى الرشاد فلنترك روحك الضالة لعناية الاله العظيم فهو أقدر على هدايتها منا .. فلتنم الليلة فى سكون ومع الصباح تساق الى النار عسى أن يطهرك لهيبها من كفرك وعنادك ..

ثم ضحك ، وضحك حتى ابتلت عيناه الضيقتان واشتدت حمرة وجنتيه المكتنزتين ، وعاد صوته الخبيث يقول :

ـ أيها الجلاد ، فك قيوده واتركه الليلة فى سلام ..

ـ وأحس بجسد الجلاد الضخم وهو ينحنى فوقه ، وصكت أذنه أصوات احتكاك حلقات السلاسل الحديدية وهى تتهاوى الى الارض ، ووقع أقدام على الارض الصلبة ، والباب الحديدى الضخم يصر فى عنف ، والاقدام تبتعد وتبتعد ، وعضلاته تتقلص فى توفز .. ثم راح فى اغماءة طويلة ..

***

وحين فتح معروف عينيه كان الظلام الحالك يسود كل شىء حوله ، وعادت كل الأحداث الى ذهنه مرة واحدة فاختلطت وتشابكت حتى أحس برأسه يدور .. فزم شفتيه فى عنف ليعيد الهدوء الى نفسه ومضى يحاول أن يرتب الاحداث ليفهمها ، من المؤكد انهم قرروا موته غدا ، لقد أصبح وجوده بينهم بلا فائدة طالما أصبح من الواضح انه لن يتكلم ، بل لعله مصدر خطر يتهددهم اذ ما كان فرسان المسلمين ليتركوا مثله فى أيديهم ، وما كان انتقامهم من آسريه ليقف عند حد .. ومن المؤكد كذلك انهم قد فكوا قيوده .. وحاول أن يحرك ساعديه فى حذر فتحركتا ، وحاول أن يغير من وضع ساقيه فاستجابتا له وملأه احساس طاغ بانه يحلم ، كلا ليس الامر حقيقة ، انه وهم ، انه حلم هل بدأ يفقد اتزانه ، هل تهاوت ارادته تحت وقع سياطهم اللعينة ، هل ضاع ؟ وتحركت يده تلمس القش الخشن ، تلمس صدره ، تلمس وجهه ، تلمس يده الثانية .. كانت طليقة فعلا .. وأخرى .. انها تتحرك .. ورأسه ، انه يستطيع أن يرفعه ، أن يجلس ، أن يقف .. وأحس بالدنيا تدور وكأن الجدران تتدافع لترتطم به ، وكأن السقف ينهار ليسحقه ، وكأن الارض ترتفع لتقذف به بعيدا بعيدا ، وعاد يتهاوى فى غيبوبة جديدة ..

ولكن اغماءة « معروف » لم تطل هذه المرة ، فسرعان ما فتح عينيه وهو يحس بعينين تحدقان فيه فى الظلام ، واعتدل فى صعوبة فى رقدته ، وأمامه تماما كانت العينان ، فى مستوى رأسه تلمعان وتضيئان فى الظلام ، وأحس بأطرافه تتيبس وبعضلاته تتحفز ، ووقف ذهنه عن التفكير .. ثم جاء مواء قطة كسول تتمطى فى الظلام ، ومضت تقترب منه وهى تلوى جسدها وتفرده ثم اتجهت ناحية الطعام الى جوار رأسه ..

وابتسم لنفسه فى الظلام فى مرارة ، معروف تهز وجوده كله قطة تموء فى الظلام ، وكادت شفتاه تنفرجان عن ضحكة عريضة مسترخية ، ولكنها ماتت عند شفتيه ، القطة ؟ كيف دخلت الزنزانة، ووثب واقفا ، وعاد الدوار يملأ رأسه ، ولكنه تماسك ، فليس هذا وقت اغماء ولا استسلام لضعف الجسد المنهك ، ومن مكانه عند القيود المتهاوية الى الارض جعل يحدق فى الظلام بكل ما يملك من قوة ثم توقفت حركته تماما وأخذ قلبه يخفق فى عنف ٠٠ كان ثمة خيط من النور ينبعث من فرجة الباب٠٠ واستقر كل شىء فى رأسه ، واحتلت ذهنه المشوش فكرة واحدة اهتزت لها نفسه، لقد أدار الجلاد مفتاح الباب قبل انطباق الضلفتين تماما ، فلم يستقر اللسان فى مكانه المعتاد ٠٠ وانبعثت من حلق معروف حشرجة أليمة ، أراد أن يجرى، أن يقفز ، أن يصرخ ٠٠ ولكن جسده كان متيبسا كأنما شد الى مكانه بسلاسل من حديد ، ولسانه كان جافا متضخما ، وقدمه ثقيلة كالحجر ، قلبه فقط يدوى ويدوى فى وجيب سريع لاهث ٠٠ وانساب جسده على الارض وقد غدا أضعف من أن يحتمل كل هذا الطنين الذى يملأ رأسه يمنعه عن التفكير والحركة ٠٠

الطعام ٠٠ كانت الفكرة مباغتة وقوية، نعم لابد من الطعام لكى يستطيع أن يتمالك قواه وأزاح القطة الجائمة فى عنف ، وانقض يأكل فى سرعة ٠ كم من الايام مضت عليه دون طعام ، انه لايدرى!! أسنانه لاتستجيب كأنما نسيت دورها ، عليه أن يدفعها لتطحن الطعام ، بل لابد أن يزدرده بسرعة ، حلقه جاف يكاد يطرد الطعام فى تقزز ، لابد ، لابد أن يأكل وأن يشرب وأن يستريح٠٠ والقطة ترقبه فى خوف وقد تسمرت فى مكانها مقوسة الظهر لامعة العينين ٠٠

وحين عاد ينظر من جديد الى الباب، كانت الفرجة أشد اتساعا ، وكان النور الذى يتراقص من خلالها أكثر توهجا ٠٠ وفى هدوء مضى يقترب فى حذر ، واستقرت يده المرتعشة بحافة الباب تدفعه شيئا فشيئا ، ولم يحدث شىء ٠٠ دفعة أخرى وازداد اتساع الفرجة ٠٠ وانسل جسده من الفرجة الضيقة خارجا من الزنزانة المخيفة التى كادت تأكل عمره ٠٠ وظل واقفا لحظات يتلقى لفحات ذبالة المصباح المترنح تحت هبات النسيم الخافت المشبع بعفونة القبر ، ولكن النسمات كانت تتغلغل فى رئتيه فتملأه بشعور مبهم هو مزيج من التحفز والراحة والقلق ٠٠ ودارت عيناه حوله فى سرعة ، وكان وحيدا ٠٠ لم يكن بالدهليز أحد ، لم تكن به حياة ٠٠ وتراءى له وجه مريم تبتسم ، من أجلها لابد أن يخرج ، من أجل أن يعيدها الى الحياة ، يخرجها من هذا الدير الرهيب الذى سجنها أبوها فيه تتلقى صلوات السذج ليعيدها الى أحضانه تتلقى قبلات قلبه الدافىء الحى ٠٠ وضغط معروف بأسنانه على شفتيه فى قوة ثم أخذ ينقل قدميه فى حذر وهو يتحسس طريقه فى الدهليز المظلم الذى تملأه ذبذبات المصباح بأشباح وخيالات متراقصة ٠٠ ورائحة العفن تتصاعد من كل مكان ، وأصوات مبهمة غريبة تصدر من حوله ، هو يلتصق بالجدار الصلد ويزحف ، ثم يزحف ، بطيئا يخشى أن ينم عنه وجيب قلبه ، محاذرا يخاف أن ينشق الظلام عن عدو مجهول ليس من

الناس ، وانما له ألف عين وألف ذراع وألف ناب ٠٠ وهو يسير ٠٠

وفجأة ارتطمت قدمه العارية بحجر صلد يعترض زحفه البطىء ، فاخـــذ جسده كله يرتعد والعرق البارد يسيل فى شقوق قديمة خلفها وقع السوط على جلده ، وتبينت عيناه الغائمتـــان درجا صخريا عريضا يرتفع الى أعلى ٠٠ وتردد لحظات ثم انحنى يتلمس الدرج بيده ، ورفع رأسه ، وعلى ذبذبات المصبـــاح الخافتة لمح الدرج يرتفع ويرتفع الى أن يغيب فى الظلام ٠٠ ومد يديه الى الدرجة الاعلى ثم سحب جســـده وراءها ومضى يزحف صاعدا الدرج ، وكل حركة من حركاته العنيفة تفتح جرحا من جراحه القديمة وينبثق الدم من جديد يلوث يديه وينساب لزجا فوق ساقيه ، ولكنه يصعد ويصعد ٠٠ وتهاوى ساعداه ، وتعثر وسقط ، واصطدم وجهه بالصخر الصلد ولكنه حبس آهته بكل ما تبقى لديه من ارادة وقوة ٠٠

وحين مد يده اصـــطدمت بالهواء ، تنتظم من جديد عاد يرفع جســـده فى صعوبة وهو يمضى من جديد صـــاعدا درجة درجة ٠٠ وكلما صعد درجة برزت من الظلام درجة جديدة والسلم ليس له آخر ويداه قد ابتلتا بالدماء ، وعينـــاه ملأهما العرق الذى ملأ جبهته ووجهه ٠

وحين هدأ وجيب قلبه وعادت أنفاسه وعرف ان الدرج انتهى ، فمضى يجر جســـده فى تثاقل متشبثا بالجدار الصلب ، ورفع جسده خطوة خطوة الى أن وقف منتصبا وهو يجول بعينيـــه الغائمتين فيما أمامه ٠٠ دهليز طويل تنيره أكثر من ذبالة مرتعشة ٠٠ وفجأة صك أذنيه صوت وقع أقدام فوق الارض الحجرية ، وخيل اليه ان دقات قلبـــه قد توقفت لحظات لتندفع من جديد فى عنف قاس رهيب ٠٠ وتلفت حـــوله كالفأر المذعور ، ولكن يكن هناك شىء يستره عن العيون ، لا شىء الا الجدران عارية رهيبة ، عالية مقيتة ٠٠ ومضت لحظات ووقع الاقدام يقترب ويقترب ، وأخذ يضغط جسده فى الجدار كأنما يريد أن يتلاشى فيه أن يصبح قطعة من صخره ٠٠ وظهر صاحب الاقدام يدق الارض فى ثقة وبطء وتثاقل ، يرتدى مسوح الرهبـــان ويطرق الى الارض ويمضى بطيئا بطيئـــا ، ويمر من أمامه تماما ، لو رفع رأسه لرآه ، ثم يسير ، ويسير ووقع خطواته يتلاشى فى الظلام ، وليس الا صوت قلب معروف يدق فى عنف وقسوة ٠٠

ولو معه سيفه ، لو ركب فرســـه ، لو استرد قوته ، لو لامست يده قوسه وســـهامه والرمح الطويل ٠٠ لو غمرته شمس الصـــحراء ولفحه هواؤها النقى ٠٠ لو ٠٠

واستجمع قواه ومضى يزحف بسرعة ملتصقا بالجـــدار وهو يحس بملمس الصخر يمزق جسده المهترىء وبدوامة عاصفة تجول فى ذهنه المحمـــوم ، ثم توقف فالدهليز ينحنى ، والجدار الذى يلتصق به ينحنى مع الدهليز ٠٠ ربما قاده الى الحرية ، وربما سقط بين أيدى أعدائه ٠٠ وأمامه بدا وجه مريم يبتسم



فى براءة ، وكانت شفتاها تهمسان ، تعال ، تعال .. واندفع ينعرج مع انحناءة الدهليز ثم وقف قلبه وتسمر مكانه وماتت أنفاسه وقد مادت به الارض واضطربت أمامه الرؤية .. على قيد خطوات قليلة وقف راهبان يتحدثان باهتمام واستغراق .. وتحول أحدهما من مكانه فوقعت عيناه على معروف فى وقفته المتصلبة اليائسة ، وتقلصت عضلات معروف واستعد للوثوب ، لو اتجه هذا الراهب نحوه لانقض عليه وأنشب يديه فى عنقه وليمت مدافعا عن حريته ، عن أمله .. وفى بطء حول الراهب وجهه ومضى يستأنف حديثه مع صاحبه ، ثم استدار الراهبان وأخذا يسيران فى اتجاهه مباشرة ، واشتد توفز معروف وتقبضت راحتاه فى عنف ، فما زالت عينا الراهب تجولان حوله فى شرود .. ولكن .. انهما يسيران فى بطء .. أمامه تماما ، لو مد يده للمس رداء أقربهما اليه ... ويسيران .. وحديثهما بطىء متقطع . ثم يمضيان يطويهما الظلام ، ووقع أقدامهما يدق رأس معروف فى عنف وقسوة ..

وفجأة اندفع معروف يجرى بكل قوته وقد غشيت عينيه سحب كثيفة من ضباب ، واصطدمت قدماه بالحجارة فسقط وانفتح جرح جديد وصاح جسده بالألم ، عند كتفه الأيسر ، حريق من لهب، وهب واقفا ومضى يجرى من جديد، السيف فى يده مخضب والاعداء تجرى أمامه وصيحات رجاله لا تهدأ وفرسه يلحق كل الخيول ورمحه أطول من كل الرماح .. وسقط يعانق الصخر الصلد الرهيب وانفتح جرح عند حاجبه وتدفق الدم والظلام يطبق عليه ، لا يجب ألا يستسلم الآن ، ليقف ، فى هذا الحدر هلاكه ، فى هذه الرقدة نهايته ليقف

يشد قامته ، يمسك نفسه ، ويجرى ويجرى ، فى سباق مع الظلام، والاشباح تتراقص فوق الجدران وذبالات تحتضر وأصوات غريبة تطارده كأنها تجرى وراءه ، تريد أن تمسك به ، أن تمنعه، أن تحول بينه وبين الطريق ٠٠ ثم هوى ٠٠ ارتفعت الارض نحوه وصفعته ، واختنق صدره بأنفاسه اللاهثة وزحف اليأس المرير الى قلبه ثم سكن كل شىء ٠٠ لا فائدة ٠٠ لا أمل ٠٠ الظلام يسلمه الى الظلام ، وسرداب يقوده الى سرداب، وكأنما يدور ويدور ٠٠ وخبط الارض بيديه الداميتين ولم يحس ألما ٠ لا ألم، لا شىء ٠٠

وأحس بتيار بارد منعش يهب على وجهه ، وحين التفت الى يساره انبعثت من فمه صيحة لم يستطع أن يمنعها ، فعلى قيد خطوات منه كان باب القصر الكبير مفتوحا ، تتسلل منه أشعة خافتة لصباح وليد ٠٠ وأخذت هبات رطبة من هواء بارد تبعد رائحة العفن التى ملأت صدره ٠٠ وعادت الدماء تمور فى عروقه، وانتظم قلبه يردد خفق الحياة فى لحن طروب ، وأخذ يزحف ويزحف ، مقتربا من الباب المنفرج وقد نسى كل شىء ، كل الألم ، كل اليأس ، ونفذ جسده من فرجة الباب ٠٠ الهواء النقى يغمر جسده ، يرطب جروحه ٠٠ هواء لاتحده جدران ، وعيناه تبصران الأفق ونور شاحب يلون كل ما حوله ، أشجار انتثرت هنا وهناك ، وجبال تتشامخ فى الفضاء من بعيد ، ومراع شاسعة تمتد فى كل اتجاه ٠٠

هذه هى الدنيا ٠٠ انها الآن ملكه ، عاد اليها ٠٠ كانت بعيدة عنه وكأنما الى الأبد ، ثم أفاق فاذا هى تحت قدميه تناديه ليمتلكها ، ليمتلك كل شىء فيها، سيعيد اليها مريم ، ويجدان عرنوس ويضمهما من جديد بيت سعيد لا تفرقه أحقاد ملك ولا أطماع توسع ، ولا تراتيل كهنة متعصبين ٠٠ يبدءان معا ، حياة جديدة بلا قيود ، بلا حدود ٠٠

واستيقظت أذناه تلتقطان أدق الاصوات وأخفتها، خفق أجنحة العصافير، تفتح أكمام الزهر ٠٠ وامتلأت رئتاه بعبير مختلط ، رائحة كل شىء ، رائحة الحياة ٠٠

وفجأة أحس بذراعين قويين يتسللان من ورائه ، وهبط كل شىء فى أعماقه ثقيلا ثقيلا كهذا الجبل ٠٠ والتفت وراءه ليرى وجه كنيار يبتسم فى اشفاق وهو يطوقه بساعدين كالحديد ٠

ودارت بمعروف حلقات مرعبة صاخبة اختلطت فيها كل الصور ، قلعته الشامخة حصانه السريع سيفه يرتفع ويهوى ، مريم تضحك ، وعرنوس يتطلع اليه بعينيه البريئتين ، والارض تصعد وتصعد ، وشىء فى جوفه يتحرك ، ولسانه ثقيل خشن فى فمه ٠٠ ومن بعيد ٠٠ من أغوار سحيقة ٠٠ من عالم لا يراه سمع الرين حنا يقول فى تشف خبيث :

– أحسبك الآن مستعدا لتخبرنا ٠٠ أين عرنوس ؟



ليلة حب

بقلم : محمد السيد شوشة

كنا مجموعة من الصحاب ... شاعر وطبيب ورجل أعمال ودبلوماسى عربى .

كانت الليلة من ليالى شهر يوليو التى يحلو فيها السهر تحت سماء القاهرة الساحرة ، وكان مجلسنا فى شرفة فندق « سميراميس » التى خلت من روادها فى تلك الساعة المتأخرة من الليل .

ولم يكن اجتماعنا فى ذلك الوقت مجرد مصادفة ، بل كان اتفاقا ، فقد التقينا جميعا عند الفنانة الشرقية سهام التى كانت تنزل فى هذا الفندق لوداعها قبل سفرها الى وطنها فى الصباح ، وقد تركناها منذ قليل لتأوى الى فراشها ، حتى تستطيع اللحاق بأول طائرة تبرح القاهرة .

وفى الواقع اننا جميعا كنا مفتونين بحب هذه الفنانة العربية ، ذات الجمال الشرقى الغامض الذى لا يقاوم ، ولكن كل واحد منا ، كان يكتم عن الآخر حبه ، ويدارى عنه هواه ، ويسمى ذلك الحب مجرد ألفة أو صداقة أو اعجاب ، لا أقل ولا أكثر ، فكان اذا جاء ذكرها فى حديث عارض — وكثيرا ما كنا نتحاشاه ، تاركين ذكره فى القلوب — تفضح كل محب « عيونه » ويحاول التهرب منه .

ولذلك اخترنا شرفة سميراميس لجلسنا فى تلك الليلة ، لكى نحرس ذلك الملاك النائم ، ونستنشق ذلك العبير الذى يحمله الينا النسيم من ريح الحبيب .

كان خدم الفندق منهمكين فى جمع المقاعد ، وتنظيف البلاط ، فى صخب كان يغطى على أصواتنا ، ونحن متمسكون بمقاعدنا لانريد مغادرتها حتى لاتفوتنا متعة تلك الجلسة الشاعرية .

ما أحلى الليل وأروعه فى شرفة سميراميس ، وقد انتهى الخدم من عملهم، وهدأت الحركة ، وسكن الكون ، ولم تعد تسمع سوى همس الليل ممتزجا بأصوات القوارب الصغيرة الحالمة التى تسبح على صفحة النيل مع ضوء القمر، تروى أروع قصص الحب وترانيم الهوى والغرام .

وكان حديث الهوى والقلوب ..

تكلمنا فى مختلف الشئون والفنون ... ولكننا جميعا ، كنا نلتقى فى

الحديث عن شيء واحد ، وهو الحب ، حيث أخذ كل منا يروى قصة تجعل منه بطلا وفارسا مغوارا •

واتسع الخيال أمام صديقنا الشاعر ، فروى لنا هـــذه المغامرة التى اختار مسرحها فى باريس ، وبدأ حديثه عنها بالاشمئزاز من بائعات الهـوى اللواتى يعرضن جمالهن هناك بكل سهولة ، لكل قادر على دفع الثمن •• ولم تكن تنقصه القدرة على الدفع •• ولكنه مالبث أن زهد فى هـــذا الجمال الرخيص الذى يباع برخص التراب •

ولذلك حرص فى زيارته الاخيرة على الهرب من هذا الصنف من النساء ، الى أن التقى فى سهرة عائلية بفتاة ذات جمال نادر أسره جمالها ، بعد أن قرأ فى عينيها قصة حب ، فخفق قلبه بحبها ، ولكنه تحسس جيبه ، فوجده فارغا الا من بقية قليلة من الفرنكات التى تسمح له بتمضية ستة أيام ، يعود بعدها الى أرض الوطن •• ولذلك قطع الامل فى أن يحظى منها بموعد لقاء فى هـــذه الرحلة •

وقال الشـــاعر : •• لـكن صاحبة الحفل ، قامت بمهمة التعريف بيننا ، التى زادت كلا منا تعلقا بالآخر ، فقد كانت مثلى شاعرة •

وعزفت الموسيقى ، فاردت أن أحييها برقصة ، جمعت بين روحينا على انغام موسيقى التانجو الحالمة ، ورحت أروى لها شعرى ، وهى تروى لى شعرها ، الذى حملنى على أجنحة الخيال ، فقد كانت قصيدتها تعبيرا رقيقا عن مشاعر الانثى المتعطشة للحب بعنوان « الضوء الخافت » •

وانتهت السهرة ، ووضعت يدى فى يدها مودعا ، متعللا بالسـفر ، وأنا أتحسس جيبى الخاوى ، واذا بها تتعلق بى ، وفى نظراتها نداء صارخ ، وترجونى البقاء بضعة أيام أمضيها فى ضيافتها فى بيتها الريفى الذى تقيم فيه بمفردها فى احدى الضواحى ، فوجدت نفسى أمام فرصة ذهبية ، لم أشأ أن تضيع منى •

وصاح الجميع بصوت واحد :

ــ وماذا فعلت ؟

فمضى يقول وهو سـعيد بأنه أثار حماسنا ، الى متابعة قصته :

ــ لم تتركنى فى تلك الليلة ، وأصرت على أن تذهب معى الى الفندق بسيارتها الحمراء الصغيرة ، لتحمل حقائبى الى بيتها الريفى •

وكانت مغامرة ، لم تكن تخطر لى على بال •• فقد عشت معها أيامى الستة الباقية فى باريس •• وقبل أن يبزغ فجر اليوم السابع جمعت حقائبى وهى نائمة دون أن تشعر بى لألحق بالطائرة ، لكى أهرب من موقف الوداع الأليم •

ثم كانت هذه الايام الستة عنوان ديوان شعرها الأول ، الذى بعثت به الى ، فقد كان يحمل اسم : « ستة أيام فى الجنة » •

***

أما الطبيب فروى تلك القصة التى زعم انها وقعت له فى مستهل حياته العملية ، فقال :

كنت فى ذاك العهد ، متمسكا بشرف المهنة ، وواجب الطبيب الذى لا يقل قداسة عن واجب الكاهن أو القديس • وقد حدث وقتئذ ان استدعيت فى ساعة متأخرة من الليل لزيارة مفاجئة فى بيت أحد مرضاى ، فارتديت ثيابى على عجل ،

وأسرعت لعيادة هذا المريض ، فاذا بى أجد المنزل خاليا من كل انسان فيما عدا زوجته ، التى كانت تذكرنى بزوجة قيصر التى كانت سمعتها فوق مستوى الشبهات .

كانت ترتدى قميصا حريريا شفافا، وتفوح من جسدها رائحة العطور ، وعندما رأتنى اصطنعت المرض، واستلقت فى فراشها الوثير فى فتنة واغراء ، وأخذت تصرخ من الآلام والأوجاع ، وتزعم لى ، بأنها تشعر باختناق شديد، ولا تستطيع التنفس ، ولكننى وجدت بعد الكشف الدقيق ، انها ليست مصابة بشىء ، ولما صارحتها بذلك ، رأيت فى عينيها أشياء لا يعرفها الا الشيطان ، فما كان منى الا أن حملت حقيبتى وقلت لها ، وأنا أهم بالانصراف:

– حرام عليك يا سيدتى .. اننى لا أزال فى مستهل حياتى العملية ، ابحثى لك عن طبيب آخر!

وحاولنا أن نصدق هـــذه الحادثة ، ونحن ما زلنا فى حيرة من صدق مغامرة صديقنا الشاعر .. ثم أرهفنا السمع للمغامرة التالية لرجل الاعمال .

كان رجلا ناجحا فى حياته العملية ، يتمتع بمكانة مرموقة فى المجتمع ، لكنه كان فى قرارة نفسه يشعر بأنه فاشل فى حياته العاطفية ، لانه لم يكن مقبولا شكلا أو موضوعا ، وبالرغم من ذلك كله ، راح يروى هذه القصة ، فقال :

حدث ذلك ، فى أثناء الحرب العالمية الماضية ، فقد التقيت بفتاة انجليزية حسناء ، كانت قد جاءت الى مصر لتلحق بحبيبها الذى كان يحارب فى صفوف الحلفاء ، ولكنها لم تعثر عليه ، فعاشت فى القاهرة غريبة وحيدة ، حتى التقت بى ، فنسيت ذلك الحبيب الذى جاءت من أجله ، وأصبحت لا تستطيع أن تعيش يوما واحدا بدون أن ترانى ، حتى وصل ذلك الحب الى الذروة ، وكاد ينتهى الى زواج ، ولكننى لم ألبث أن تنحيت عن طريقها لاننى أحسست بأنى لن أستطيع أن أسعد هـــذه الفتاة الجميلة المتعطشة للحب ، لانها كانت تصغرنى بعشرين عاما .. ثم مضيت بعيدا عنها ، وفى قلبى حسرة !

***

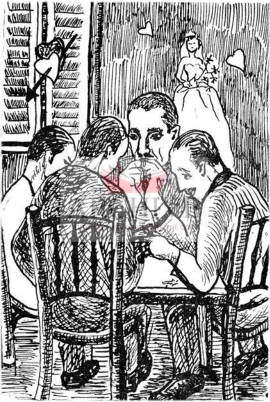
وانتهى الجميع من ثرثرتهم فى جو تلك الليلة العاطرة بالحب ، فيما عدا الرابع الذى لم ينبس خلال السهرة ببنت شفة ، فقد كان يجلس شارد الفكر عنا ، لا تتحول عيناه عن نافذة الغرفة ، التى كانت ترقد فيها سهام .

كان هذا الصديق ، هو الدبلوماسى العربى الذى لزم الصمت ، لكننا أخذنا نثيره للكلام ، حتى خرج عن صمته ، وروى لنا تلك المغامرة ، فقال :

كنت وقتذاك طالبا ثانويا فى احدى مدارس بيروت ، وكانت شقيقتى طالبة باحدى مدارس الراهبات ، فذهبت يوما لزيارتها ، واذا بى ألتقى ببطلة هـــذه القصة :

كانت كاترين زميلة لشقيقتى فى الدراسة ، لم تتجاوز ربيعها الســـابع عشر ، فتآلفت روحانا مع النظرة الاولى .

ومنـــذ ذلك اليوم ، ظللنا نتقابل خلسة ، حتى ذاع أمر حبنا ، وأدى ذلك الى فصل كيتى لانها أمضت ليلة بعيدا عن المدرسة . وهنا قمت بدور الفتى الشجاع ، وعرضـت عليها الزواج ،



وعاهدتها على الوفاء بهذا العهد ، حيث أقدمها الى أسرتى فى اليوم التالى ·

وفى الواقع انى كنت جادا فى هذه الفكرة وفاتحت الاسرة بكل جرأة وشجاعة ، فى أمر الزواج ، فاذا بها تسفه قولى ، وتمنعنى من التفكير فى هذا الامر ، حتى أتم دراستى العالية ، وأستطيع الاعتماد على نفسى فى الحياة ·

كان هذا المنطق المعقول ، ولكنى رفضته بكل شدة لأنى وجدت فيه قرارا جائرا على حبنا ، وعزمت على الذهاب اليها فى الموعد المحدد ، لنتزوج فى الخفاء ، وليكن بعد ذلك مايكون ·

وسرت فى طريقى اليها ، شارد الفكر، أحلم بالايام السعيدة التى سأعيشها مع كيتى ، وأسائل نفسى كيف أسعدها عندما تحل على لعنة الاسرة بسبب هذا الزواج ·

وبينما كنت أسير على هذه الحال ، صدمتنى سيارة ، صدمة شديدة ، ولم أفق لنفسى ، الا بعد أيام ، لأجدنى طريح الفراش فى أحد المستشفيات ، ولم أبرح مكانى الا بعد ثلاثة أسابيع ·

كان أول شىء قمت به بعد مغادرة المستشفى ، هو البحث عن كيتى ··· فتشت عنها فى كل مكان ·· ولكنى لم أعثر لها على أثر ·

ومرت الايام ·· وسافرت الى باريس لاتمام دراستى ، وصورة كاترين لم تبرح خيالى ، لان حبها ، كان قد ترك فى قلبى جرحا عميقا لم يندمل ·

وذات ليلة ذهبت مع بعض الصحاب لتمضية سهرتنا فى أحد ملاهى حى « البيجال » الصاخب وبينما كنا نلهو بمشاهدة البرنامج ، ظهرت راقصة لم نعرها أى اهتمام ، أخذت ترقص رقصة غجرية ، وهى توقع على الدف فى توقيعات عنيفة مع دقات الاقدام ، كأنها تروى قصة حب من نار ·

وبعد ان انتهت من رقصتها دارت على الجالسين بالدف ، تجمع « النقوط » حتى وصلت الى مائدتنا ، ونحن فى شغل عنها بصديقة كانت تجلس معنا ، فاخرجت من جيبى قطعة من ذات الفرنك ، وألقيت بها فى الدف ، بغير اهتمام ·

وفى هذه اللحظة فقط، تلاقت نظرتانا ووقف كل منا جامدا فى مكانه أمام الآخر ، فان هذه الراقصة الغجرية اللعوب ، لم تكن سوى تلك الفتاة البريئة الطاهرة التى أحببتها ذات يوم، وكانت ستصبح زوجتى ·

ثم أرسل تنهيدة حارة من قلب جريح، وحول بصره نحو نافذة الغرفة ، التى تضم سهام ، وقال : نعم · لم تكن سوى كاترين ·

وهنا أدركنا من تكون كاترين ، فان سهام كان لها اسم آخر غير هذا الاسم الفنى، الذى اشتهرت به، ولكن أنظارنا لم تتحول عنه ، فقد كان هناك سؤال حائر ·· يحتاج الى جواب: كيف اختفت كاترين فجاة بعد موعد اللقاء الذى تخلف عنه بسبب الحادث الذى وقع له فى نفس اليوم ؟ فعاد ذلك العاشق الصامت الذى مازال يعيش على ذكرى حب قديم ، وقال :

لقد استسلمت لأول شاب آخر ، قابلها بعد أن تخلفت عن لقائها فى هذا اليوم ، الذى كانت ستصبح فيه عروسا ، وهربت معه الى باريس لتنتقم منى ، بعد أن خيل لها الوهم ، اننى حبيب غادر !

الكذبة

للكاتب الروسى
ليونيد أندريف
(١٨٧١-١٩١٩)
ترجمة : ابراهيم الصيرفي

ـ تكذبين · أعلم أنك تكذبين !

ـ لماذا تصرخ هـــكذا · ألا بد أن يسمعنا الناس ؟

ها هى تكذب مـرة أخـرى · أنا لم أصرخ ، كنت أتكلم بمنتهى الهـــدوء والرقة · أمسكت بيدها وكلتها بهدوء ورقة · كان لكلمة « الكذبة » السامة وقع حفيف الثعبان ·

وظلت تقول لى : « أحبك · صدقنى » وأضافت بعد أن قبلتنى «أتقنعك هذه ؟ » لكنها انفلتت منى عند ما أردت أن أحتويها بين ذراعى · خرجت من الممر المظلم الى قــاعة الرقص حيث قاربت الحفلة نهايتها · وتبعتها · لم أكن أعلم بتلك الحفلة ولا موعدها · ومن أين لى أن أعلم ؟ هى التى أخبرتنى أن آتى ، وقد جئت فرأيت أزواجا من الشـــبان والشابات يتراقصون طول الليل · لم يأت الى أحد ، ولا تحدث الى انسان · كنت غريبا بين الجميع · وجلست فى ركن بجوار الموسيقيين · وفى مواجهتى فم نفير نحاس ضخم به سجين يصرخ فى وجهى لحظة ويقهقه أخرى بصوت أبح متهز « ها ، ها ، ها ! » ·

ومن آن لآخر تتهادى الى ســحابة عطرة بيضـــاء · انها هى حبيبتى · ولا أدرى كيف تأتى لها أن تداعبنى دون أن يلحظها الآخرون ، ففى لحظة وجيزة تضغط بكتفها كتفى ، وفى لحظة أخرى أخفض عينى حتى أكاد أرى عنقها الأبيض وفراكها القصير · وعندما رفعت وجهى رأيت جانب وجه ساكن صارم أبيض ، كوجه ملاك جلس يتأمل فـوق قبور المنسيين · رأيت عينيها ، كانتـا واســعتين ، تنهلان نورا ، جميلتين ، هادئتين · وأشرق ناظراها الاسودان ، تحيط بهما دائرتان زرقاوان · وكلمـا نظرت فيها وجدتهما كما هما ، أسودان عميقا لا يسبر لهما غور · لعلى لم أنظر فيهمـا الا لفترة وجيزة قدر ما يحتمل نبض قلبى · على أنى لم أحس قط فى خوف وعمق بمغزى اللا نهاية ولم أعرف أبدا مدى قدرة سلطانهـــا الا فى تلك اللحظـــات · أحس فى خوف وألم أن حياتى جميعا ذابت فى عينيها كشعاعة رقيقة من نور ، حتى أصبحت غريبـا على نفسى ، فارغا ، صامتا ·· بل ميتا ولكنها انفلتت منى وتركتنى وحيدا · أخذت حياتى معها · وراحت ترقص مع رجل جميل وسيم فاره · ورحت أدرس كل تفاصيله · شكل حذائه ، ســعة ما بين كتفيه الشامختين ، تموج خصلة مبعثرة من شعره · واذ يمسح بى الحائط فى نظرة لا مبالية ولا ناظرة ، متى أغدو

تافها مسطحا أمام تلك العين ، كالحائط ذاته ·

وتقدمت منها عند اطفاء المصابيح قائلا : آن أن نرحل · وستأتين معى ·

وأجابتنى فى دهشة : ولكنى ذاهبة معه ·

وأشارت الى الغريب الوسيم الفاره الذى لم يكلف نفسه عناء الالتفات الينا · وأخذتنى الى الغرفة الفارغة وقبلتنى ·

وقلت لها فى رقة وهدوء : «تكذبين»

وأجابتنى : تعال غدا · سنلتقى غدا لا بد أن تأتى ·

وفى طريقى الى بيتى كان الصباح البارد الأخضر يطل على الأسطح العاليه لم يكن فى الطريق كله سوانا ، أنا وشبح · كان يجلس منكمشا على نفسه يخفى وجهه من لسع برودة الريح · وكنت أنا أيضا أجلس من خلفه منكمشا على نفسى مخفيا وجهى جميعه عدا عينى ·· كانت للشبح أفكاره ولى أفكارى ؛ ووراء تلك الحوائط الصم آلاف من الناس ينامون ، لهؤلاء أيضا أحلامهم ولهم أفكارهم · كنت أنكر فيها وكيف كذبت ؛ وفكرت فى الموت، وبدالى أن تلك الجدران ، وقد خلعت عليها أضواء الصباح من نورها ، قد رأتنى ميتا ، وأن هذا سر برودتها ولم يتأت لى أن أعرف فيم كان يفكر الشبح ، كما لم يتأت لى أن أعرف فيم كان يحلم هؤلاء المختبئون وراء الجدران· وهم أيضا لم يتأت لهم أن يعرفوا فيم أفكر ، وفيم أحلم ·

ظللت أسير عبر الشوارع الطويلة المستقيمة حتى غمر الضوء كل ما حولى وغدا كل شىء أبيض ، متحركا · وتهادت الى سحابة عطرة بيضاء ، وضجت باذنى قهقهة سجين « ها ، ها ، ها ! » ·

كانت تكذب · لم تأت ، وعبثا طال انتظارى · وهبطت من السماء القائمة قطعة من الظلام معتمة ، باردة ، قاسية ، مطبقة · وأنا لا أعلم متى يتحول الشفق الى مساء والمساء الى ليل دامس ، كنت أفكر فيه ليلا طويلا متصلا واحدا · كنت دائما أتنقل جيئة وذهابا · نفس الخطى المنتظمة الوثيرة ؛ خطى الانتظار · جيئة وذهابا · لم أقترب كثيرا من البيت الشامخ الذى تقطن فيه حبيبتى ولا دنوت من باب واجهته الزجاجى ، الذى بدا لى ، من انعكاس ظل شراعته الحديدية عليه ، أصفر · كنت دائما فى الجانب الآخر ، أقطع الطريق جيئة وذهابا · وفى كل مرة أواجه فيها الباب الزجاجى لا أستطيع أبدا أن ألفت عينى بعيدا عنه · وفى كل مرة ابتعد فيها اتوقف مرات كثيرة لألتفت اليه · وبدت قطع الثلوج ابرا حادة تخز وجهى ، وتظل فى طريقها نافذة مخترقة الى أن تصل قلبى فتعتصره باللهفة المضنية وعذاب الترقب اليائس · كانت الريح الباردة تهب من الشمال الى الجنوب المعتم ، وتصفر ، وترتطم بالأسطح التى تراكمت عليها الثلوج لتنحرف منها هابطة لتلسع وجهى بندف الثلوج الصغيرة الحادة فتحدث ما يشبه صوت الرمال تسفيها الريح على زجاج المصابيح فى الشوارع المهجورة ، اذ ارتعش الشعاع الأصفر الوحيد من قسوة البرد ومال

تحت وطأته . وأسفت لهذا الشعاع الأصفر الحابس في وحدته ، لا يعيش الا في الليل ، وظننت ان الحياة سرعان ما تتوقف في ذلك الطريق ، فهمت أن أبادر بالفرار ، ولم تبق الا ندف الثلوج تتطاير عبر الفراغ والا الشعاع الأصفر الحابي يرتعد وينحني في وحدة وبرودة .

انتظرتها ، ولم تأت . وبدا لي إن الشعاع الاصفر في وحدته وأنا شبيهان ، لولا أن مصباحي لم يكن قد فرغ بعد من زيته . ومن حين لآخر كان بعض العابرين يمرون بالمكان الذي أذرعه بخطاي . كانوا يظهرون خلفي في صمت ، ضخاما معتمين . ثم يمرون بي ثم يختفون . فجأة كاشباح رمادية وراء ركن لبيت بني أبيض . ثم يعودون الى الظهور مرة أخرى من وراء الركن مقبلين علي . ثم يتجاوزونني ليذوبوا في بطء في مكان رمادي بعيد تملؤه ثلوج تتحرك في صمت . كانوا جميعا يشبهونني ، بملابسهم الثقيلة ، بصمتهم ، بأشكالهم غير المحددة . وظننت ان كثيرا ممن يتجمدون يمشون مثلي جيئة وذهابا ، وانهم ينتظرون ويرتعدون في صمت مثلي ، وانهم يجترون أفكارهم الحزينة المبهمة .

انتظرتها ، ولم تأت . ولم أدر لماذا لم أصرخ ولم أبك ألما . ولم أدر لماذا كنت أضحك ، لماذا كنت سعيدا . وضممت أصابعي كأنها مخالب ، وخيل لي أني أقبض بها في شدة على كائن صغير سام ، الحية ، الكذبة . وتلتف الحية حول ذراعي وتلدغ قلبي . ويبدأ سمها يسري . كان كل ما حولي كذبة . اختفت الحدود بين المستقبل والحاضر ، وبين الحاضر والماضي . اختفت الحدود بين الزمن الذي لم أكن قد وجدت فيه بعد والزمن الذي بدأت أحيا فيه . واعتقدت اني كنت أحيا منذ الأزل . أو اني لم أوجد أبدا . كانت حبيبتي تسيطر علي دائما . من قبل أن أحيا وبعد أن وجدت . وكان غريبا على أن أظن أن لها اسما أو جسما ، وان لوجودها بداية ونهاية . كانت بغير اسم ، لكنها كانت المرأة التي تكذب دائما ، والتي تدفعك الى انتظارها ثم لا تأتي أبدا . ولا أدري لماذا كان ماكان ، غير أني ضحكت واخترقت ابر حادة قلبي ، وقهقه في أذني سجين « ها ، ها ، ها ! »

وفتحت عيني على نوافذ البيت الكبير مضاءة ، تتحدث في هدوء بألسنتها الحمراء والزرقاء . تقول لي :

« انها تخدعك الآن . في هذه اللحظة الجميلة الوضيئة الخادعة تصغي الى همسات الغريب الوسيم الفاره ، الذي يحتقرك . وانت في تجوالك الضال في انتظار وألم . لو انطلقت اليها وقتلتها ، لصنعت خيرا . تكون قد قتلت الكذبة » .

أطبقت قبضتي في عنف على السكين التي أمسك بها وأجبت النوافذ ضاحكا : « نعم . أقتلها » وأجابتني النوافذ في حزن : « لن تقتلها . أبدا . فالسكين التي تطبق عليها بيدك ليست الا كذبة . كقبلاتها » .

اختفت كل الظلال الصامتة المنتظرة منذ بعيد . وظللت وحيدا في تلك البقعة الباردة .. أنا وشعاع يرتعد من البرد واليأس . وأخذ جرس ساعة ببرج كنيسة غير بعيدة يدق معلنا عن الوقت .

كان صوته المعدنى المرتعش يبكى ، كان يتطاير فى الفضاء ويتوه فى ندف الثلج المدومة المجنونة • وبدأت أعد الدقات وأضحك• الساعة الثالثة صباحا• كان برج الكنيسة هرما • وكذلك الساعة كانت هرمة • وكثيرا ما كانت دقاتها تنفلت من قيودها وتظل تتوالى الى أن يصعد قارع الاجراس العجوز فيوقفها بيده • على من كانت تلك الدقات الحزينة الراعشة تكذب ؟ تلك الدقات التى أطبق عليها الظلام القاتم البارد وخنقها ! يالها من كذبة تافهة •• مسكينة •• حمقاء !

وانصفق الباب الزجاجى عند الدقة الاخيرة المختصرة من ساعة الكنيسة • وخرج الرجل الوسيم الفاره • لم أر الا ظهره ، ولكنى عرفته • ورغم انى لم أره الا منذ أمس بكبريائه وشموخه الا انه اليوم كان أكثر شموخا وكبرياء ، كان أكثر اعتدادا ومرحا • أنا أيضا طالما غادرت هذا البيت على تلك الحالة • انها الطريقة التى يمش بها من قبلته شفاه أنثوية كاذبة •

صرخت وتوعدت وصرخت على أسنانى وقلت لها :

« قولى الحقيقة ! »

وبوجه فى برودة الثلج وحاجبين ارتفعا دهشة ، تشع من تحتهما دائما عينان مبهمان لا يسبر لهما غور •• أجابتنى : « وهل كذبت عليك ؟ »

هى تعلم أنى لاأستطيع اثبات كذبتها وان كل اثر لأفكارى المحتشدة الشاكة لا تلبث أن تزول لدى أول كلمة تصدر من فمها • لدى أول كذبة • وانتظرت الكلمة ، وخرجت من فمها • كانت تبرق ، فى ظاهرها ، بنور الحقيقة ، وكانت فى أعماقها قاتمة : « أحبك ! أنا دائما لك » •

كنا بعيدين عن المدينة وكانت الحقول المغطاة بالثلوج تظهر من خلال النوافذ المعتمة • كان الظلام يحيط بها ، من فوقها ومن كل جوانبها ، ظلام كثيف مقبض صامت ، ولكنها كانت رغم هذا تشع بضوئها المختزن كوجه جثة فى الظلام مصباح وحيد يضىء الغرفة الفسيحة الدافئة • وعلى لهبه الاحمر تنعكس شحوب الحقول الهامدة •

وقلت لها : « أود أن أعرف الحقيقة ، ولا يعنينى الى أى مدى هى محزنة • ربما أموت لدى سماعها•• على أن الموت أحب الى من الجهل بها • أحس الخداع فى عينيك • اذكرى الحقيقة وسأمضى بعيدا عنك ما حييت » • لكنها بقيت صامتة واخترقت بعينيها قلبى•• أعماق قلبى •• وسبرتها •• وعرفتها • وصرخت بها ! « أجيبى والا قتلتك ! »

وأجابتنى فى برود : « اقتل •• أحيانا تغدو الحياة أثقل من أن تحتمل• هلانفذت وعيدك ؟ »

وارتميت الى جوارها على الارض باكيا •• اطلب الرحمة • والحقيقة !

وأجرت أصابعها فى شعرى قائلة : « مسكين ! مسكين ! »

وعدت أضرع اليها أن ترحمنى وأن تذكر الحقيقة •

ونظرت الى جبهتها الناعمة وخيل لى أن الحقيقة تكمن وراء تلك الصفحة الرقيقة • وانتابتنى رغبة محمومة فى

تمزيق جمجمتها لأرى الحقيقة • وفى جنون راودنى أن أمزق صدرها الابيض بأظافرى ، لأرى ، ولو لمرة واحدة ، قلبا انسانيا عاريا • كانت ذبالة المصباح الصفراء تخبو وشيكا فى صمت ، وامتدت الجدران الداكنة موغلة فى الظلام • كان الجو حزينا جدا •• موحشا جدا •• مخيفا جدا •

وقالت : « مسكين ! »

وفى شهقات متلاحقة سريعة حادة •• مفاجئة •• سقط اللهب ثم انقلب الى الزرقة •• ثم انتهى • وأحاط بنا الظلام • لم أتمكن من رؤية وجهها ولا عينيها • كانت زراعاها تحتضنان رأسى • لم أعد أحس بالكذبة وأغلقت عينى • لم افكر ولم آحى • كنت فقط أمتص بروحى •• بكيانى لمسات يديها • وبدت لى صادقة • وفى الظلام ترامى الى صوتها الهامس خائفا غريبا : « ضمنى اليك •• انى خائفة ! » •

ويغيب الهمس ليطبق الصمت •• ويعود الهمس الخافت فى خوف •

« أتريد الحقيقة ؟ فهل أعرفها أنا ؟ لكم أود أن أعرفها ! ضمنى اليك • احمنى ! يا للرهبة ! » •

وفتحت عينى • كان ظلام الغرفة الشاحب قد فر هاربا من النوافذ الكبيرة ، متجمعا على الجدران ، مختبئا فى الاركان • ومن خلال النوافذ أطل شىء كبير ناصع البياض • يبدو أن عينى ميت كانت تتطلع الينا •• كان كائناما يطوينا فى قبضته المتجمدة • والتصقنا أحدنا بالآخر ، فى شدة • كنا نرتعد وهمست « اوه ! يا للرهبة ! »

قتلتها :

قتلتها ، وضعت قدمى فوق جثتها وضحكت عندما كانت ملقاة على النافذة كتلة شاحبة محددة • تلك النافذة التى تمتد من تحتها الحقول البيضاء • وقفت فوق جثتها وضحكت • لم تكن قهقهة مجنون • أبدا ! ضحكت لانى كنت أتنفس فى خفة وانتظام • لان صدرى كان يحتوى السعادة فى أعماقه والسلام •• والفراغ • وسقط عن قلبى ما كان يثقله • وانثنيت أتطلع الى العينين الميتتين • عينان واسعتان شفوفتان بالنور ، بقيتا مفتوحتين • كانتا كعين دمية من الشمع • واستطعت أن ألمسهما باصبعى أن أفتحهما وأغلقهما • لم أعد أخاف لان جنى الكذب والشك لم يعد يسكن تلك العينين السوداوين اللتين لا تسبران •• اللتين كم شربتا فى ظمأ من دمى •

عندما قبضوا على كنت أقهقه • وظن الذين أمسكوا بى أن ما فعلته محزن وفظيع • وانصرفوا عنى متقهقرين فى حقد ، وتقدم منى آخرون • تقدموا منى فى فزع وتوتر وعلى شفاههم كلمات لوم • تقدموا منى فى ثبات • ولكن عندما رأوا نظرة الفرح والبهجة تطل من عينى شحبت وجوههم وارتدوا متقهقرين •

وصاحوا جميعا « مجنون ! » وتبين لى أن هذه الكلمة قد هدأت من روعهم اذ حلت لغزى ، أنا المحب وكيف قتلت حبيبتى ثم لا أزال أقهقه • رجل واحد فقط ، سمين ، أحمر الوجه ، مرح أطلق على صفة أخرى • صفة جعلت الضوء يقيم فى عينى •

قال عني : «مسكين ! مسكين !» قالها بعطف وبـــلا مرارة لانه كان سمينـــا ومرحا ·

وصرخت به : « اسكت ، لا تقل ذلك عنى ! »

ولا أدرى لماذا صرخت فيه · لم أكن اريد أن أقتله ، ولا أن ألمسه · ولكن المحتشدين ممن ظنـــوا بى الجنـــون وحســـبونى مجرما هالتهـــم صرختى فانفجروا فى صرخات هلع وفزع دفعت بى أن أقع فى عاصفة من الضحك ·

وعنـــدما قادونى خارج الغرفة التى ترقد فيها الجثة · نظرت فى عنـــاد الى الرجل الســـمين وصرخت فى وجهـه « أنا سعيد ! أنا سعيد ! » ·

وكانت هذه حقيقة مشاعرى ·

***

رأيت فى طفولتى ذات مرة وأنا فى حديقـة الحيـــوانات فهدا ألهب خيالى وأستبد بافكارى طويلا · لم يكن كغيره من الحيوانات الأخرى · تلك الحيوانات التى تنام فى غباء أو تحملق فى الزائرين بأعين فارغة · كان يمشى فى قفصه من ركن لآخر فى خـــط مســـتقيم · وفى خطوات محســـوبة بدقة · يستدير فى نفس المكان المعتاد ، يحك فروته الذهبية فى قضبان معينة من القفص دائمـــا · كان يمشى مطاطئا راســـه الضـــارية ، الصارمة · ينظر الى الخلف دائما · لم يحـــد عن دورته مرة واحـــدة · كان الزائرون يحتشدون حـــول قفصه طوال النهـــار ، كانوا يتكلمـــون ويحدثون ضجيجا · لـكنه كان دائما فى مسيرته وما التفت مرة واحدة الى المحملقين فيه · كانت قلة من الزائرين تضحك لمشهده أما البقية فكانت تنظر اليه فى اهتمام وربما فى وجوم · الى الصورة الحية من القتامة واليأس · ثم تنصرف عنه فى زفرة حرى · ينصرفون ثم ما يلبثون أن يعودوا مرة أخرى لالقاء نظرةمستفسرة ، نظرة لاتستطيع ادراك شىء ، ثم يزفرون كان شيئا مشتركا يجمع بينهم · بين هؤلاء الاحرار والوحش الحبيس· ومهما قال الناس أو قالت الـكتب عن الأبدية بعـد ذلك · فقـد عرفت الأبدية بكل عذاباتها من هذا الوحش ·

غدوت كهـــذا الفهـــد فى زنزانتى الحجرية رحت أمشى فيهـــا وأفـــكر · أمشى على خط واحد · أعبر الزنانزة من ركن لآخر · وبعيدا بعيدا تجرى أفكارى عبر خط ضـــيق قصير · أفكار ثقيلة يخيل الى معهـــا أنى غدوت بلا رأس ، وانما أحمل فـوق كاهلى عالما بأسره · أفكار تتضمن كلمة واحدة · ولكن أية كلمـــة قاتلة معذبة كبـــيرة · تلك هى « الكذبة » ·

الفحيح مرة أخرى ، يزحف من كل الاركان ليلتف مطـوقا روحى ، على آنه لم يعد ثعبانا صغيرا ، لقد نما ·· نما·· غدا حية لامعـــة ، وحشية ، ضخمة · لدغتنى وطوقتنى بحلقات من حديد · وعندما فتحت فمى صـــارخا من الألم خرج صوت كفحيح الحيـــة ، مصفرا ، مثيرا وكان‌صدرى جميعه‌قد غص بحشد من الحيات : « الكذبات »

وسرت بين أفكارى وتبدلت أمام عينى أرض الزنزانة الســـوداء اللامعة ، الى هاوية رمادية ، شفافة ، بلا قاع · ولم

تعد قدماى تشعران بوقعهما على الحجر وخيل الى أنى أسبح فوق ظلام وضباب عال لا يحد · وعندما تخلص صدرى من زفرة الفحيح ، من هناك ·· من أعماق صدرى ، خلف ذلك الرداء الرقيق الذى لا يسبر ما وراءه · من هناك ترددت فى بطء أصداء مفزعة · فى بطء شـــديد وفى هدوء كانما نقطع آلاف السنين · وفى كل لحظـــــة ، وفى كل ذرة من ضباب ، تفقد الاصداء من قوتها شيئا · وأدركت انها فى المنحدر هناك ·· فى القـــاع ·· تصفر كالرياح التى تمزق الشجر · وترامت الى أذنى كأنباء السوء فى كلمة واحدة مقتضبة : « كذبة » ·

أثارتنى تلك الهمســة الخسيسة ، فضربت الأرض بقدمى صارخا « لا ·· لا كذبة بعد ·· قد قتلتها ! »

وابتعدت عن عمد ، لانى أعلم أنهــا ستجيب · وفى هدوء · وفى بطء ترامت الى الاجابة من هـــوة عميقة بلا قاع : « كذبة » ·

ها أنت ترى كيف تعقد الامر · لقد ارتكبت خطأ متعسا · لقد قتلت المرأة ·· وخلدت الكذبة ! لا نقتل امرأة، ولا ضارعا ، متألما ، ظانا انكستنزع الحقيقة من روحها ·

هكذا كنت أفكر فى زنزانتى ·· فى مسيرى من ركن لآخر ·

مظلم ذلك المـــكان الذى حملت اليه حبيبتى الصدق والكذب ·· وانى لماض اليه · ولســـعف ألقـــاها فوق عرش الشيطان ، ولســـوف آخر راكعا على ركبتى قائلا لها وسط بكائى : « أرينى الحقيقة ! » ·

يا الهى ! لقد بقيت الكذبة · الكذبة خالدة · أحسها فى كل ذرة من ذرات الهواء ، وعندما أتنفس يتسرب الفحيح مع الهواء الى صدرى يمزقه · يمزقه !

آه ! اى جنـــون يترصد من يبغى الحقيقة !

لا نجاة ! لا نجاة !

عم جمعة

بقلم : كمال مرسى

كانت الشمس طالعة ...

ورذاذ مطر خفيف يغسل ـ بالرغم منها ـ كل شيء ...

أسقف اكشاك الصحف وأسفلت الطريق الكبير ، والعربات ، وكلبا ضالا هزيلا يحاول عبور الشارع فتكاد تدهمه السيارات ...

وتوقف الكلب قليلا ... محتميا بجدار المراحيض المدفونة فى بطن الطريق فلا يكاد يبين منها سوى سقفها المنخفض ، وهز جسمه مرة ... أو مرتين لينفض عن شعره حبات الماء .. ثم تابع سيره ...

كان المطر المنهمر قد انقطع ... وبقيت الشمس وحدها ... وغادر (عم جمعه) المكان الذى احتمى فيه بجوار كشك الصحف وهو ينفض بيديه المعروقتين حبات الماء قبل أن يتشربها معطفه المهلهل ...

ـ ما هو بدرى يا عم جمعة ...

قالها (عباس) صاحب كشك الصحف بصوته الرفيع المرح الودود .. لكن عم جمعه هز كتفه وقال فى ملل وهو يشير برأسه الى السماء :

ـ آهى بطلت ...

ـ طيب وماله ... آدنته مؤانسنا .

فى هذه اللحظة تماما جاءت سيارة جديدة تريد الانتظار فى الموقف فأسرع عم جمعه ناحيتها قائلا :

ـ هات ورا يا بيه ... اكسر يمينك قوى ... هات .. هات ..

بس ...

ثم راح يرفع زجاج النافذة الأمامية ليقفله .. وهبط (البيه) من السيارة ثم أغلق بابها بمفاتيح فى يده وهو يرمق عم جمعه فى ريبة فعدل هذا من وضع النمرة النحاسية فوق ذراعه ولم يقل شيئا ...

وراح عم جمعه ـ على غير عادته ـ يتتبع بنظره الكليل ، البيه حتى ابتعد وعبر الشارع الكبير ورآه يقف هناك ... بين الزحام .

ـ بيه ... احنا اصطبحنا بوش مين النهاردة .. ؟

البيه لا بد سيدخل (السيما) ما دام قد وقف فى الطابور الطويل المنتظر أمام شباك التذاكر ... ومعنى هذا ان صاغا آخر سيضيع عليه لأنه سيخرج من السينما فى الساعة ستة ووردية عم جمعه ستنتهى فى الرابعة

٠٠٠ وسـيأتى (الواد عكاشـة) ليسـتلم الموقف مكانه ٠٠٠ وطبعا سيقبض من السيارات التى ستغادر الموقف فى ورديته ٠٠٠ هكذا شـاء الرؤسـاء أن يقسم العمل بينهم ٠٠ وهذه أرزاق ٠٠٠

وراح جمعه يدندن بمواله البلدى (يا ميت ندامه على اللى حب ولا طالشى) والصوت ينبعث خافتا شجيا تختلط به نبرة ساخرة فى شجن ٠٠ وهو يدور حول السيارة الجديدة نيطمئن على غلق أبوابها ٠٠ وعاد يرمق طابور السينما وهو يذوب سريعا أمام شباك التذاكر فتبتلعهالابوابالفخمة ٠٠٠ وتذكر جمعه طوابير أخرى طويلة ٠٠٠ مسكينة ٠٠٠ طوابير من النساء كانت امرأته المريضة تقف فيها ساعات بحالها ٠٠ وطفلتـه أنيسة الصغيرة تلوذ بذيل جلباب أمها الأسود لكيلا تضـيع فى الزحام ٠٠٠ وراحت حكاية (البنت أنيسة) تطفو الى رأسه ٠٠٠ الحكاية بكل تفاصيلها التى تؤرق لياليه حتى تصير كالفحمة منـذ أيام والبنيـة ٠٠٠ **أنيسـة** الصغيرة ٠٠٠ حالها عجب ٠٠ !! كفت عن لعبها مع أولاد الجيران وتكومت فى استكانة ذليلة بجوار أمها المريضـة الراقدة على المرتبة الممدودة على أرض الحجرة الرطبة ٠٠٠ ولا تريد أن ترخى عينيها عن وجه أمهـا الذابل كليمونة معصورة ٠٠٠

وبالأمس ٠٠ بالأمس فقط انسكب السؤال الذى كان حائرا منذ أيام فى عينيها الواسـعتين ٠٠٠ انسكب فى سمعه كلمة كلمة ، كلها مخنوقة كأنها دموع ترتجف على الشفاة الصغيرة ٠

ـ صحيح يابا ، الححة اللى تجيب دم ٠٠٠ مش ممكن تطيب ؟

ـ هس ٠

وانسابت اجابته فى حشرجة مجروحة خانقة حتى لا تفيق الأم المريضـة من غفوتها ٠٠٠ ولكنه لا يذكر ما قال وقتهـا ٠٠٠ كل الذى يعرفه الآن انه لا يستطيع أن يفعل شيئا فقد جربت امرأته الوقفة فى تلك الطوابير الطويلة أمام المستشفيات ٠٠ فى بولاق ٠٠ فى الدرب الاحمر ٠٠ وأحيانا فى الروضة ٠٠٠٠ صحيح انه قال مرة للبنت أنيسة ان الطب هـذه الأيام تقدم ولكن عياله ٠٠٠ منصـور وخليل الصغير يمضغون أولا بأول كل قرش يدخل فى جيبه ٠٠ وعم جمعه لا يستطيع لذلك أن يرسل امرأته الى طبيب خاص ٠٠٠

ـ يا واد يا عبس ٠٠٠ سجر بقى ان شاء الله ما حد حوش ٠٠٠ قالها عم جمعه بصـوت مشروخ عال ليهرب من خواطره ٠٠ وطارت سيجارة من كشك الصحف فتلقفها جمعه شاكرا ووضعها خلف أذنه ٠٠٠ ثم سار بخطى مكدودة بين السيارات المرصوصة حتى وصـل الى المراحيض فجلس فوق سقفهـا المنخفض ٠٠٠ ووضع ساقه الخشـبية بجواره ٠٠ وأحس بعد ما جلس كأن ساقه السليمةلفرط ثقلها قد استحالت الى عمود من رصـاص فأخذ ينظر الى أصابع قدمه وهى تطل من ثقب كبير فى جزمتـه الكاوتش ٠٠٠ ثم راح يلعب هذه الاصابع ٠٠ وابتسم وهـو يرفع صوته :

ـ انت يا للى هنـاك ٠٠ بتعمل ايه عندك ٠٠٠ ؟!

ومن بعيد أشـــار رجل غارق فى الاسمال الى كوز السبارس فى يده .. كان جمعه يحسبـــه يعبث باحـــدى السيارات ... وعادت عينـــاه تطوف بالموقف كله ... لم يعد فى الفضاء الفســيح الواقع بين مبنى المحـــكمة والمراحيض مكان لسيارة أخرى ...

ان عم جمعة يخشى السيارات ويكرهها منذ أكلت ساقه ، ســـيارة مجنونة فى شارع القلعة ... ولكنه بعد أن فصلوه من الورشة لاصابته لم يجد غير شغله (المنادى) وقرفها .. وأصبح عليـــه أن يحرس تلك السيارات التى يمقتها ... وان يدور حولهـــا كالنحلة طول النهار وعيناه فى وســـط رأسه حتى لا تصاب سيارة منها بخدش ...

ودار فى هذه اللحظة محرك سيارة كانت فى الموقف فانمحى فجـــأة الملل الراكد فى عينى عم جمعه فانبرى يصيح بحماس :

ــ أيوه يا بيه ... جاى ..

ثم أسرع يعبر الطريق الضيق بين السيارات المرصوصة وساقه الخشبية تدق الاسفلت اللامع فى خطوها الملهوف نحو السيارة ...

وبدأت تتحرك ...

وعم جمعه كاد فى اسراعه ينكفىء على وجهه ولكنه لم يستطع اللحاق بها .. كانت هذه هى رابع مرة : فى هـــذا النهار ... يسب فيها عم جمعه ساقه الخشـــبية ولكنه يحس هذه المرة انه ظلمها ... فالســـيارة الملعونة أسرعت فجأة فى مسيرهـــا كأنها تفر منه ... وتخيل عم جمعه وجه صاحبها الاحمر السمين وياقته المنشية .. وابتســـامة صفراء شامتة تتراقص على شـــفتيه وتسخر منه وهو لا يســـتطيع اللحاق بالسيارة .. ورآها من بعيد تبتلعهـــا زحمة الشـــارع الكبير .. فبصق على الارض .. ثم وصل الى المراحيض وتذكر السيجارة خلف اذنه فاشعلها ... كان الموقف ما زال مليئا بالسيارات على كل لون ولكنه قال لنفسه : (آهى عربيات متلقحه زى الجتت الميته وكلهـــا حبتين ويجى الواد عكاشه يستلم الموقف .. ما تشوف لك موته قبل ما يغلى الموت) ثم أخذ نفسا طويلا من السيجارة وعاد يقول لنفسه :

(اســـتغفر الله .. بكره خليـــل ومنصور يقووا رجاله عال .. وتستريح يا جمعه ..)

وقطعت فجاة خواطره ، يد توضـــع على كتفه وصاحبها يقول :

ــ مساء الخير يا عم جمعه ...

كان الواد عكاشه قد جاء ليســـتلم الموقف مكانه .. فغادر عم جمعه سقف المراحيض وهو يضم معطفه الممزق حول بدنه الضامر وراحت ساقه الخشـــبية تدق فى خطوها المكدود ، الاســـفلت اللامع بماء المطر ثم ... ابتلعته زحمة الطريق الكبير ...

كان اسمها اميلى

متولى

تأليف : أرسكين كالدويل

ترجمة : إسماعيل البنهاوى

ليس هنـــاك شيء آخر يمـكنني أن أفعله . لا أستطيع أن أستمر فى الحياة اكثر من هذا · فحتى يوم واحـــد آخر من هذا العذاب سـيكون أكثر ممـا يمكنني أن احتمل .

لقد مضى على زواجى عامان حتى الآن وما كان لرجل آخر فى العـالم كله أن يكون عزيزا على كما كان زوجى ، راى ، طوال كل أيام حياتنا معا ·

لا استطيع أن أتخيل كيف يمكن أن يكون اكثر ولاء لى ، وانى لسعيدة أن يكون هو الرجل الوحيد الذى أحببتـه حقا ماحييت . لم يكن فى امكانى ابدا ، ابدا ، ابدا أن احب اى شخص آخـر كما احب راى . ولكنى ، خلال عامين حتى الآن ، كنت أعيش فى عذاب دائب ، وانى لم أعد استطيع احتماله يوما آخر بعد .

ان ما حدث لى هو خطئى أنا . لم يكن لراى اى شأن به . بل هو حتى لا يعلم شيئا عنه . وانما يقع اللوم على وحدى ·

لقد حاولت طوال هذه المدة ، ليلا ونهارا ، ان أفكر فى كل وسيلة ممكنة تفـرى والترجرينواى أن يدعنى حتى يمكنني ان اكف عـن خيـانة راى . ركعت عـلى ركبتى ، لا أدرى كم من المرات ، وتوسلت الى والتر أن يدعنى ولكنه لم يكن ليستمع الى · كل مرة احاول ان أحدثه فى ذلك يهددنى بأن يخبر زوجى . وكان راى يقول لى دائما انه سيتركنى لو خنته واكتشف هو انى كنت خائنة ، وانى لأعلم انه يعنى ما قال · انى أحبه جدا حتى انى لافعل أى شيء فى العالم لأحول دون أن يتركنى · لست أريد أن أخون راى ــ فهذا آخر ما اريد أن أفعـل على هذه الارض . أريد أن اكون مخلصة له ، لأنه رأى ، وزوجى . انى اكره نفسى كل دقيقة فى اليوم لما كنت افعله .

منذ اربع سنوات ، عندما كنت فى الثالثة والعشرين ، ذهبت لأعمل أمينة خزانة فى مكتب والتر . وكنت اذ ذاك لم اكد انتهى من دراستى التجارية فى كلية الاعمال · كان ذلك قبل أن أتزوج راى هاموند بسـنتين . وكان والتر وكيلا لاعمال مصدرى صفائح الزيت ، وكان لديه مكتب صغير للوكالة فى الدور الثانى من عمارة مبنية بالطوب الاحمر قريبة من رصـيف الميـنـاء بين النهر وميناء جاكسون . وكان والتر ــ الذى

عاش كل حياته في نيو أورلينز ـ في الرابعة والثلاثين حينذاك ، وقد اخذ على عاتقه مهمة ادارة شئون الوكالة عندما مات ابوه . وكان هناك كثير من وكلاء الاعمال وشركات التصدير في ذلك الجزء من المدينة ، لكونه يقع في نطاق بعض صفوف من مراسى نهر المسيسي وارصفته .

كان والتر اعزب ، يسكن شقة في الدرو الثالث من نفس العمارة . كانت شقة كبيرة فسيحة ، لها مراى رائع على النهر ، وشرفة واسعة بسور حديدى تطل على الميدان . كان والتر رجلا انيق الملبس ، وسيما ذا قامة طويلة منصبة ، له شعر حالك السواد ـ اسود من شعرى ـ وعينان صافيتان متألقتان .

كان يبدو لى دائما انه من السهل وقوع اى فتاة في حبه ، وربما وقعت كثيرات انا نفسى كنت على حافة الوقوع في حبه مرات كثيرة ، وكثيرا ما عجبت ماذا كان يمكن أن يحدث لى لو انى فعلت . كنت اصعد الى شقة والتر في الدور الثالث بعد ساعات العمل عدة مرات في الاسبوع ، وابقى معه احيانا طول الليل بدلا من الذهاب الى بيتى في جنتلى ، حيث كنت اقيم مع امى واختى الصغرى . وكل مرة كنت ابقى فيها مع والتر ، في تلك الايام ، لابد أنى كنت لأوافق بشغف على أن اتزوجه أو انه سألنى . ولكنه لم يسألنى أبدا ، وانما كان يقول لى كثيرا انى على درجة من الجمال تكفى لاشباع أى رجل وانه يؤثر أن ينالنى دون اى فتاة عرفها على الاطلاق .

وفي خلال السنة الاولى ، وقبل ان أعرف راى ، كان والتر يأخذنى في رحلات نهاية الاسبوع الى بيلوكسى وجلفبورت وباس كرستشيان ٥ طوال الصيف ، وكنا نسرى بفلائك في الخليج ، ونستلقى على الشاطىء في ضوء القمر . كنت سعيدة حينذاك ، لانى أدركت كم كنت وحيدة من قبل ان تتوثق علاقتى بوالتر . كان اول رجل رغبته واول رجل اردت أن امارس الحب معه ، وربما لهذا السبب ، لم يبد لى أى شيء مما كنا نفعله خاطئا . وكنت افكر انه سيسألنى حتما آجلا أو عاجلا أن أتزوجه ، وكنت اتمنى أن يفعل ذلك كل مرة كنا فيها معا . ومع ذلك ، لم يعرض على الزواج أبدا .

سألته ذات ليلة على الشاطىء في بيلوكسي : « والتر ، هل كل اخوتك واخواتك متزوجون ؟ »

قال ، وهو يضحك من ذلك : « كل الثلاثة تزوجوا واستقروا في المعيشة مبكرين ، ياحبيبتى ، ولكنى كنت مختلفا دائما ، واظنها الطريقة الملائمة لما انا عليه انى مازلت من الخارج ارقب ما في الداخل . »

فسألت : « اتلك هى الطريقة التى تريدها أن تكون ، ياولتر ؟ »

قال وفي صوته معنى لايخطىء : «هو كذلك بالتاكيد ، ياحبيبتى . اننى دائما اجعله كتدريب لى أن احصل على الاشياء بالطريقة التى اريدها بها . »

ولقد كان بعد سنة من ذلك ، حينما قابلت راى هاموند ، وسألنى أن أتزوجه بعد اسبوع من لقائنا . كان راى

عطوفا ، كريما شهما ، وكنت واثقة منذ البداية انى لن اندم ابدا على زواجى لو فعلت . لم يكن وسيما كوالتر ، ولم يكن فى مقدوره ان يدفع نفقات ارتداء ملابس غالية ، ولكنه تقرب الى اكثر من اى شخص آخر عرفته على الاطلاق كان راى يعمل فى شركة تأمين . قال انه سيكون قادرا فى خلال اعوام قليلة أن يعول كلينا ، وربما اثنين او ثلاثة اكثر فى نفس الوقت . كنت اعلم انه يريد أطفالا ، وكنت أنا كذلك أريد . كان يريدنى أن أستمر فى العمل حتى يحين الوقت الذى يكون لى فيه طفلنا الاول . كان راى وقتئذ فى الثامنة والعشرين ، وكان يتطلع الى أن يصبح مديرا مساعدا لمكتب التامين فى خلال عامين .

قال فى ثقة : « سنقف على أقدامنا بعد عام او اثنين ، وان تكونى فى حاجة الى العمل يوما آخر بعد ذلك . هذا شىء استطيع أن اعد به . عليك فقط ان تنتظرى وسترين . »

قلت له : « انا لا يهمنى أن أعمل يا راى ، ولكنى اريد أن اؤسس بيتا لنا ، وسأكف عن العمل يوم تريدنى ان اكف » .

قال : « سابذل جهدى حتى لا يكون علينا أن ننتظر طويلاً مجىء ذلك اليوم. هذا هو مطمحى الاكبر فى الحياة الآن» .

وحينما اخبرت والتر فى اليوم التالى بما كنت أفكر فى تنفيذه ، قال لى أن امضى فاتزوج راى ان شئت ذلك ، ولكنه لن يتنازل عنى وانه يتوقع منى أن أواظب على الذهاب الى شقته بعد ساعات العمل كما كنت افعل فى السنتين الماضيتين . ولم اكن استطيع ان اصدق انه كان يعنى حقا ما قال ، ومادمت قد كنت احب راى بعمق ، فقد ذهبنا راسا وتزوجنا . رحلنا فورا لنقضى اسبوع شهر عسل فى فلوريدا . كنت فى غاية السعادة مع راى لدرجة انى نسيت كل ما يتعلق بوالتر وما قال انه يتوقع منى .

اول يوم عدت فيه الى العمل ، بعد ذلك الاسبوع الرائع فى فلوريدا مع راى ، طلب منى والتر ان اقابله فى شقته فى عصر نفس اليوم بدلا من عودتى الى البيت فى الخامسة والنصف . بكيت وحاولت جهدى ان اجعله يفهم انى احب راى ولا اريد ان اكون خائنة، اختل كيانى لدرجة انى لم ادر ماذا أفعل . فى البداية ، ضحك منى والتر وسخر من جديتى . ولكنه ، بعد ذلك، لما الححت فى التوسل اليه أن يدعنى ، غضب بشدة وقال انه سيخبر راى اننا كنا عشيقين لمدة سنتين ان لم أفعل كما أراد . ربما كان يجب على أن اقول له ان يذهب فيخبر راى بما يشاء ، وعندئذ ربما كان كل شىء قد تغير فيما بعد . وربما كان ذلك خليقا ان يكون احكم ما يمكن ان افعله ، او ربما كان على ان اخبر راى انى كنت على علاقة بوالتر واحسب ان راى كان سيغفر لى حينذاك ، لاننا كنا على حب عظيم وكان يبدو انه لن تكون هناك نهاية ابدا لشهر عسلنا . وعلى اى حال ، كان يمكننى ان اترك وظيفتى فى مكتب والتر وان اجد عملا فى مكان آخر . ولكنى كنت اخشى والتر جرينواى . كنت اخشى ما يمكن ان يحدث لو

رفضت ان اذهب الى شقته معه ، وهكذا صعدت فى الخامسة والنصف الى الدور الثالث بدلا من العودة ، الى راى .

اعد والتر جرينواى كئوسا من الجن بالشمبانيا وجلسنا هناك ينظر كل للآخر لمدة طويلة . كان الوقت صيفا آنذاك ، ودافئا ، وبين الفينة والأخرى تمر نسمة رخمة آتية من الخليج خلال النوافذ المفتوحة ، كنت أفكر فى راى وفى البيت الصغير الذى استأجرناه . كنت أستطيع ان اراه ينتظرنى فى البيت وكنت أعلم مدى الاذى الذى يمكن أن يحيق به لو علم أين اكون وسبب وجودى هناك . وبعد هذا لم استطع ان اوقف دموعى .

قال والتر بعد قليل : « لا فائدة من الاستمرار هكذا ، ياحبيبتى » . وجلس بجانبى ووضع ذراعيه حولى وقبلنى . اردت أن اقاومه وأبعده عنى ، ولكنى كنت اعلم مدى عقم محاولة ذلك . فقد كان من عادته أن يتخذ طريقه معى بالقوة ، ويمكننى ان اقول كم كان مصمما وقتئذ على المضى فى ممارسة الحب معى . وكنت فى ذلك الوقت من الضعف والخور رعبا وتعاسة بحيث كنت يائسة تماما . وعندما فتحت عينى أخيرا ، كانت الدنيا تزداد ظلمة فى كل مكان ، وبعدئذ استلقيت هناك أنتحب مدة طويلة . سمعت والتر يقول بعد فترة : « ستشعرين بتحسن أكثر فيما يتعلق بهذا ، ياحبيبتى . لست بالفتاة التى تريد أن تضع نهاية لكل ما بيننا . لقد عرفنا بعضنا مدة أطول من أن تسمح بحدوث هذا الآن . فهو يمكن أن يستمر الى الأبد ، وانك لتعلمين ذلك ، الا تعلمين ؟ »

فصرخت : « أنا لا أعلم — لا أعلم ! كل ما أعلمه انى أريد الذهاب — ارجوك دعنى اذهب ، ياوالتر ! »

« انك منفعلة الآن ، يا حبيبتى . فقط ، اهدئى ، وستشعرين بتحسن كثير » .

« سأخبر راى — سأخبره بكل شىء بمجرد أن اصل الى البيت ! »

« اذا فعلت ، فستكون هذه آخر مرة يستمع فيها اليك . يحسن بك أن تفكرى فى ذلك » .

كان فى امكانى أن احس بجسمى يرتعش كله .

بكيت فى ضعف : « أوه ، يا الهى العزيز ! »

فتركنى والتر وذهب الى الجانب الآخر من الحجرة .

سمعته يقول : « سأعد كئوسا أخرى من الجن بالشمبانيا . هذا يعين » .

عندما وصلت البيت فى الساعة العاشرة تلك الليلة ، كنت أريد أن أخبر راى بكل ما حدث واتوسل اليه أن يغفر لى ويساعدنى . لاحظ فورا كم كنت مختلة وحاول أن يستحثنى على أن أقول له سبب كونى هكذا . أخذنى فى ذراعيه وضمنى بقوة ، ولكن حتى وانا متعلقة به ، كنت لم ازل عاجزة عن ان احمل نفسى على اخباره . وفى كل مرة كنت اتذكر تهديد والتر لى كنت

أشـعر بالخوف من أن يحـدث شيء فظيع لراى . فقد كنت أعلم ان والتر قد قتل رجلا مرة فى مشـادة بسبب امرأة ، وكنت أخشى ان يحـدث الآن شيء لراى .

هذا هو السبب فى انى لم اخبر راى هذه المرة ، و المرة التالية حينما كنت مع والتر . وهكذا بقيت عامين أذهب الى شقة والتر كل مرة يطلب منى فيها أن أذهب . كان ذلك يحدث على الاقل مرة فى الاسبوع واحيانا مرتين أو ثلاث مرات فى الاسبوع . بينما يعتقد راى انى اعمل الى وقت متـأخر فى المكتب تلك الليـالى ، ولا أظنه شك مطلقا فى سبب عودتى متأخرة كثيرا .

لم ينقطع راى أبـدا عن الحـديث بشأن انجابنا طفلا منذ تزوجنا خلال عامين مضيا ، وكنت انتظر طوال هذا الوقت مؤملة كل يوم ان يدعنى والتر. ترقى الآن راى الى مدير مسـاعد فى المكتبة ، ويتقاضى ثلاثة أضعاف المرتب الذى كان يتقاضاه حين تزوج . قال لى عدة مـرات أخيرا انه يحسب ان الوقت قد حان لأكف عن العمل . وانا ، ليلة بعد ليلة ، راقدة صاحية فى الظلام بجانب رأى ، بقيت آمل وأصلى أن يجد والتر شخصا آخر يريده أكثر منى . ولكنه ظل دائما نفس الاسـبوع وراء الاسبوع ، وهو لايزال يقول انى اشهى امرأة يعرفها ، وانا الآن حامل ولست واثقة طفل من أحمل ؟ . انى احب راى لدرجة انى لا استطيع أن ادعه يعتقد انه أبو طفل بينما لا يمكننى أن أجزم ان كان هو أم والتر هو الأب . فطالمـا عشت ــ ولا يهم مدى حبى للطفـل الذى ولدت ــ فانى سأكون شـقية وتعيسة من اجل راى . .

الوقت متأخر الآن بحيث لا يسمح بان أكرر رجائى لوالتر ان يدعنى اترك عملى واكف عن رؤيته ، لانه حتى لـو تركنى فعلا ، فسأظل لا أعرف أبدا ان كان هو أو راى والد الطفل .

لا استطيع ان اخبر راى الآن ، وان أسأله أن يغفر لى ، لانه حتى لو غفر لى حقا ، فسنظل نعيش فى ذلك الشك الرهيب . ليتنى حدثت راى عن والتر منذ عامين . كان يجب على ان أخبره بكل شيء ذلك اليوم الذى عدت فيه الى العمل بعد شهر عسلنا ــ بل كان يجب على ان اخبره قبل ذلك ، ذلك ما كان يتحتم على ان افعـل . ولكن الوقت متأخر الآن ــ أوه ، متأخر جدا .

انى اعـانى جزاء ما فعلت ، والآن والطفل فى الطريق فانى لا أسـتطيع تحمل هذا العذاب يوما آخر . هناك فقط شيء واحد تبقى لى أن أفعله . فانى لم أعد استطيع أن أحيا بعد . على أن أمضى فأنفـذ ما قررت . ما عـدت احتمل الاستيقاظ فى الصباح مرة واحـدة أخرى وأن ينتابنى هذا الشعور الفظيع حتى لمجرد يوم آخر . سيكون هـذا أفضل للجميع كذلك . سيكون أفضل لراى .

قد تكون هناك طرق اخرى ، ولكنى لا استطيع التفكير فى أى منها الآن . لقد فكرت وفكرت حتى أن عقلى يرفض ان يكون عقلا بعد . على ان أمضى فانفذ ما قررت .

... كان اسمى أميلى .

القفص



بقلم : زهير البيومي

فى ليلة مقمرة من ليالى الصيف ، بينما كانت الطيور تغرد على غصون الاشجار فى المزارع المجاورة لمنزل السيد / أحمد ، وبينما هو جالس على سرير المرض دخلت عليه زوجته التى كانت قد ذهبت لتعد له العشاء وقد أفصحت أساريرها عن وجود شيء ما تعانيه ، وكذلك كانت الاطباق ترتعش فى يديها ، فأسرعت بوضعها أمامه ، وجلست الى جواره مستندة برأسها الى كتفه ثم قالت وقد أجشهت بالبكاء :

ـ أحمد : فلنذهب الى سامية كى نرى ما بها .

ورمقها أحمد من فوق نظارته بنظرة مخيفة وأخذ يتناول طعامه دون أو يرفع رأسه اليها ، بينما انسحبت هى من جواره مسرعة نحو المقعد المواجه وتكومت فيه ، وظلت صامتة لبرهة ، وفجأة تغيرت سحنتها بفعل ما كان يعمل فى نفسها من ألم وغيظ ، ثم قالت فى بطئ وهى تضغط على أنيابها :

ـ رحمة بى أنتما الاثنان .. لم يكن ذنبى انىتزوجت رجلا مثلك .. وكذلك لم يكن ذنبى اننى أنجبت بنتا كهذه .

ونهض أحمد فجاة تاركا طعامه وقد علت شفتيه ابتسامة خفيفة ، وخلع نظارته ووضعها فى حافظتها ، ثم مرر يده على خديه يتحسس ذقنه ثم أخذ يتأملها فى المرآة المعلقة الى جوار الفراش كان وجهه يزداد سماحة كلما وقعت عينه على شعرة بيضاء .. ولذا كان يحاول دائما ارضاء الناس جميعا كلما أسرعت هذه الشعيرات البيض فى زحفها على خديه لتضفى عليهما ثوبا من المهابة والوقار ... ، وظل هكذا يتأمل وجهه فى المرآة ، ثم قال فجأة :

ـ سنذهب اليها .. يا نعيمة .. هيا بنا .

ونهضت الزوجة فى عجلة متجهة الى خارج الغرفة ، ولكنها وقفت فجأة لتقول فى صوت خفيض كأنها تتوسل اليه :

ـ لكن والنبى لا تشتمها يا أحمد .. انت تعرف مخها .. حتى لا تعاود الانتحار فقد لا أستطيع انقاذها فى هذه المرة .

كانت سامية تؤثر العزلة دائما خاصة بعد أن اضطرت أن ترضخ لأمر والدها لأنها كانت لا تزال قاصرا فتركت حبيبها الذى حاولت أن تتزوجه على غير رغبة من والدها ، ولذلك اتخذت من الحجرة الوحيدة التى فى الطابق العلوى مقرا لها .

وكان درج السلم الخشبى المؤدى الى

حجرة سامية يئن تحت أقدام الأم والأب الذى انحنى قليلا حتى يتفادى اصطدام رأسه بالطابق العلوى ، ثم التفت الى زوجته التى كانت ترفل فى ثوبها الابيض الملائكى وقال وقد قطب جبينه :

ـ اننى أعرف بنتى جيدا ٠٠ وأعرف أنه لا جدوى من مناقشتها فى هذا الأمر ٠

ولكن الزوجة أخذت ترنو اليه بنظرة كلها استعطاف ٠٠ ثم أخذت يده دون أن تنطق ببنت شفة الى حجرة ابنتها التى أسرعت تقول فى عصبية وقد أجهشت بالبكاء :

ـ لماذا أتيتم الى غرفتى ٠٠ اننى لا أريدكم ، لقد حطمتمونى ٠

وحاولت الأم أن تتكلم ، ولكنها لم تستطع ، وأجهشت باكية هى الاخرى بصوت مرتفع بينما أخذت الجدران تردد رجع نشيجها ، وقال الأب وهو يحاول جاهدا أن يرقق من خشونة صوته ، وأن يختار من الكلمات أعذبها وأخفها وقعا عملا بوصية زوجته :

ـ ما بك ٠٠ أخبرينى يا ابنتى العزيزة ٠٠ سامية ٠٠ الا تستحق منك الرحمة والطاعة ٠٠ هل هناك قلب أحنى عليك من قلب أبيك وأمك ٠٠ انظرى الى أمك المسكينة بعين الرحمة ودعك منى أنا ٠٠ حاولى أن تشعرى بما تعانيه من ألم وحسرة ، لقد أصبحت كل آمالنا فيك أنت بعد أن مات أخوك وأصبحت أنت كل ما لنا فى هذه الدنيا ٠

وسكت الأب برهة ينتظر أن تعلق ابنته بكلمة ، فأخذ يعبث بذقنه ، وطال الصمت ، ولم تعلق ابنته بكلمة واحدة فخرج عن شعوره وانفجر صائحا :

ـ لقد رفضت الزوج الطيب الذى اخترته لك ٠٠ ولم أقل شيئا ، وتركت « القنطرة » بعد أن أصبحت سيرتنا تلوكها ألسنة الناس جميعا ، ولم يعد لهم من قصة تشغلهم غير قصة ابنة « القومندان » والولد « الهلفوت » الذى أحبته وهو لم يحصل بعد على الثانوية العامة ٠

قال هذه العبارة الأخيرة وكأنما حاول أن يستثير ابنته لتتكلم ٠٠ لتقول شيئا ٠٠ أى شىء ، ولكنها لم تفعل فاستمر يقول على غير رغبة منه :

ـ اخبرينى ما الذى تحبينه فيه ٠٠ لتعلمى جيدا أن « لا حب بلا خبز » ٠٠ هل يستطيع أ ن يوفر لك حياة كهذه التى تحيينها الآن ، هل يستطيع أن يشترى لك سيارة كتلك التى جعلتها تحت امرتك ؟ ٠٠ بالطبع لا ، لقد حاولت أن تتزوجيه وأثنيتك عن عزمك فى رفق بعد أن اقنعتك بأن القانون يقف حائلا دون ما تريدين ٠٠ واذا فكرت قليلا فسوف يتبين لك أن العقل يقف أيضا الى جانب القانون ٠٠ فكرى قليلا يا ابنتى ، وادلى لنا برأيك وأخبرينا بما تريدين ٠٠ اللهم الا اذا كنت تريدين الذهاب الى « القنطرة » ٠

وضحك الأب ، وحدثت المعجزة تكلمت سامية هذه المرة فقالت :

ـ لا شأن لك « بالقنطرة » ٠٠٠ وكذلك لا شأن لك بى ، فليس بى شىء كما أنى لا أريد شيئا ٠٠ اتركانى لحالى ٠٠ أريد أن أنام ٠

وأراد الأب أن ينهى النقاش فى هذا الموضوع بالرغم من أن ابنته لم تتنازل

عن موقفها ولم تفصح عما تريد ، وذلك لأن الليل كان قد انتصف ، ولأنه كان يعرف جيدا أن النقاش معها غير مجد كما قال لزوجته قبل أن يصعدا الى الطابق العلوى ولذا صاح بها :

ــ هيا بنا يا نعيمة ٠٠ أقول لك هيا بنا ، هذه الفتاة ليس عندها رحمة ، وليس لديها خير فى أبيها أو أمها ، لقد سامحتها بعد أن حاولت القضاء على سمعتى حين حاولت الهرب والزواج من ذلك « الصعلوك » الذى تسميه حبيبها ٠٠٠ لقد أعطيتها كل فرصة لكى تفكر ، وتكفر عن خطئها ٠٠ لم أصبب عليها لعناتى ، ٠٠ ولم أمنع عنها النقود كما كان يجب أن يفعل أى والد فى مكانى ، ومع ذلك فلم تنتصح ٠٠ ولم تعتبر بل أصمت أذنيها ٠٠ وتجردت من كل احساس بالمسئولية ٠٠ اذن دعيها تركب رأسها ٠٠٠ ولتتحمل نتائج تصرفها ٠٠ هيا بنا ٠ ولم يأت هذا الصياح كله بأى نتيجة ٠٠ ولم يظفر برد من ابنته التى كانت قد أغمضت عينيها متظاهرة بالنوم ، فأخذ أحمد زوجته من يدها وأغلق الباب ، ثم أخذا يهبطان درج السلم بينما أخذت الزوجة تدفع عن نفسها تهمة تدليل ابنتها وتلقى بها على كاهل زوجها :

ــ كل ذلك من عواقب تدليل لها أيها السيد ، عودتها على مناقشتك حتى فى أدق الأمور ٠٠ والآن تحمل عواقب تربيتك وحدك ، ولا تلق بها على كاهل الآخرين ٠٠ لا تحاول أن تشركنى فى ذنب ارتكبته أنت ٠٠ أى مخلوقة تعيسة أنا ٠

وبكت الزوجة كثيرا وامتلأت عيناها بالدموع حتى انها لم تستطع أن تتبين موقع قدميها من درج السلم ، فانزلقت احدى قدميها ووقت الآم على الأرض ، وأسرع زوجها الكهل فحملها بين يديه وسار نحو حجرتها بينما كانت تنظر اليه خلل الدمع بعين العطف والشفقة ٠

منذ ذلك اليوم كف السيد أحمد عن التحدث الى ابنته التى لم تلاحظ شيئا من ذلك ، وأن تطرق الى ذهنها فهى لا تأبه له ، فهى فى شغل شاغل عن كل شيء ٠٠ اللهم الا ذلك الحلم المنور الذهبى الذى لا يفتأ يداعب خيالها بين الحين والآخر ٠٠ هى لا تفكر الا فى ذلك اليوم الذى يجمعها وحبيبها ٠٠٠ يوم تملك فى يدها كل زمامها فتستطيع أن تقول : « سأفعل هذا ، ولن أفعل ذلك » ، وظلت هكذا معتكفة فى حجرتها كعادتها منذ اختلفت مع والديها ، تذرع الحجرة ذهابا وجيئة أو ترقد فى سريرها ، وهى لا تكف عن البكاء وتكفكف عبراتها بالمنديل وتدعك عينيها بظهر يديها بنفس الطريقة التى كانت تتبعها حينما كانت صغيرة اذا ما كانت تريد شراء لعبة ، أما الأم الحائرة بين الوالد وابنته ، فقد نفضت يدها من هذا الأمر تماما ولزمت الصمت

وذات صباح استيقظ الأب ليجد رسالة على مكتبه بخط ابنته وأخذ ينقل ناظريه بين سطورها فى سرعة ليتبين ما فيها ٠ ٠وسرعان ما تراءت له الحقيقة واضحة جلية ٠٠٠ لم يكن يخطر على باله أن هذا اليوم ٠٠ هو يوم ميلادها الثامن عشر ٠٠ اليوم الذى يصبح فيه من حقها أن تفعل كل ما يبدو لها ٠٠٠ وأحرق الخطاب محاولة منه أن يخفى

الأمر عن زوجته التى أصبحت طريحة الفراش ، ولكن الأمر لم يكن ليخفى أبدا ، فقد أسرت الخادمة بما حدث الى الأم لم تكن تدرى ما يدور حولها بعد أن اشتد عليها المرض ٠

أما السيد أحمد فقد أبى الا أن تسير حياته فى مجراها العادى ، فكان يرتدى ملابسه فى الصباح الباكر كل يوم ليذهب الى محل عمله فى وقته المعتاد محاولة منه لان يبدو طبيعيا أمام زملائه ومرءوسيه الذين سرعان ما انتشر الخبر بينهم ، بعد آن تسرب اليهم عن طريق الخدم بعد عدة أيام ، وحاولوا أن يجدوا أثرا لذلك على وجهه أو فى صوته ، ولكن كيف السبيل الى ذلك وهو الرجل العسكرى الصلب الارادة ، القوى الشكيمة ، فلم تفصح أساريره عن شىء من مكنون صدره ، ولم يتقطب جبينه ، بل كان على العكس من ذلك تماما ٠ كان وجهه جامدا ٠٠ خلوا من كل تعبير ، كما كان صوته قويا أجش كعادته ٠٠ بل لعله كان يسعى جاهدا أن يجعله أقوى مما كان ، بينما أخذ يلقى بالأوامر يمنة ويسرة ، كان موظفو المصلحة يكرهونه فيه نزوعه المستمر للجد ، وعزوفه عن المزاح والضحك ، كان جميعهم يتمنون من صميم قلوبهم أن يرونه يوما كسير النفس ، وظنوا ان اليوم قد جاء حينما سمعوا بذلك الخبر ٠٠ ولكنه خيب ظنهم ، كان يشعر بنظراتهم تزحف على وجهه ٠٠ تفتش عن أى أثر للحزن ، وتحاول أن تخترق رأسه الكبير لتقف على ما يدور فى خلده ، وتحاول أن تنفذ الى قلبه لترى ما به من اضطراب ، ولكنه كان من ذلك كله بمثابة الحصن المنيع ٠٠٠ كان يمشى كعادته منتصب القامة مرفوع الرأس ، كله كبرياء وصلف ، لم يكن يهمه فى هذه اللحظات شىء من أمر ابنته بقدر ما كان يهمه الابقاء على هيبته ووقاره أمام الموظفين ٠

وعلى هذه الحال صارت حياة السيد أحمد منذ اختفت ابنته التى لم يحاول أن يبحث عنها ، يذهب فى الصباح الى عمله ثم يعود فيلقى نظرة على زوجته المريضة ، ثم يدخل الى حجرته فلا يخرج منها الا فى الصباح التالى ، اللهم الا اذا خرج ليستقبل الطبيب الذى كان يعود زوجته المريضة لكى يعرف ما يتطلبه العلاج من دواء ٠

وذات يوم اذ هو داخل الى البيت ، تسلل الى سمعه صوت كان قد نسيه فى غمرة الذهول الذى اعتراه بعد أن هجرت ابنته البيت ، صعد أحمد الى الطابق العلوىحيث حجرة سامية حيث كان العصفوران اللذان اشترتهما لا يزالان فى قفصيهما يغنيان أغنية حزينة من كآبة البيت ٠

كان هذان العصفوران وصورتها معلقة بنفس الغرفةبالاضافة الى منديل لا تزال به آثار الدمع هى كل ما خلفت سامية من آثار ، ولكنها كانت كافية لكى تثير الشجن ، وتشيع الحزن فى البيت الصغير ٠

أخذ الأب يجيـــل ناظريه فى أنحاء الحجرة عن أى مخلفات أخرى ، ولكنـه لم يجد شيئا ، فجعل ينظر الى القفص، وأخذ يتصور العلاقة التى قد تنشـــأ عن وجود هذين العصفورين فى قفص واحد ، أخذ يتصور الضوضاء التى يمكن أن تحدث فى البيت اذا ما انجبا طيورا أخرى ، وعلى الفور أمر الخادمة الصغيرة بشراء لفة من الســلك من أحد المحال المجاورة ، وأخذ يصنع بهــا حاجزا فى منتصف القفص ، ووضع كل عصفور فى ناحية ، ثم اتجه ينظر الى صورتهـا المعلقة على الحائط المجاور ، فرآهـــا غاضبة مما فعل ، وقد انتشرت البثرات فى وجهها تماما كما كان يحدث لها كلما أغضبها ، وأخذ يتطلب بعــد ذلك فى احتقار الى المنضدة المجاورة حيث كان المنديل المبلل بالدمع ملقى هناك ، وقال لنفسه هكذا ستظل تبكى بقية عمرها ، ثم اتجه عائدا ادراجه ، ولكنه قبل أن يصل الى الباب تذكر انه قد رأى شيئا ما الى جوار المنديل ، وعاد فالتقط هذا الشىء ، كان هذا الشىء هو صورة ابنه الذى مات صغيرا ٠٠ كان ضعيف البنية ضعيف البصر ، ضئيل الحجم ، ولكن عقله كان كبيرا ، ليته عاش وماتت هى ٠٠ كان مطيعـــا ٠٠ رزينا ٠٠ لو أنه عاش فانه ما كان ليرضى عن مثل هـــذا التصرف الاحمق الذى اتخذته أختـه ، انني متأكد من ذلك فقد كان مثلى تماما ٠٠٠ أما هى كأمها تماما بعقلها مس من الجنون اسمه الحب » ٠

هكذا كان يقول الاب لنفســه حين وقع نظره على صورة ابنه الذى مات وهو لم يزل فى عمر الورد ثم تمتم وهـــو لم يزل فى عمر الورد ثم تمتم وهـــو يسير خارجا « لو أنه ظل على قيد الحياة، لما اختلف موقفه من أخته عن موقفى منها ٠٠٠ أننى متأكد من ذلك ٠٠ كان رزينا ٠٠ رحمك الله يا بنى » ٠

صـــار الأب يلقى نظرة كل يوم على حجرة سامية ويتامل أحوال العصفورين اللذين خلفتهما كانت تثور ثائرته كلما رأى العصفورة تحاول أن تخترق الحاجز الفاصل بينهـــا وبين وليفها ، ويصيح متوعدا اياها كلمـــا رأى منهـــا ذلك « سأمنع عنك الطعـــام ٠٠ والشراب » أما هى فكانت لا تعى وعيده ، أو لعلها كانت لا تأبه له ، بينما اســـتمرت فى عملها جاهدة تنقر السلك ، وتحـــاول أن تدفع بجسدها الضئيل بين فتحاته الضيقة دون أن تفكر فى جوع أو ظمأ ، ولشد ما كانت ثورة السيد أحمد حينما عاد من عمله ذات يوم ليجد الخـــادمة تضع الطعام والشراب للعصـــفورين ، وتحاول أن توسع فتحة للعصفورة لكى تنفذ الى الجانب الآخر من القفص حتى لا يتسرب الشك الى سيدها انها نقلتها مباشرة الى الناحية الاخرى ، وصـــاح السيد بالخادمة :

ـ أيتها الملعونة ٠٠ تتآمرين معهم على ٠٠ تكسرين أوامرى ٠٠ كلكم خائنون

اخرجى من بيتى ٠



وأسرع الرجل بتضييق الفتحة التى كانت العصفورة تحاول التسلل منها ولكنه عاد مكتئبا فى اليوم التالى بعد أن سمع أن ابنته قد انجبت بنتا وانها سعيدة فى حياتها من الزوج الذى رفضه، ودخل على الفور ليجد العصفورين فى جهة واحدة ، ولكن كان احدهما حيا فقط أما العصفورة فقد كانت راقدة فى أسفل القفص ·· وقد ماتت بعد أن تكسر ريشها وجناحاها من الاسلاك الفاصلة بين نصفى القفص ، وتأثر السيد أحمد وأسند رأسه الى القفص وهو يبكى ، ثم اتجه الى غرفته وأخذ يكتب هذه البرقية ·

« عزيزتى سامية ·· حاولت أن أفصل العصفورين اللذين اشتريتهما ولكن العصفورة ضربت أروع مثل لى كيف يكون الحب حتى الموت ، سلامى الى زوجك وابنتك ·· انتظرانى ، سوف أحضر فى أول قطار »

وبعث السيد أحمد بهذه البرقية الى مكتب البرق ، وأخذ يعد العدة للسفر الى ابنته وزوجها ، ويرتدى ملابسه فى سرعة وبينما هو كذلك وصلته برقية مذيلة بامضاء زوج ابنته فقط أخذ يقرأها فى لهفة ولم يلبث أن خارت قواه حين وقع نظره على هذه العبارة : « عصفورتى ضربت أروع مثل فى ذلك أيضا » ·

القصة حول العالم



بقلم : على شلش

الجنة الخضراء والقصة القصيرة

للكاتب القصصى الأمريكى جون شتاينبك قصة قصيرة ذكية بعنوان « الجنة الخضراء» ، عالج فيها مشكلة الامريكى الذى ينحدر من أصول ايرلندية ، ويجد نفسه مرغما ـ ان عاجلا أو آجلا ـ على أداء فريضة الحج الى مسقط رأس أجداده • ومنها هذه العبارة التى جاءت على لسان راويها :

أحسب أننا كنا نرى فى ايرلنـــدا ـ أرض الأبطال ـ جنـة خضراء ، حيث كان النـــاس الذهبيون ينبعثون من الخضرة تحف بهـم الازهـــار والورود من كل اتجاه » •

وأحسب أن بطل القصة ـ وراويها فى الوقت نفسه ـ لم يخطىء التصور ، فقد أنجبت هذه الجنة الخضراء عددا من أبطال التاريخ ، كما أنجبت عددا من ابطال الادب ، ومنهم شتاينبك نفسه الذى تجرى فى دمه دماء أمه الايرلندية الأصل ، فهو اذن ايرلندى (منتسب) ان صح التعبير ، تمييزا له عن (المنتظمين) أمثال وليم بتلرييتش وجون سينج وبرنارد شو وشون أوكيزى وجيمس جويس وصامويل بيكيت وسواهم من الذين انتظموا فى الدماء الايرلنـدية بحـكم المولد والأب ، لكن الغريب أن كثيرين من هؤلاء المنتظمين هجروا جنتهم الى انجلترا أو اوربا او امريكا حيث عاشوا الى نهاية حياتهم ، وخاصة جيمس جويس (١٨٨٢ ـ ١٩٤١) الذى غادرها بلا عودة فى سن الثلاثين وكذلك سكرتيره السابق صامويل بيكيت أحد أبطال فكرة العبث فى المسرح المعاصر •

أقول ذلك تقديما الحديث عن الكاتب القصصى الايرلندى شـــون أوفولين الذى يكاد أن يكون مجهولا تماما فى العربية ، رغم انه يعد أشهر أديب ايرلندى على قيد الحياة ، أو هو «الأديب الاول فى ايرلندا اليوم» كما اعتاد أن يصفه ناشرو مؤلفاته ، وأوفولين كاتب خصب متعدد الجوانب ، اشتغل بكتابة القصة والنقد والصحافة والسير والتـاريخ منـذ أكثر من ثلاثين عاما • وقد ولد عام ١٩٠٠ ، وكانت باكورة انتاجه مجموعة من قصار القصص بعنوان «**جنون ليلة من ليـالى**

منتصف الصيف ، أصدرها فى عامه الثانى والثلاثين ابان عمله بالتدريس ، لكنه لم يسلم من «التفاحة» ، فكان أن خرج من «الجنة الخضراء» وغاب عنها ست سنوات قضـــاها مناصـفة بين انجلترا وامريكا ، ثم عاد عام ١٩٣٣ فوهب نفسه للقضية الوطنية معضدا بطلها ديفاليرا ، لكن ذلك لم يصرفه عن كتابة القصـة والرواية التى استهوته ، فقد شجعه على المضى فى هذه الطريق ما تجسد فيه من ذكاء الايرلندى التقليدى ورهافة حسه وطيبة طويته ، فنشر فى الفترة من ١٩٣٣ الى ١٩٤٠ ثلاث روايات لم تنل حظا كبيرا من الشهرة للأسف • ومع ذلك لم تصبه خيبة الأمل ، فقد ظل يكتب ويعانى ، حتى تولى عام ١٩٤٠ رئاسة تحرير مجلة « الناقوس » ، وهى مجلة شهرية حرة داومت على الصدور قرابة ست سنوات ، وكانت تشجع الأدباء الناشئين وتجازيهم ماديا • وكان هو رئيس التحرير الوحيد فى بلاده الذى فتح صدره للناشئة وانتاجهم ، حتى قيل ان جهوده انقذت الأدب الايرلندى وجنبته الهاوية • بل انه كان يبثهم شعاره الذى اتخذه دستورا لنفسه ، ولخصه فى كلمات هى : « **انظر الى الحقائق وافهم الصورة** » كذلك أعجب بقول مأثور للشاعر الفرنسى بودلير نصه أن « **كل من لا يقبل ظروف الحياة ويسـالم بها فانه يبيع روحه** » ، وشدد على كلمة « كل » بحيث تعنى كل انسان ، وكل أمة ، وكل كاتب •

والحق أن اوفولين كان ــ وما يزال ــ من طراز الرومانسيين الثوريين الجادين ان صح أن يوجد مثل هذا الطراز ، فقد مزج الواقع بالطموح والشجن والمعاناة • فكان أن ناصر المرأة ــ مثلا ــ فى وقت عاداها فيه الكثيرون ، نتيجة التزمن السائد وضيق الأفق • ثم تحول الى التاريخ والسير فأخرج عددا من المؤلفات أهمها كتابه « أونيل العظيم » الذى ترجم فيه لحياة المسرحى الأمريكى المعروف المنتسب للجنة الخضراء بحكم الدم ، وكذلك ترجمته لحيـاة ديفاليرا • كما نشر مؤخرا المجموعة الكاملة لقصصه القصيرة ، وضمنها ٧٢ قصة تعد سجلا لحياته وحياة بلده ، وهى تتميز بالواقعية التى تتخللها نبضات من العاطفة والخيال •

ولأوفولين آراء قيمة فى فن القصة القصيرة هى حصـيلة تجربته وثقافته القصصية وحسه النقدى الدقيق • وأعرض هنا لماكتبه فى هذا المجال تحت عنوان « **فن القصة القصيرة** » ، نظرا لما تتضمنه هذه الدراسة الذكية العميقة من نقاط وملحوظات جديرة بعنايتنا فى هذه الآونة التى يشـتد فيها الطلب على الأصالة والموهبة •

وهو يستهل دراسته هذه بقوله ان اكثر ما يعرض القصة القصيرة لســوء الفهم هو اسمها ذاته ، نظرا لما توحيه كلمة « قصة » لجمهرة القراء والكتـاب بما لا يخرج عن معنى كلمة « حكاية » ، أى النادرة أو اللطيفة البارعة ذات البداية المشوقة والوسط الدرامى والنهاية غير المتوقعة التى تعتمد على عنصر المفاجأة ، وفى رأيه ان هذا الضرب من الحكايات الذى نسمعه فى المخادع والاندية هو النسخة العصرية للحكاية الشعبية القديمـة التى كانت تروى بالقرب من النيران بقصـد التسلية مع التدفئة ، لكنه يضيف انهـا لاتنشىء قصصا قصيرة بالمعنى العصرى

للكلمة ، كما يندر أن تتحول الى هذا اللون الفنى ، لقيامها على الاحداث الكثيرة ، واقتصارها على السمع دون القراءة .

أما القصة المكتوبة فهى تهذيب وتكرير ، أو بالاحرى سلسلة كاملة من **التهذيب لهذا النوع من التسلية والمتعة ، والعقدة هى احدى صور هذا التهذيب والتكرير .. ذلك لان أقدم الأسمار لم تكن بها عقدة قط : اذ هى لاتعدو أن تتقدم من حادثة الى أخرى فى تسلسل مغامرات لايحد عددها سوى مقدرة الراوى على الاختراع والابتكار أو صبر المستمعين أو انشغالهم بها .. ونوجز فنقول ان العقدة عبارة عن حيلة واحدة ضمن كثير من الحيل ، وليست غاية فى ذاتها .**

وينتقل أفولين الى الفرق بين الحادثة والقصة ،فيضرب مثلابحادثة ملخصهاأن سيدة فى مقتبل العمر كانت تستقل احدى عربات الاجرة فى لندن ، عندما اصطدمت بالاخيرة عربة نقل أحدثت بنافذتها ثقبا على هيئة نجمة ، وطارت شظية مسنونة من زجاج النافذة المتهشم واندفعت كالخنجر الى قلب السيدة فأردتها قتيلة فى الحال . ثم يعلق على هذه الحادثة بقوله : « ان الموت لم يكن بلغة الفن موتا مأساويا ، فقد كان مأساة خارجة عن الارادة فى ساعة نحس ، ولم تكن له دلالة ، ولا معنى ، ولاقصد آخر أكثر من الحقيقة المحزنة التى تشير الى أن كثيرا من حوادث النحس العادية تحدث فى الحياة وتتواتر » . ويمضى بعد ذلك فيناقش علاقة القصة كعمل فنى بالحادثة الواقعية المشابهة فيقول : « ومن هنا فان ما أعنيه هو أن جوهر القصة ولبها ليس هو مايحدث ، وانما هو اماطة اللثام عن الدلالة الضخمة لما يحدث ، وهذه الدلالة هى ماينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار عند تقويم قصة قصيرة ».

لكن ما معنى كلمة دلالة ؟ وكيف تدخل هذه الدلالة فى قصة قصيرة ؟ واين يجدها الكاتب ؟ وكيف يعرف ما اذا كان وجدها أم لا ؟ .. انه يعترف بداءة أن مثل هذه الاسئلة لا يمكن الاجابة عليها . « ذلك لأنها من الأمور التى لايمكن أن تلقن لأحد ، كما لا يمكن ان يدرسها أحد . وهذا هو السبب فى ان كافة المناهج التى توضع تحت عنوان « كيف تكتب قصصا قصيرة » انما هى فى المدى البعيد شرك وغش ... فالحق أنه لا القصة القصيرة ولا القصيدة يمكن أن تتراجم ترجمة دقيقة الى كلمات أخرى عدا كلماتها هى الخاصة بها وحدها . فشخصية الكاتب هى التى تقوم بتوحيد التكنيك (فن المعالجة والأداء) والمحتوى فى ذات واحد مفردة » وما مهمة التكنيك ؟ .. يقول : **((ان كل مهمة التكنيك هى أن ينومنا مغناطيسيا حتى نسلم بأن ما يصفه الكاتب يحدث لنا بالفعل ، كما لو كان عوضا عن هذا الذى يحدث أو وكيلا له . وذلك كى نحس بذات الطريقة التى يحس بها الكاتب . ومن ثمة فان القصة فى الواقع لا تدور حول شىء على الاطلاق ــ بقدر ما تدور حول نظرة الكاتب للحياة ، وطريقته الذاتية فى النظر الى الأمور ... فقصة ((الحلية)) لموباسان تدور حول امرأة فقدت قلادة كانت قد استعارتها . لكنها عن موباسان نفسه . فهى عن عبارة عن أسلوبه فى أن يقول : ((هكذا الحياة ؟)) ــ أى ((هكذا أرى الحياة)) ...**